الأخوية بعد غروب الشمس. وبما أنني كنت المديرة الاجتماعية، فقد وضعت خطة لأنخاب شراب الجيلو التي سنشربها، ولعصب عيون الفتيات الجدد، وللشموع، وللقفز المفاجئ في مياه المحيط.

لكني استيقظت مرهَقة أشعر بالغثيان. رحت أقضم قطعة شوكولا بالمكسرات وأنا أسير متحاملة على نفسي ذاهبة إلى «ندوة تطوّر الطفولة المبكرة». عندما أخرجت دفتري حتى أكتب مهمات الأسبوع التالي، انتبهت إلى شيء جعل قلمي يتجمد على الورقة: لقد تأخرت دورة الحيض عندي. لم أكن مريضة، بل حبلى!

عندما رفعت رأسي من جديد، رأيت أن بقية الطالبات قد جمعن دفاترهن وكتبهن وبدأن يخرجن من الصف. لقد سرقت تلك الصدمة مني بضع دقائق.

تغيبت عن الدرس الذي بعده، وذهبت إلى صيدلية عند آخر حرم الكلية فاشتريت علكة ومجلة وبعض الأقلام وشريط اختبار الحمل كما لو أن ذلك كان مجرد مادة إضافية عارضة على قائمة تسوّقي. كان إلى جانب الصيدلية واحد من محلات ماكدونالدز فدخلت إلى حمامه، ثم أغلقت باب المرحاض من خلفي ورحت أستمع إلى فتاتين لم تبلغا سن المراهقة تمشطان شعرَيْهما أمام المرآة وتتحدثان عن حفلة بريتني سبيرز التي تموتان شوقاً لحضورها. أكدت العلامة على شريط اختبار الحمل ما كان حتى تلك اللحظة مجرد شك عندي.

قلت في نفسي غاضبة إنني لا أزال في الحادية والعشرين، بل إني لم أنهِ دراستي بعد. لم تبدأ علاقتي مع صديقي دانييل إلا منذ بضعة شهور فقط.

خرجت من حجرة المرحاض ومضيت إلى صف المغاسل فأجريت الماء البارد على يدَيَّ ومعصمَيّ. نظرت إلى الفتاتين فصمتتا عندما شاهدتا وجهي.

في تلك اللحظة، كان دانييل في صف السوسيولوجيا الذي ينتهي عند الساعة الثانية عشرة والنصف. كنت أحفظ برنامج دروسه عن ظهر قلب. أسرعت إلى مبناه واجتزت الرصيف العريض الذي أمامه. رأيت بعض الطلاب جالسين على درجات المدخل يدخنون. في حين كان نفر آخر منهم مستلقياً على العشب الأخضر... بعضهم يتناول طعامه، وبعضهم الآخر يتقاذف أقراص الفريزبي. كانت فتاة تضع رأسها في حضن شاب، وكان شعرها الطويل منسدلاً على فخذه كأنه بطانية. انطلق صوت أغنية «Greatful dead» منبعثاً من آلة تسجيل.

قبل ساعتين فقط، كان من الممكن أن أكون واحدة منهم.

بدأ الطلاب يخرجون من الباب، فرحت أنظر في وجوههم باحثة عن دانييل. هو ليس الشاب صاحب الشبشب وقميص جامعة غرانت، ولا ذلك الذي يحمل حقيبة ساكسوفون ضخمة، ولا حتى ذاك الذي يحمل حقيبة معلّقة من كتفه.

إنه لا يبدو مثل أي واحد منهم.

بعد تناقص عدد الخارجين من الباب، ظهر دانييل عند أعلى السلم وهو يضع نظارته في جيب سترته وقد علّق على كتفه حقيبة صغيرة كانت مستقرّة على صدره. رفعتُ يدي ولوّحت له. ترددت خطواته لحظة عندما رآني. ثم تابع نزول الدرجات حيث كنت واقفة.

اعترضت طريقه فتاة قالت له: «أستاذ بارتون!». لعل لديها سؤالاً متعلقاً بدروسه، أو لعلها تحاول مغازلته.

كان دانييل بارتون في أواسط الثلاثينات، وكان قادراً على جعل أبطال رمي الفريزبي، بكل قفزاتهم واندفاعاتهم عندما يلتقطون القرص، يبدون كأنهم جراء صغيرة. كان يلقي نظرات سريعة في اتجاهي وهو يتحدّث مع تلك الفتاة وقد بدا قلقه واضحاً. إنني أخالف القاعدة التي اتفقنا عليها: لا يعرف واحدنا الآخر داخل الكلية.

ذلك لأن من الممكن أن يُطرد من عمله! لقد أعطاني الدرجة النهائية في السنة الماضية، قبل أسابيع من بدء العلاقة بيننا. لقد كسبت تلك الدرجة بجهدي الخاص... لم يكن قد جرى بيننا أي حديث ذي طابع شخصي إلى أن صادفته بعد أن تركت أصدقائي عند خروجنا من حفل ديف ماثيوز الغنائي عند الشاطئ ـ لكن، هل يمكن أن يصدّقنا أحد؟

عندما اقترب مني بعد زمن بدا لي طويلاً جداً. همس لي: «ليس الآن، سأتصل بك في ما بعد».

«لاقني بالسيارة في مكاننا المعتاد عند الساعة الثالثة».

هز رأسه: «لا أستطيع اليوم. غداً». صعقتني نبرة صوته الفظة.

«الأمر مهمٌ حقّاً».

لكنه تجاوزني واضعاً يديه في جيبي بنطلونه ومضى في اتجاه سيارته الألفا روميو العتيقة التي أخذتنا إلى الشاطئ مرات كثيرة في ليالٍ مقمرة. نظرت إليه مصعوقة وهو يبتعد عني. شعرت بخذلانٍ عميق.

سوف ألتزم باتفاقنا؛ ولا بد أنه أدرك أهمية الأمر. ألقى بحقيبته على المقعد المجاور لمقعد السائق ـ على مقعدي ـ ثم انطلق بالسيارة.

طوقت بطني بذراعي ووقفت أنظر إلى سيارته تنعطف عند الزاوية ثم تختفي. وبعد ذلك، عدت بخطى بطيئة إلى بيت الطالبات حيث كان الجميع منهمكاً في الاستعدادات.

كان عليَّ إكمال ما بقي من ذلك النهار. هكذا قلت لنفسي وأنا أغالب الدموع التي ملأت عينيّ. بعد ذلك، أستطيع أن أتكلم مع دانييل. وسوف نضع معاً خطة.

«أين أنتِ؟»، سألتني رئيسة أخوية الفتيات عندما دخلت من الباب. لكنها لم تنتظر إجابتي. سوف تنضم إلينا الليلة عشرون فتاة جديدة.

الفصل الثاني والعشرون

بعد أن أتت خالتي شارلوت وأخذتني من بار فندق روبرتسون فأعادتني إلى البيت، أخذت حماماً فاتراً ورحت أزيل عني العرق ومستحضرات التجميل. كنت أتمنى لو أنني أستطيع إزالة ذلك اليوم كلّه بسهولة مماثلة حتى أستطيع أن أحظى بفرصة جديدة مع إيما.

كنت قد خططت كلامي بكل عناية. توقّعت أن تكون إيما متشكّكة أول الأمر. لو كنت محلها لكنت متشكّكة أيضاً ـ لا أزال أتذكّر كيف غضبت واتخذت موقفاً عدائياً عندما أظهرت سامانثا شكوكاً تجاه ريتشارد، أو عندما عبّرت أمي عن قلقها من أنني أفقد شخصيتي أمامه.

لكني افترضت أن إيما سوف تصغي إلى كلامي على أقل تقدير. افترضت أنني سأحظى بفرصة زرع بذرة الشك التي يمكن أن تجعلها تنظر نظرة أكثر تدقيقاً إلى الرجل الذي اختارته حتى تمضي معه بقية حياتها.

لكن من الواضح أن رأياً سلبياً عني قد تشكّل لديها قبل أن أتحدّث معها اليوم... رأي يقول لها إنني لست أهلاً لثقتها.

أدرك الآن كم كنت حمقاء عندما ظننت بأن هذا الأمر يمكن أن ينتهي بسهولة. عليَّ أن أجد طريقة أخرى حتى أجعلها تفهم.

كؤوس من الماء المثلج مدركة أنني كنت في ظمأ شديد. نتحدّث عن سيرة حياة الرسام ماتيس التي كانت تقرأها؛ ونتحدّث عن فيلم سينما أتظاهر بأنني راغبة في مشاهدته.

أتظاهر بأنني صرت أحسن من الناحية الجسدية. كما أن تلك الأحاديث السطحية تلهيني عمَّ في رأسي. لكن بديلتي عادت إلى أفكاري عندما رجعت إلى غرفتي وأغلقت ستائري وجاء المساء. إنها ضيف ملحاح غير مدعو، وأنا غير قادرة على طردها.

أراها تجرِّب فستان زفافها وتدور أمام المرآة. وأرى بريق الخاتم الماسي الجديد في إصبعها. أتخيّلها تسكب لريتشارد كأس شراب، ثم تأتي به إليه وتقبّله وهو يأخذ الكأس من يدها.

إنني أذرع الغرفة جيئة وذهاباً... أنتبه إلى هذا على نحو مفاجئ.

أسير إلى طاولة المكتب في غرفتي وأبحث في درجي عن دفتري ذي الورق الأصفر المسطَّر. آخذ الدفتر، ومعه قلم، وأعود إلى سريري. أحدق في الورقة البيضاء أمامي.

أبدأ كتابة اسمها، أبدأ تشكيله. يتعثّر قلمي عند زوايا حروف اسمها وانحناءاتها: إيما.

يجب أن أهتدي إلى الكلمات الصحيحة تماماً. يجب أن أجعلها تفهمني.

أنتبه إلى أنني أضغط بالقلم على الورقة ضغطاً شديداً جعل حبره ينزف وينتشر عليها.

لست أعرف ماذا أكتب بعد ذلك. لست أعرف كيف أبدأ.

لو كنت قادرة فقط على تحديد أين بدأت نهايتي لكنت قادرة على شرح الأمر لها. ماذا لو أنها بدأت مع مرض أمي العقلي؟ ماذا لو أنها بدأت مع وفاة أبي؟ ماذا لو أنها بدأت مع عجزي عن إنجاب طفل؟

أغدو متأكدة، أكثر فأكثر، من أنّ أصل ذلك كلّه كامن في تلك الليلة من شهر أوكتوبر عندما كنت في فلوريدا.

لكني لا أستطيع إخبار إيما عن تلك الليلة.

الجزء الوحيد من قصتي الذي يجب أن تفهمه هو دور ريتشارد في الأمر كله.

أمزّق الورقة، ثم أبدأ من جديد على ورقة خالية.

هذه المرة، أكتب: عزيزتي إيما!

وعندها أسمع صوته.

أتخيل لحظة أن عقلي هو الذي يخترع هذا الصوت الآن. لكني أدرك أنه في الشقة وأن خالتي شارلوت تناديني، تصيح باسمي. إنها تستدعيني إلى ريتشارد.

أقفز واقفة على قدمي وألقي نظرة على نفسي في المرآة. تركتني شمس بعد الظهر، وتلك النزهة، متورّدة الخدين. كان شعري مسرحاً ومربوطاً في حزمة تنسدل على ظهري. إنني في بنطلون قصير وبلوزة خفيفة. دوائر داكنة من حول عيني، لكن النور اللطيف الذي يخفي العيوب يخفف من ظهور زوايا جسدي الحادة.

في وقت سابق من هذا اليوم، تأنّقت حتى أرى إيما. لكني أبدو في هذه اللحظة أكثر شبهاً بنيللي التي وقع زوجي في حبها أكثر مما كنت شبيهة بها طيلة سنين مضت.

أخرج إلى غرفة الجلوس حافية فيستجيب جسدي استجابة غريزية ويتركّز بصري كما لو أنه يمر عبر نفق فلا أرى غيره أمامي. أراه عريض المنكبين متناسق الجسم. امتلأ جسده الرياضي، جسد العدّاء، خلال سنوات زواجنا. ريتشارد واحد من أولئك الرجال الذين تزداد جاذبيتهم كلما كبروا في السن.

«فانيسا...». ذلك الصوت العميق؛ الصوت لا أزال أسمعه في أحلامي، طيلة الوقت... «أريد أن أتكلم معك».

يلتفت إلى خالتي شارلوت، ثم يقول لها: «هل تسمحين لنا بلحظة على انفراد؟».

تنظر خالتي شارلوت إليّ، فأومئ لها برأسي. فمي جاف.

تقول خالتي: «بكل تأكيد». ثم تذهب إلى المطبخ.

«أخبرتني إيما بأنك ذهبت اليوم لرؤيتها». إنه يرتدي قميصاً لا أعرفه. لا بد أنه اشتراه بعد ذهابي. أو لعله هدية اشترتها له إيما. وجهه لوَّحته الشمس مثلما تلوِّحه في كل صيف لأنه يخرج للجري عندما يكون الطقس مناسباً.

أومئ برأسي مُقرّة فأنا أعرف أن من العبث إنكار ذلك.

وعلى غير انتظار، تغدو ملامح وجهه رقيقة. يتقدّم خطوة في اتجاهي: «تبدين مذعورة. ألا تعرفين أنني هنا لأنني قلق عليك؟».

أشير إلى الأريكة. أشعر بأن ساقيَّ غير مستقرّتين على الأرض. أقول له: «هل يمكننا الجلوس؟».

وسائد مكوَّمة على طرفَيّ الأريكة مما يعني أن الأمر انتهى بنا إلى الجلوس أكثر قرباً مما يتوقّعه أيٌّ منا. أشم رائحة الليمون. أحسّ بحرارته.

«سوف أتزوّج إيما. وعليك أن تتقبّلي هذا الأمر».

أقول في نفسي: لست مضطرة إلى تقبّل ذلك. ليس علي أن أتقبّل زواجك من أية امرأة.

لكنني أقول له بدلاً من ذلك: «حدث الأمر كله بسرعة كبيرة. فيمَ العجلة؟».

لا يهتم ريتشارد لسؤالي: «يسألني الجميع عن السبب الذي جعلني أبقى معك طيلة تلك السنين. كنت تشتكين من أنني أتركك وحيدة في البيت وقتاً طويلاً. لكنك، عندما نكون مع أناس آخرين، كنت... ليلة حفلة الكوكتيل... لا بأس... لا يزال الناس يتحدّثون عنها».

لا أدرك أن دمعة تتدحرج على خدّي إلى أن يمسحها ريتشارد بحركة رقيقة.

تحدث لمسته انفجاراً للأحاسيس في داخلي. مرت شهور منذ آخر مرة شعرت فيها بهذا. ينكمش جسدي.

«إنني أفكر في هذا الأمر منذ فترة. وما كنت أريد أبداً أن أقوله لمعرفتي أنه سوف يجرحك. لكن، بعد ما حدث اليوم... لم يعد لديَّ خيار. أظن أن من الضروري أن تحصلي على بعض العون. إقامة في مصح في مكان ما... ربما في المكان الذي ذهبت إليه أمك. أنت لا تريدين أن تكون نهايتك مثلما كانت نهايتها».

«إنني أتحسّن يا ريتشارد». أحس باندفاعة من اندفاعات روحي القديمة... «حصلت على وظيفة. وأنا أخرج وأرى الناس أكثر من ذي قبل». يخونني صوتي. الحقيقة ظاهرة أمامه... «أنا لست مثل أمي».

لقد جرى هذا الحديث بيننا من قبل. ومن الواضح أنه لا يصدّقني.

يقول ريتشارد بنبرة رقيقة: «لقد تناولت أمك جرعة زائدة من الأدوية المسكّنة».

أقول معترضة: «لسنا متأكدين من أن ذلك ما حدث! من الممكن أن تكون قد فعلت هذا عن طريق الخطأ. ولعل الأدوية الكثيرة اختلطت عليها».

يتنهّد ريتشارد: «قبل وفاتها، قالت لك ولخالتك شارلوت إنها تتحسّن. لذلك، عندما تقولين لي الأمر نفسه... اسمعي، هل لديك

قلم؟». أتجمّد في مكاني متسائلة كيف يحسّ بما كنت أفعله في اللحظة التي سبقت وصوله.

«قلم...». يكرر تلك الكلمة وقد تغضن حاجباه عندما رأى ردة فعلي... «هل يمكن أن أستعير منك قلماً؟».

أومئ برأسي، ثم أقوم وأعود إلى غرفتي حيث لا يزال دفتري المسطر الذي يحمل اسم إيما في مكاني على سريري. ألتفت التفاتة سريعة وقد داهمني خوف مفاجئ من أن يكون قد لحق بي. لكني لا أرى أحداً من خلفي. أغلق الدفتر وأتناول القلم، ثم ألاحظ ألبوم صور زواجنا الذي لا يزال ملقى على الأرض. أضع الألبوم على أرض خزانة ملابسي، ثم أعود إلى غرفة المعيشة.

تصطدم ركبتي اصطداماً خفيفاً بركبة ريتشارد عندما أعود فأجلس إلى جانبه.

يميل صوبي وهو يمد يده إلى جيبه الخلفي حتى يتناول محفظته. يخرج من المحفظة الشيك الوحيد الفارغ الذي يحمله معه دائماً. أنظر إليه وهو يكتب على الشيك رقماً ثم يضيف إليه أصفاراً كثيرة.

أفتح فمي دهشة أمام ذلك المبلغ: «لماذا هذا؟».

«لم تحصلي على ما فيه الكفاية عند تسوية الأمور بعد انفصالنا...». يضع الشيك على طاولة القهوة التي أمامنا... «لقد سيّلت بعض الأسهم من أجلك. وأخبرت البنك بأن عملية سحب مبلغ كبير من حسابي الجاري سوف تحدث قريباً. أرجو أن تستخدمي هذا المال حتى تحصلي على بعض المساعدة. لا أستطيع مسامحة نفسي إذا حدث لك أي مكروه».

عيناه ثابتتان على عينيّ... أقول: «لا أريد مالك يا ريتشارد... ولم كن أريده في يوم من الأيام».

أعرف أناساً لهم عيون بنّية يتغير لونها من الأخضر إلى الأزرق إلى البني بحسب الإنارة أو بحسب ألوان ملابسهم. لكني لم أعرف غير ريتشارد شخصاً تتحول عيناه تحولاً بطيئاً عبر درجات اللون الأزرق كلها ـ من الأزرق الداكن إلى البحري إلى الأزرق المخضرّ.

إن لعينيه في هذه اللحظة اللون الذي أفضله بين هذه الألوان كلها: الأزرق الفيروزي.

«نيللي...». إنها المرة الأولى التي يدعوني فيها بهذا الاسم منذ أن تركت البيت... «أنا أحب إيما».

ينفجر ألم حادٌّ في صدري.

«لكني لن أحب أبداً أيّ امرأة بقدر ما أحببتك أنت».

أواصل النظر في عينيه، ثم أبعد عينيَّ عنه. صعقني اعترافه هذا. لكن الحقيقة هي أنني أحس نحوه بالشعور ذاته. يظل الصمت معلّقاً في الهواء مثل كتلة من جليد موشكة على السقوط والتحطم.

ثم يميل في اتجاهي فتسلبني المفاجأة قدرتي على أي تفكير منسجم عندما تعثر شفتاه على شفتيَّ. تحيط يده بمؤخّر رأسي وتشدّني إليه. على امتداد ثوانٍ قليلة فقط، أعود نيللي من جديد، ويعود ريتشارد الرجل الذي وقعت في حبه.

ثم أعود إلى الواقع عودة مفاجئة. أدفعه عني وأمسح فمي بظهر يدي: «ما كان يجب أن تفعل هذا».

ينظر إلي لحظة طويلة، ثم يقف ويخرج من غير أن يقول كلمة واحدة.

الفصل الثالث والعشرون

في تلك الليلة عاد النوم يتفلّت مني كلّما تذكّرت تفاصيل لقائي مع ريتشارد.

وعندما غفوت أخيراً، زارني ريتشارد في أحلامي أيضاً.

أراه يقترب مني وأنا راقدة في سريري. أطراف أصابعه تلمس شفتي، ثم يقبّلني قبلة رقيقة... ببطء، على فمي أول الأمر، ثم ينحدر إلى رقبتي. يرفع ثوب النوم بإحدى يديه ثم تهبط شفتاه أكثر. يبدأ ردفاي الحركة من غير إرادة مني. أكتم أنّة تفلت مني عندما يخونني جسدي فيصير حارّاً مطواعاً.

ثم يثبّتني فوق الفراش، جذعه يطحن جذعي ويداه ممسكتان بيدي. أحاول دفعه عني، أحاول جعله يتوقّف. لكنه أقوى مني.

أنتبه فجأة إلى أنني لست التي تحت ريتشارد... ليست يداي هما اللتان تثبتهما يداه، ولا شفتاي تقبّلهما شفتاه.

إنها إيمّا!

أنتفض وأجلس في السرير. تخرج أنفاسي شهيقاً متقطعاً. أنظر في الغرفة من حولي ولا أعرف كيف أستعيد زمام نفسي.

أمضي مسرعة إلى الحمام فأغسل وجهي بالماء البارد حتى أزيل

الأحاسيس الباقية من حلمي. أتشبّث بحافة المغسلة الصلبة إلى أن تهدأ أنفاسي آخر الأمر.

* * *

أعود إلى سريري، وأفكر كيف رفرف قلبي وتنمَّل جلدي عندما كنت أحلم بريتشارد. لا أزال أحس بآثار تلك الاستجابة الخبيثة له.

كيف يمكن أن يثيرني، حتى في الحلم؟

ثم أتذكّر واحداً من المقاطع النفسية التي استمعت إليها في الآونة الأخيرة، كان يتحدّث عن ذلك الجزء من الدماغ الذي يتعامل مع المشاعر والانفعالاذت.

كان أحد العلماء يشرح ذلك قائلاً: «غالباً ما يستجيب الجسد البشري بالطريقة نفسها لحالتين من حالات المشاعر الطاغية: الإثارة العاطفية، والخوف». أغمض عينيَّ وأحاول أن أتذكّر بالضبط ما قاله ذلك الخبير... «فلنأخذ مثلاً خفقان الصدر واتساع بؤبؤَي العينين، وزيادة ضغط الدم. إنها انفعالات تظهر في حالتَيّ الذعر والإثارة».

هذا ما أعرفه تمام المعرفة.

قال الخبير أيضاً شيئاً عن كيفية تعامل تفكيرنا مع التغيرات التي تحدث في الحالتين. فعلى سبيل المثال، عندما نكون في حالة شديدة من حالات الحب العاطفي، فإن الآلية العصبية المسؤولة عن التقييم النقدي للأشخاص الآخرين يمكن أن تتعطّل.

أسأل نفسي: أهذا ما تعيشه إيما الآن؟ أهذا أيضاً ما مررت به اليوم؟

إنني مصدومة إلى حد يجعلني غير قادرة على النوم.

أظل مستيقظة تصفع ذهني صور زيارة ريتشارد. كانت صوراً حيّة ملموسة سائلة معاً ـ مثل السراب. ومع مضيّ ساعات الليل الطويل،

بدأت أتساءل إن كان ذلك قد حدث حقّاً أو أنه كان بدوره جزءاً من حلمي.

أسأل نفسي: «هل كان أي شيء في هذا المساء حقيقياً؟».

أستيقظ مع أول شعاع ذهبي في الصباح وأسير إلى خزانة ملابسي كأنني مأخوذة. أفتح الدرج العلوي. أرى الشيك المصرفي بين جواربي.

أعيده إلى مكانه، ثم أنظر إلى الأسفل فأرى الغلاف الأبيض اللامع لألبوم زفافنا. إنه الدليل المادّي الوحيد على أنني كنت متزوّجة.

لا أستطيع تخيّل أنه من الممكن أن أكون راغبة في زمن ما في رؤية هذه الصور من جديد بعد ما حدث اليوم. لكن يجب أن أراها مرة أخيرة. لا تزال صورنا الأخرى كلها في بيت ويستشستر، إلا إذا كان ريتشارد قد نقلها إلى غرفة المستودع في قبو بناية شقته في المدينة، أو ربما أتلفها. أظنّه فعل ذلك. من الطبيعي أن يريد ريتشارد التخلّص من كل أثر لي قبل أن تعثر إيمّا مصادفة على شيء من تلك البقايا المزعجة.

أخبرتني خالتي شارلوت بقليل فقط مما شهدته خلال فترة زواجي. أخبرتني سامانثا أيضاً عمَّ رأته عندما تحدّثنا آخر مرة: حديث انتهى إلى أسوأ مشاجرة يمكن أن أتخيل حدوثها بيننا. لكني راغبة الآن في البحث عن نفسي بعينين جديدتين.

أعود فأجلس على سريري، ثم أضع ساقاً فوق ساق وأفتح الصفحة الأولى من ألبوم الصور. في الصورة الافتتاحية، أرى نفسي في غرفة الفندق أثبّت مشبك سوار لؤلؤي القديم ـ إنه «الشيء المستعار» من خالتي شارلوت. إنها واقفة إلى جانبي تلفّ بإتقان منديل أبي الأزرق حول ساق باقة الورود. أقلب صفحة أخرى فأرى خالتي شارلوت وأمي وأنا سائرات معاً على البساط الطويل. أصابعي وأصابع أمي متشابكة؛

أما خالتي شارلوت فقد وضعت ذراعها في ذراعي من الناحية الأخرى، لأن كفّي اليسرى ممسكة بباقة الورود البيض.

وجه خالتي شارلوت متورّد. وفي عينيها دموع تتلألأ. لكن من الصعب تفسير التعبير الظاهر على وجه أمي رغم أنها مبتسمة للكاميرا. كما أنها تبدو بعيدة قليلاً عني وعن خالتي شارلوت. لولا تشابك أصابعنا، لكنت قادرة على أن آخذ مقصّاً وأحذفها بكل سهولة من هذه الصورة.

لو جعلت شخصاً غريباً يرى هذه الصورة وطلبت منه أن يحزر أي المرأتين أمي فمن المؤكد أن يقع الاختيار على خالتي شارلوت رغم أني أشبه أمي جسدياً أكثر مما أشبه خالتي.

أقول لنفسي دائماً إنني ورثت صفاتي الشكلية عن أمي: رقبتها الطويلة وعيناها الخضراوان. أما من الداخل، فإنني ابنة أبي... لعل هذا يعني أنني أكثر شبهاً بخالتي.

لكن كلمات ريتشارد تعود إليّ في هذه اللحظة.

خلال فترة زواجنا، وكلما قال لي إنني لا أتصرف تصرفاً عقلانياً أو أنني غير منطقية، أو كلما صاح بي في لحظات أكثر احتداماً، «أنت مجنونة!»، كنت أنكر ذلك كله، أرفضه.

كنت أهمس لنفسي وأنا أسير في الطرقات الصغيرة في حيّنا: «إنه مخطئ». يغدو جسدي متصلّباً، وتضرب خطواتي الغاضبة أسمنت الرصيف.

كنت أضع قدمي اليسرى: إنه... ثم قدمي اليمنى... مخطئ.

إنه مخطئ. إنه مخطئ. إنه مخطئ.

كلما حدث ذلك، كنت أكرر هاتين الكلمتين مئات المرات. أظنني كنت أفكر في أن هذا التكرار، إن كان كافياً، قادر على دفن ذلك القلق المستمر الذي يحرق دماغي: ماذا لو كان محقّاً؟

أقلب الألبوم على صورة أخرى فأرى أمي ترفع نخباً. وعلى طاولة من خلفها مباشرة، أرى كعكة زفافنا ذات الطبقات الثلاث مزينة بتمثال العريس والعروس الذي ورثه ريتشارد عن أهله. الابتسامة المرسومة على وجه العروس البورسلانية ابتسامة رائقة صافية، لكني أتذكّر قلقي في تلك اللحظة. من حسن الحظ أن الكلمة التي ألقتها أمي خلال عشاء يوم الزفاف كانت متماسكة على الرغم من كونها أطول مما ينبغي. كانت أدويتها تؤدي مهمتها جيداً في ذلك اليوم.

لعلّي ورثت عن أمي أكثر مما أسمح لنفسي بتصديقه.

ترعرعت مع امرأة تعيش في عالم مختلف عن عالم أمهات أصدقائي وصديقاتي اللواتي يقدن سيارة العائلة ويقمن بإعداد شطائر الجبن المحمصة. كانت مشاعر أمي أشبه بألوان كثيفة قوية: الأحمر الناري، والأحمر المتوهّج، والوردي الناعم، والرمادي القاتم. كانت قوقعتها الخارجية قوية، أما داخلها فكان شديد الهشاشة. ذات مرة، رأت مدير إحدى الصيدليات يعنّف موظفة المحاسبة المتقدّمة في السن لأنها تتحرّك ببطء شديد، فصرخت أمي على ذلك المدير قائلة إنه يتنمّر على تلك المرأة، فصفق لها بقية الزبائن الواقفين في الصف. وفي مرة أخرى ركعت على الرصيف فجأة وراحت تذرف الدموع من غير صوت على فراشة كبيرة عاجزة عن الطيران لأن جناحها قد تمزق.

فهل تشرّبتُ بعضاً من نظرتها الغريبة إلى العالم، وبعضاً من ردود أفعالها ذات الاندفاعات الدراماتيكية؟ وهل كانت الجينات التي تتحكّم بقدَري أكثر تأثراً بها أم بأبي صاحب التكوين الثابت المستقرّ الصبور؟ كنت شديدة التوق إلى معرفة الخصال الخفية التي ورثتها عن كل منهما.

خلال المدة التي عاشها زواجي، كنت واقعة في قبضة إحساس مُلحٍ متنامٍ بضرورة معرفة الحقيقة. كنت ألاحق هذا السؤال في أحلامي. وكنت أخشى أن تخبو ذكرياتي وتضمحل مثلما تضمحل ألوان صورة فوتوغرافية حالت بفعل الضوء. وهكذا حاولت إبقاء تلك الذكريات حية. بدأت أكتب كل شيء على نحو يشبه المذكرات... دفتر أسود ذو غلاف متين أنيق خبأته عن ريتشارد تحت فراش السرير في الغرفة المخصّصة للضيوف في بيتنا.

وأما الآن، فإنني أجد هذا شيئاً يدعو للسخرية لأنني كنت أحيط نفسي بالأكاذيب. وكنت أجد نفسي أحياناً واقعة تحت إغراء الاستسلام لتلك الأكاذيب. لعلّ الأمر أكثر بساطة من ذلك كله... أن أغرق بهدوء في الواقع الجديد الذي خلقته بنفسي... أن أغرق مثل من يغرق في رمال متحرّكة. أن أختفي تحت السطح.

أهمس لنفسي: سيكون من الأسهل كثيراً أن أتوقّف وأتخلّى عن كل شيء.

لكني غير قادرة على هذا. غير قادرة بسببها!

أضع ألبوم الصور جانباً وأسير إلى طاولة المكتب الصغيرة في زاوية غرفتي. أخرج دفتري وقلمي، ثم أبدأ من جديد.

عزيزتي إيمّا، telegram @ktabpdf

لو كنت مكانك، لما أصغيت أبداً إلى أي شخص يقول لي بألّا أتزوج ريتشارد. ولهذا فإنني أفهم ما يجعلك تقاومينني. لم أكن واضحة في كلامي معك لأن من الصعب أن يعرف المرء من أين يبدأ.

أواصل الكتابة إلى أن أملأ الصفحة كلّها. أفكّر في إضافة سطر أخير ـ زارني ريتشارد الليلة الماضية ـ لكني أتخلّى عن ذلك عندما أدرك أن

كتابة هذا السطر قد تجعلها تظن أنني أحاول إثارة غيرتها، أو أنني أحاول أن أخلق فيها شكوكاً غير التي أريد خلقها.

وهكذا أكتفي بكتابة اسمي أسفل الرسالة ثم أطوي الورقة مثالثة وأضعها في درج مكتبي العلوي حتى أقرأها مرة أخيرة قبل أن أعطيها إياها.

أخذت حماماً هذا الصباح، ثم ارتديت ملابسي بعد ذلك بوقت قصير. إنني أضع أحمر الشفاه على فمي فأغطي أثر لمسة ريتشارد عندما أسمع صياح خالتي شارلوت. أجري في اتجاه المطبخ.

أرى دخاناً أسود يتلوّى متصاعداً صوب السقف. وأرى خالتي شارلوت تضرب بمنشفة الأطباق شعلة لهب برتقالية متراقصة فوق سطح موقد الطهو.

تصيح بي: «هاتي الصودا!».

آخذ العلبة من الخزانة وأقذف ما فيها على اللهب فأخمده. تسقط خالتي شارلوت المنشفة من يدها ثم تفتح الماء البارد وتجعله يتدفق على يدها. أرى بقعة حمراء غاضبة تظهر على جلدها تحت الماء المنسكب عليها.

أُبعِد مقلاة اللحم المحترق عن الموقد وأُخرِجُ كيس ثلج من الفريزر. «خذي». أمد يدي فأغلق الصنبور عندما أراها تبعد يدها من تحته... «ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟».

«كنت أسكب الدسم الذي سال من اللحم في علبة القهوة القديمة...». أقرّب لها كرسياً فتجلس عليه متثاقلة... «لكني أخطأت وانسكب بعض الدسم على النار فاشتعل».

«ألا تريدين أن نذهب إلى الطبيب؟».

تزيح كيس الجليد عن ذراعها ثم تنظر إليها مضيّقة عينيها. حرق

بعرض الإصبع يبلغ طوله نحو خمسة سنتيمترات. لم تتشكّل عليه فقاعات، لحسن الحظ. تقول لي: «ليس سيئاً كثيراً».

أنظر إلى علبة السكر الفارغة التي رميتها على منضدة المطبخ. أنظر إلى حبيبات السكر المتناثرة على الموقد.

أقول: «لقد أخطأت فنثرت سكراً على النار. كان من الممكن أن يسوء الأمر أكثر!».

ثم أنتبه... «سأجلب لك مرهم الصبّار». أذهب مسرعة إلى حمامها فأجد أنبوب المرهم في خزانة الأدوية خلف علب المستحضرات الطبية وزجاجات الأدوية. آخذ أيضاً أقراصاً مسكنة للألم، ثم أعود إلى المطبخ. أخرج ثلاثة أقراص مسكّنة أقدمها إلى خالتي.

تتنهّد وهي تضع مرهم الصبّار: «إنه مفيد». أسكب لها كأس ماء فتبتلع أقراص الدواء. أنظر إلى النظارة السميكة الجديدة على أنف خالتي شارلوت، ثم أجلس على كرسي إلى جانبها.

كيف أمكّن لي ألّا أنتبه؟ كنت شديدة التركيز على كل ما يتعلّق بزواج إيما وريتشارد فلم أر ما كان جارياً أمامي تماماً.

خراقة حركاتها، وصداعها المتكرّر. موعدها مع الطبيب. إزاحة بعض قطع الأثاث حتى تصير الحركة في الشقة أكثر سهولة. خالتي تضيّق عينيها وهي تنظر إلى قائمة المشروبات في بار فندق روبرتسون، ثم تطلب شراباً غير موجود في تلك القائمة. خطواتها الأكثر حذراً وانتباهاً خلال نزهتنا على ضفة نهر هدسون. علبة السكر المربعة التي لا تشبه علبة الصودا أبداً لكنها يمكن أن تبدو شبيهة بها في عين شخص مستعجل، أو في عين شخص ينظر عبر غشاوة من دخان.

... شخص يفقد بصره.

يغصّ حلقي بنشيج أكتمه. لكن من غير الممكن أن تكون هي من يواسيني هذه المرة. أمسك بيدها. جلدها رقيق كالورق.

تقول خالتي شارلوت بهدوء: «إنني أُصاب بالعمى. لكنْ لديَّ موعد آخر مع الطبيب قبل تأكيد الأمر. إنه التنكّس البُقعي. كنت أعتزم إخبارك، لكن ربما ليس بهذه الطريقة الدراماتيكية».

أفكّر كيف أمضت ذات مرة أسبوعاً كاملاً في وضع مئات من ضربات فرشاتها على القماش حتى تصوّر لحاء شجرة عتيقة. أتذكّر كيف أخذتني مرة إلى شاطئ البحر خلال واحدة من نوبات مرض أمي فاستلقينا على ظهرينا وأخذنا ننظر إلى السماء. شرحت لي وقتها أن ضوء الشمس مكوّن من ألوان قوس قزح كلّها على الرغم من أننا نراه أبيض اللون.

أهمس لها: «يؤسفني هذا كثيراً».

لا أزال أفكّر في ذلك اليوم... سندويشات الديك الرومي مع الجبن، وترمس الليمونادة الذي أتت به خالتي، وورق اللعب التي وضعته في حقيبة يدها حتى تعلّمني إحدى الألعاب.

تتكلّم خالتي من جديد: «هل تتذكّرين عندما قرأنا معاً كتاب نساء صغيرات؟».

أومئ برأسي: «نعم».

أتساءل الآن عما تستطيع رؤيته وعمَّ لا تستطيع رؤيته.

«تقول آني في الكتاب: أنا لست خائفة من العواصف لأنني أتعلم كيف أبحر بسفينتي!... لا بأس، وأنا أيضاً، لم يكن الطقس العاصف يخيفني في يوم من الأيام». وبعد ذلك، تفعل خالتي شيئاً من أكثر الأشياء شجاعة: تبتسم.

الفصل الرابع والعشرون

أكره أن أكون غير قادرة على الرؤية.

كانت ماغي، الفتاة الخجول من جاكسونفيل ذات السبعة عشر عاماً المنتسبة حديثاً إلى أخويتنا، قد قالت لي هذه الكلمات نفسها ليلة مراسم قبول دفعة الفتيات في أخويتنا.

لكني لم أصغِ إليها. كان ذهني منشغلاً تماماً بدانييل الذي تجاهلني. كان غضبي في ازدياد فقلت في نفسي: لن أنتظر إلى الغد.

لا أعرف كيف استطعت المشاركة في معظم مراسم تلك الأمسية. ظللت خلف ماغي وهي واقفة ضمن دائرة الفتيات في غرفة المعيشة عندنا وقد أضاءت الشموع وجوههن. عندما اجتمعت الفتيات كلهن من أجل التصويت على قبول هذه الدفعة الجديدة، لم تكن ماغي على القائمة الأصلية التي ضمت أسماء عشرين فتاة وقع الاختيار عليهن. كانت بقية المتقدّمات جميلات نشطات مرحات... ذلك النوع من الفتيات الذي تتم دعوته إلى احتفالات أخويات الشباب والذي يعزّز روح بيتنا، بيت الفتيات. لكن ماغي كانت مختلفة عنهن. عندما تحدّثت معها في إحدى مناسباتنا الاجتماعية، عرفت أنها بدأت برنامجاً تطوعياً عندما كانت في المدرسة الثانوية. وأن ذلك البرنامج كان بهدف مساعدة الحيوانات الموجودة في مأوى بالقرب من بيت أسرتها.

قالت لي ماغي وهي ترفع كتفيها: «لم يكن لدي أصدقاء كثر في تلك الأيام. وكنت أحس بنفسي غريبة...» ابتسمتْ في تلك اللحظة، لكني رأيت في عينيها إحساساً بالضعف... «وأظن أن مساعدة الحيوانات حمتني من الشعور بالوحدة».

«هذا رائع. هل يمكنك أن تشرحي لي كيف بدأتِ ذلك البرنامج؟ أحب أن أجعل بيتنا أكثر مشاركة في الخدمة العامة».

كان وجهها متهللاً عندما روت لي كيف كان الكلب آيكي ذو القوائم الثلاث سبباً في إطلاق شرارة فكرتها. قررتُ عند ذلك أن من الضروري أن تكون ماغي واحدة من المنتسبات الجدد بصرف النظر عن آراء بقية الفتيات.

لكني كنت واقفة خلفها أستمع إلى أصوات أخواتي تصدح بالغناء، فتساءلت إن كنت قد أخطأت. كانت ماغي في ملابس طفولية: قميص قطني أبيض طبعت عليه صورة حبّات من الكرز، وشورت متناسب معه. لم تكد تنطق كلمة واحدة طيلة تلك الليلة. لقد قالت لي إنها تتطلّع إلى بداية جديدة في الكلية وإنها تريد إقامة صداقات مع بقية الفتيات. لكنها لم تكن تبذل أي جهد للتقرب من الأخوات. ثم إنها لم تحفظ نشيدنا. كان واضحاً لي أنها تتظاهر تظاهراً بتحريك فمها مع كلمات النشيد. تناولتْ رشفة واحدة من كوكتيل الروم، ثم بصقتها في كأسها وقالت «فظيع»، ثم تركت الكأس على الطاولة بدلاً من رميها. وبعد ذلك، جرّبت قدحاً من كوكتيل الجيلو.

كانت وظيفتي أن أشرف على ماغي وأراقبها. وأن أحرص على قيامها بمهماتها كلّها، بما في ذلك البحث عن أشياء نخفيها في أنحاء البيت. وكان عليَّ خاصة أن أراقبها خلال القفز في المحيط. لم يكن خافياً عن أذهاننا، حتى عندما كنا صغاراً في الكلية أن السباحة ليلاً وسط الأمواج المتلاطمة يمكن أن تكون أمراً خطيراً.

بعد فتحها ـ ثم إنه كان يبدو أكثر شبهاً بعصير التفاح منه بذلك السائل الذهبي الذي صرت معتادة على شربه. القميص الذي كنت أرتديه، القميص الذي سخرت سامانثا منه، ثمنه أكبر من أجرة السكن التي كنت أدفعها لهذه الشقة.

أشرت إلى المكان الفارغ في رف باب البراد... «ما عدتِ تشربين دايت كولا... صرت الآن تشربين شاي أوراق القراص بدلاً منها؟».

سمعت صوتاً ناعماً مرحاً يقول: «لم أستطع بعد أن أقنعها بتجريبه». استدرت فرأيت تارا. لم تكن الصور التي جعلتني سامانثا أراها على هاتفها تفي تارا حقها. كانت امرأة طافحة بالعافية... أسنان بيض مستوية، وجلد لامع، وعينان متألقتان. رأيت عضلات فخذها المتطاولة نافرة من تحت بنطلونها الضيق. كانت من غير زينة أو ماكياج... هي ليست في حاجة إليها.

«قرأت لي تارا محتويات الدايت كولا ذات يوم. هل تتذكرين هذا يا تارا؟».

ضحكت تارا وقالت: «عندما وصلت إلى بنزوات البوتاسيوم[1]، أغلقت صديقتك أذنيها بيديها».

تابعت سامانثا تلك القصة: «كنت ثملة كثيراً، فجعلني ذلك أكاد أتقيأ».

قلت لها وأنا أضحك ضحكة صغيرة: «كنت تشربين كمية كبيرة منها. هل تتذكرين كيف كنا ندوس على العلب الفارغة؟».

قالت تارا وهي ترفع يديها لتربط شعرها الرطب فوق رأسها: «لقد جعلتها تحب شرب الماء. إنني أنقع البقدونس في ذلك الماء لأنه يخلص الجسم من الالتهابات التي تحدث بشكل طبيعي».

---

(1) مادة حافظة تستخدم في أنواع كثيرة من المأكولات والمشروبات المعلبة.

قلت لسامانثا: «لا بد أن هذا ما جعل ذراعيك في هذه الحالة الممتازة».

قالت سامانثا: «عليك أن تجربيه».

ألأنني منتفخة؟ أنهيت كأس النبيذ بسرعة وقلت لها: «هل أنت مستعدة؟ إن لدينا حجزاً في المطعم...». غسلت سامانثا كأسينا في المجلى ثم وضعتهما على مشبك الأواني الذي لم يكن موجوداً عندما كنا نعيش هنا معاً. قالت لي: «فلننطلق!». ثم التفتت إلى تارا... «أكتبي لي رسالة نصّية في ما بعد إذا وجدت نفسك راغبة في ملاقاتنا لتناول كأس من الشراب معاً».

أضفت من جانبي: «صحيح، سيكون هذا جميلاً جداً». لكني لم أكن راغبة في وجود تارا معنا. لم أكن راغبة في أن تأتي وتضحك مع سامانثا وتتحدّث عن شرب منقوع البقدونس.

ذهبنا إلى المطعم بسيارة تاكسي فأعطيت اسمي لموظف الاستقبال. سرنا في مدخل المطعم ذي السجادة الكبيرة ودخلنا قاعة الطعام. كانت الطاولات ممتلئة كلّها تقريباً... حظي هذا المطعم بقدر كبير من المديح في مقالة في صحيفة التايمز. هذا ما جعلني أختاره.

قالت سامانثا عندما سحب لها النادل الكرسي إلى الخلف لكي تجلس: «شيء لطيف. لعلك كنت محقّة عندما رفضت تغيير ملابسك وارتداء ذلك البنطلون».

ضحكت لما قالته. لكني أدركت على الفور أن هذا النوع من المطاعم ـ قائمة نبيذ من عشر صفحات في غلاف جلدي فخم، وفوط الطاولة الملفوفة على الأطباق بطريقة متقنة معقّدة ـ هو ذلك النوع من المطاعم الذي يمكن أن يأخذني إليه ريتشارد. ليس هذا ما تفضله

سامانثا. تمنيت فجأة لو أنني اقترحت أن نبقى جالستين على سريرها وأن نطلب دجاج «زدشونا» ولفافات أوراق الأرز بالخضار واللحم، مثلما كنا نفعل.

قلت لها عندما فتحنا قائمتَي الطعام: «اطلبي ما تريدين. تذكري أن العشاء على حسابي. ما رأيك في أن نتشارك زجاجة نبيذ بورغوندي أبيض؟».

«بالتأكيد، كما تريدين».

طلبت تذوّق أنواع النبيذ المختلفة لديهم، ثم قررنا أن نتشارك قطعة تارت بالطماطم وجبن الماعز، وطبقاً من سلطة الكريب فروت والبقلة. كانت تلك هي المقبلات. وبعد ذلك طلبت فيليه مينيون غير مطهو كثيراً، وطلبت أنت تكون الصلصة على جانب الطبق. اختارت سامانثا سمك السلمون.

جاء نادل إلى طاولتنا حاملاً سلة فيها أربعة أنواع من الخبز مصفوفة بطريقة فنية. عدد لنا مواصفات كل نوع من تلك الأنواع فبدأت معدتي تطالب بها كلها. لقد كنت طيلة عمري شديدة الضعف أمام رائحة الخبز الساخن.

لكني أجبته: «لا أريد خبزاً».

قالت سامانثا: «إذاً، سآخذ حصتها. هل يمكنك أن تضع لي قطعة فوكاشيا وقطعة من خبز خلطة الحبوب؟».

سألتها: «هل تأكل تارا الخبز؟».

غمست سامانثا قطعة الخبز في زيت الزيتون: «بالتأكيد، لماذا تسألين؟».

رفعت كتفي: «تبدو لي في صحة ممتازة».

«صحيح... لكنها ليست مهووسة بالأمر. إنها تشرب، بل تدخن الماريجوانا من وقت لآخر. عندما فعلنا ذلك آخر مرة، ذهبنا إلى سنترال بارك وركبنا الأرجوحة الدوارة».

«ماذا؟ هل صرت تدخنين المخدرات؟».

«ربما... مرة في الشهر، ليست هذه مشكلة». رفعت سامانثا قطعة الخبز إلى فمها فلاحظت خطوط عضلات ذراعها من جديد.

وبعد قليل، أحضر النادل لنا السلطة والتارت فأكلت كل منا قليلاً منهما. سألتها: «أخبريني، هل ما زلت تقابلين ذلك الشاب... المصمم الغرافيكي؟».

«لا. لكني ذاهبة ليلة غد إلى موعد مع شقيق واحدة ممن تدربهن تارا».

تناولت لقمة من السلطة، ثم سألتها: «حقّاً؟ وما القصة؟».

«اسمه توم. بدا لي على الهاتف أنه شخص رائع. إنه يدير عمله الخاص...» حاولتُ التظاهر ببعض الحماسة بينما كانت سامانثا تخبرني عن توم. لكني كنت أعرف أن توم لن يكون عندها أكثر من ذكرى غامضة عندما نتحدث في المرة القادمة. مدت سام يدها إلى الملعقة ووضعت في طبقها مزيداً من التارت. قالت لي: «أنت لا تأكلين كثيراً!».

«لست جائعة حقاً».

نظرت سامانثا في عينيّ نظرة مباشرة: «فلماذا أتينا إلى المطعم؟».

كنت أحب على الدوام أسلوبها المباشر وأكرهه في الوقت نفسه. أجبتها: «لأنني أردت أن أدعوك إلى مكان لطيف».

اصطدمت ملعقة سام بالطبق صدمة قوية عندما أنزلتها: «هل هذا نوع من الإحسان؟ يمكنني أن أشتري طعاماً لنفسي».

«تعرفين أنني لا أقصد هذا». قلت هذه الكلمات ضاحكة، لكني شعرت للمرة الأولى بأن إيقاع حديثنا صار وعراً.

جاء النادل وملأ لنا كأسَيّ النبيذ من جديد. كنت ممتنة لمجيئة في تلك اللحظة. شربت قليلاً من الكأس الجديدة. ثم رن هاتفي. أخرجته من حقيبة يدي فرأيت رسالة ريتشارد.

ماذا تفعلين الآن يا حبيبتي؟

كتبت مجيبة: أتناول طعام العشاء مع سامانثا. إننا في مطعم بيكا.

أنا ذاهب إلى ملعب غولف مع أحد العملاء. هل ستعودين إلى البيت بسيارة تاكسي؟ تذكري تشغيل جهاز الإنذار قبل أن تنامي.

سأفعل هذا. أحبك!

لم أقل له إنني أعتزم النوم في شقته في المدينة. لست أعرف السبب الذي جعلني أمتنع عن ذكر ذلك له. ربما لظني أن ريتشارد قد يشك في أنني أخطط لسهرة شرب طويلة مثلما كنت أفعل مع سامانثا قبل أن أعرفه.

«آسفة...». وضعت الهاتف على الطاولة، لكني أدرت وجهه إلى الأسفل... «كان هذا ريتشارد... يريد الاطمئنان عليّ وعلى عودتي إلى البيت».

«إلى الشقة؟».

هززت رأسي نفياً: «لم أقل له إنني سأنام هناك. إنه في هونغ كونغ... وبالتالي لم يبدُ لي أن هنالك ما يوجب إخباره».

لاحظت كما لو أن سامانثا قد سجّلت في ذهنها ملاحظة، لكنها لم تعلّق بشيء.

«إذاً!...». حتى أنا كنت قادرة على سماع النبرة الزائفة في صوتي المبتهج. ولحسن الحظ، ظهر النادل في تلك اللحظة ليأخذ أطباق المقبلات ويأتي لنا بالطبق الرئيسي.

«كيف هو ريتشارد؟ أخبريني عن حياتكما».

«الحقيقة... لا يزال يسافر كثيراً، كما ترين».

«وأنت تشربين، هذا يعني أنك لست حبلى».

«صحيح».

أحسست بدمعة تحرق عيني. شربت مزيداً من النبيذ حتى أكسب بعض الوقت ريثما أتمالك نفسي.

«هل أنت بخير؟»

حاولت أن أبتسم: «بالتأكيد. لكني أظن بأن الأمر استغرق زمناً أكثر مما كنا نتوقع». شعرت بنوبة حنين موجع إلى الطفل الذي لم أنجبه بعد.

رحت أنظر إلى الناس الآخرين من حولنا: أزواج يتبادلون الكلام متقاربين على الطاولات، ومجموعات أكبر تثرثر بنشاط وحماسة. وددت أن أتحدّث مع سامانثا مثلما كنا نتحدث في السابق، لكني لم أعرف كيف أبدأ. كان يمكنني إخبارها عن اختصاصية التصميم الداخلي التي ساعدتني في اختيار القماش من أجل تنجيد كراسي غرفة الطعام لدينا. كان يمكنني أيضاً ذكر حوض الاستحمام الحار الذي يريد ريتشارد تركيبه في فناء بيتنا الخلفي. كنت أستطيع أن أجعلها ترى كل ما يثير الإعجاب في حياتي... تلك الأشياء السطحية التي لا تهتم بها سامانثا على الإطلاق.

جرت في ما مضى مشاجرات بيني وبين سامانثا... مشاجرات من أجل أشياء غبية، مثلما حدث عندما فقدت واحداً من قرطيها المفضلين لديها، أو عندما نسيتُ إرسال الشيك لدفع إيجار الشقة. لكننا لم نكن نتشاجر هذه الليلة. كان الأمر أسوأ من ذلك. كانت بيننا مسافة ليست ناتجة عن طول فترة البعد بيننا ولا عن انفصالنا المكاني.

«أخبريني عن أطفالك في الحضانة هذه السنة». قطعت جزءاً من شريحة اللحم ورحت أنظر إلى عصارتها التي انسابت في الطبق. يطلب ريتشارد اللحم ناضجاً تماماً، لكن الحقيقة أنني أفضله متوسط النضج، بين الوردي والأحمر.

«إنهم رائعون... معظمهم. جيمس بوند هو المفضل عندي... إن لذلك الطفل أسلوباً متميزاً جداً. لكني متعلقة أيضاً بـ'النعسان' وبـ'الغاضب'!».

«يمكن أن يكون الوضع أسوأ من ذلك. فربما تأتيك 'شقيقة الشيطان'!».

لمع في ذهني اللقب الذي أطلقته سامانثا على ريتشارد: الأمير. الشاب شديد الوسامة الذي يهجم راكباً حصانه لإنقاذ الموقف، ثم يقدّم للبطلة حياة رغيدة.

«أهكذا ترين ريتشارد؟ تعتبرينه منقذي؟».

«ماذا؟».

«أطلقت عليه قبل قليل لقب الأمير». وضعت شوكتي على الطاولة. فجأة، لم أعد جائعة على الإطلاق... «كنت أتساءل دائماً إن كان لديك اسماً تطلقينه عليه». صرت فجأة متنبهة إلى قميصي باهظ الثمن، وإلى تكلفة النبيذ الذي كنا نشربه، وإلى حقيبة يدي ماركة برادا المعلقة على ظهر الكرسي.

إلا أنني لم أذهب معهما. بعد أن دفعت حساب المطعم، أحسست بأنني مرهقة حقاً رغم أنني لم أفعل بعد ظهر ذلك اليوم أي شيء باستثناء طي الملابس المغسولة، وانتظار السباك الذي أتى لإصلاح بعض التسرب في المغسلة. أما سامانثا فقد عملت طيلة النهار وأفلحت أيضاً في الذهاب إلى درس الرقص. كما أن ملابسي لم تكن مناسبة للرقص... مثلما قالت سامانثا، كنت أبدو كأنني ذاهبة إلى اجتماع مع أهالي التلاميذ.

أوصلت سامانثا بسيارة التاكسي إلى النادي الذي كانت تارا تنتظرها فيه، ثم عدت بالسيارة نفسها إلى شقة ريتشارد. كانت الساعة قد بلغت العاشرة، لا أكثر! ... كتبت لريتشارد: أنهينا سهرتنا في وقت مبكر. وأنا الآن ذاهبة إلى الفراش.

قلت لنفسي إن هذا ليس كذباً في واقع الأمر.

وجدت في ردهة المدخل بواباً جديداً فعرّفته بنفسي. وبعد ذلك، أخذت المصعد إلى طابقنا، وسرت بحذر من أمام باب جارتنا الفضولية السيدة كين، ثم دخلت شقة ريتشارد مستخدمة المفتاح الذي أعطاني إياه منذ زمن بعيد. عبرت الممر متجاوزة الصور العائلية المصطفة على امتداد الجدار.

لم أخبر سامانثا أبداً عن نشأة ريتشارد، ولا عن أمه التي كانت من غير عمل، ولا عن أبيه محاسب الحي. كشف لي ريتشارد هذا كله في لحظة حميمة بيننا فأحسست بأن القصة قصته، وأن من حقه وحده أن يرويها. ليت سامانثا تسأل ريتشارد عن نفسه بدلاً من تصنيفه هكذا مثلما تفعل تجاه أطفالها في الحضانة فلربما تراه بعين مختلفة! ... هكذا كنت أقول في نفسي.

لم تكن سامانثا تحب ما تراه فيّ عندما أكون مع ريتشارد... صار ذلك الآن واضحاً. لكني كنت أعرف أيضاً أن ريتشارد لا يحب طريقة تصرفي عندما أكون مع سامانثا.

توجّهت إلى غرفة المعيشة ملاحظةً كيف كان ترتيب الإنارة ـ ظلام الغرفة مع مصباح المطبخ الكروي الساطع من خلفي ـ يحيل النافذة الزجاجية التي تشغل الجدار كله وتشرف على سنترال بارك إلى شيء يشبه المرآة. رأيت صورتي الغريبة... صورة غائمة غير ملموسة كأنها غيمة، أو كأنني شخص عالق داخل كرة من ثلج.

بدوت في ملابسي السوداء والرمادية فاقدة كل لون. بدوت كما لو أنني أذوي وأختفي.

تمنيت لو أنني ذهبت في هذه الرحلة مع ريتشارد. وتمنيت لو أنني تمكّنت من إدارة العشاء مع سامانثا على نحو أفضل. كنت في توق شديد إلى شيء صلب أتمسك به. كنت في توق إلى لمس شيء حقيقي أكثر من هذا الأثاث النظيف والسطوح اللامعة في شقة ريتشارد.

ذهبت إلى المطبخ وفتحت البراد. كان فارغاً باستثناء بضع زجاجات من نبيذ بيرييه وزجاجة شامبانيا فوفكليكو. كنت أعرف أن في خزائن المطبخ سباغيتي وبضع علب من سمك التونة، إضافة إلى مظاريف الإسبرسو الصغيرة.

وفي غرفة المعيشة، كان العددان الأخيران من ذا نيويوركر وذي إيكونومست موضوعين على طاولة القهوة الصغيرة. وعلى الرفوف في غرفة مكتب ريتشارد، كانت عشرات الكتب مصطفة، أكثرها من كتب السِيَر ومعها بعض الأعمال الكلاسيكية لشتاينبك وفولكنر وهيمنغواي.

بدأت أسير في الممر متجهة إلى غرفة النوم حتى أستعد للنوم. مررت بالصور العائلية من جديد.

ثم توقفت.

واحدة منها غير موجودة.

أين هي صورة والدَيْ ريتشارد يوم زفافهما؟... الصورة التي كانت معلّقة هنا؟ لا يزال واضحاً الثقب الصغير في الجدار حيث كان مسمارها.

كنت أعرف أنها ليست في بيتنا في ويستشستر. تفقّدت بقية جدارن الشقة، بل نظرت في الحمام أيضاً. كانت الصورة أكبر حجماً من أن توضع في أحد الأدراج، لكني فتشت تلك الأدراج. لم أجدها في أي مكان.

هل وضعها ريتشارد في غرفة المستودع في القبو؟ إن بقية الصور هناك، بما فيها بعض من صور ريتشارد عندما كان طفلاً.

لم أكن متعبة... لم أعد متعَبة في تلك اللحظة. فتحت حقيبة يدي وبحثت عن مفاتيحي، ثم عدت أدراجي في اتجاه المصعد.

كانت غرف المستودع المخصّصة للسكان في قبو المبنى. لقد نزلت إليها مرة مع ريتشارد قبل فترة قصيرة من زفافنا عندما أتيت ببضعة صناديق حتى أحفظها هناك إلى أن ننتقل إلى البيت الجديد. كانت غرفة المستودع الخاصة به الخامسة إلى جهة اليسار. يومها، بعد أن أدار ريتشارد القرص المرقم على القفل الثقيل ووضع أشيائي في الغرفة، فتح واحدة من علبه البلاستيك الزرقاء المصفوفة على امتداد الجدار، ثم أخرج منها عشر صور، أو أكثر... صور من النوع اللامع من قياس أربعة بستة إنشات كانت موضوعة في مغلف أصفر حائل اللون يحمل اسم شركة كوداك. كانت الصور كلها ملتقطة في يوم واحد: سلسلة لقطات لريتشارد وهو يتمرن على لعب البيسبول.

بدا لي أن المصور كان يحاول التقاط صورة لريتشارد لحظة ضرب الكرة، لكنه (أو لكنها) كان يضغط على زر التصوير في لحظة غير صحيحة.

سألت ريتشارد: «كم كان عمرك في هذه الصور؟».

«نحو عشر سنين أو إحدى عشرة سنة. إنها من تصوير مورين».

«هل يمكنني أن آخذ واحدة منها؟». أعجبني تعبير الانتباه الشديد على وجه ريتشارد في الصورة، وكيف كان أنفه الصغير مجعداً لشدة تركيزه.

ضحك ريتشارد: «كنت أمر بمرحلة جنون. سوف أعثر لك على صورة أفضل من هذه».

لكنه لم يفعل؛ لم يعطني صورة في ذلك اليوم. كنا في عجلة من أمرنا لأن لدينا لقاء غداء متأخر مع جورج وهيلاري، فأعاد ريتشارد الصور إلى مغلفها ووضعه فوق بقية المغلفات الصفر المتماثلة، ثم أقفل الباب وصعدنا إلى ردهة المدخل.

لعله وضع صورة زفاف والديه في تلك العلبة الكبيرة. دخلت المصعد وأنا أقول لنفسي إنني في حالة فضول فحسب.

لكني أتساءل (مستفيدة من قدرة المرء على إعادة التفكير في ما مضى) إن كان لا وعيي هو ما قادني في تلك اللحظة. أتساءل إن كان هو ما حثني على معرفة المزيد عن زوجي في ليلة لم تكن لديه فيها أي فكرة عن مكان وجودي الحقيقي... في ليلة كان فيها، من الناحية المادية، بعيداً عني إلى أقصى حد ممكن. كان القبو مكاناً مزرياً موحشاً، حتى في وضح النهار: إنه أحشاء ذلك البناء الأنيق المنتصب فوقه. مكان نظيف لكن المصابيح المعلقة في السقف تجعل جدرانه الرمادية تبدو كأنها متسخة. وكانت الغرف مفصولة بشباك من قضبان

حديد ثخينة. بدا لي كأنه سجن للأمتعة التي لا يحتاج أصحابها إلى استخدامها كل يوم.

كان ريتشارد يستخدم تاريخ ميلاد مورين رقماً سرياً للقفل. إنه الرقم السري المؤقت الذي يستخدمه دائماً مع خزنات غرف الفنادق كلما سافرنا. وهكذا، فقد كنت أعرفه. أمسكت القفل المعدني البارد الثقيل في يدي وأدرته فانفتح القفل. خطوت إلى داخل الغرفة. كانت الغرفتان اللتان إلى جانبيها ممتلئتين بمجموعة متنوعة من الأشياء: قطع أثاث، وزلاجات، وشجرة عيد ميلاد من البلاستيك. لكن غرفة ريتشارد كانت مرتبة على النحو الذي يميزه دائماً. فباستثناء الزلاجتين الخضراوين اللتين استخدمناهما يوم لقائنا الثاني، لم يكن في الغرفة إلا ست علب زرقاء كبيرة متماثلة مصفوفة عند الجدار، كل اثنتين معاً.

ركعت، فأحسست بالأرض الإسمنتية خشنة على جلد ركبتي. فتحت العلبة الأولى. دفاتر مدرسية، وكأس بيسبول تقشر طلاؤه الذهبي، ومصنف فيه بضع من بطاقات النتائج المدرسية ـ كان يجد صعوبة في الكتابة بحروف متصلة؛ وكان طالباً هادئاً... هكذا قالت الكلمات التي كتبتها معلمته في الصف الثاني ـ وكدسة من بطاقات عيد ميلاد قديمة تحمل كلها توقيع مورين. فتحت واحدة منها. كانت عليها صورة شخصية سنوبي الكرتونية حاملة بالوناً. كتبت مورين: إلى أخي الصغير. أنت نجم متألّق! وسوف تكون هذه السنة أفضل سنواتك! أحبك.

تساءلت أين هي البطاقات التي أتته من أبيه وأمه. تابعت البحث في العلبة مزيحة مغلفات الصور التي اعتزمت أخذها معي إلى الأعلى حتى أراها من غير استعجال. لكني كنت حريصة على عدم أخذ كمية كبيرة منها، وكذلك على أن أتذكر أين كان كل واحد منها حتى أستطيع إعادته إلى مكانه في الصباح.

معلومات حقيقية، ملأ عقلي المواضع الفارغة فخلق الصورة التي أردت رؤيتها.

لم يخبرني ريتشارد أبداً بأي شيء إضافي عن أبويه. وكان يجيبني دائماً عندما أسأله بأن من المؤلم له كثيراً أن يفكر فيهما. وبدا لي أن مورين أيضاً ملتزمة بتلك القاعدة الضمنية نفسها في حضور ريتشارد بدلاً من الحديث عن ماضيهما المشترك مع أهلهما. لعلهما كانا أكثر كلاماً عن طفولتهما عندما يذهبان معاً في رحلات التزلج السنوية أو عندما يسافر ريتشارد إلى بوسطن في عمل له فيلتقي أخته ويتناولان طعام العشاء معاً.

لكن أحاديثنا، عندما أتت مورين لزيارتنا، كانت تدور دائماً من حول عمله وعملها، ورياضة الجري التي يمارسانها، وخطط الأسفار، والحوادث العالمية.

لا يزال الحديث عن أبي يجعلني أشعر بأنني على صلة به؛ لكنني تمكّنت من وداعه ومن القول له في لحظاته الأخيرة إنني أحبه. أفهم ما قد يكون سبب رغبة ريتشارد ومورين في حجب ذكريات موت أبيهما وأمهما المفاجئ العنيف في حادث سيارة.

عندما يكون الأمر متعلّقاً بالأجزاء الأكثر ظلاماً وألماً في ما مضى من حياتي أحاول، أنا أيضاً، حذف بعض التفاصيل وإغفالها عندما أحكي تلك القصص لزوجي. لقد صِغت قصتي على نحو حذر فحذفت منها الأجزاء التي كنت أعرف أنه سيجدها كريهة وبائسة. وحتى بعد اكتشاف ريتشارد أنني حبلت عندما كنت في الكلية، لم أكشف له أبداً عن أن ذلك الأستاذ كان متزوجاً. لم أرد أن أجعله يظن بأنني كنت حمقاء وغبية، وبأنني أتحمّل قسماً من الملامة على ما حدث. ثم إنني لم أكن صادقة في ما يتعلّق بكيفية انتهاء ذلك الحمل.

بينما كنت راكعة في غرفة المستودع، رحت أسأل نفسي إن كان ذلك غلطة ارتكبتها. أدركت أن الزواج لا يضمن نهاية كالنهايات التي نجدها في القصص: المستقبل السعيد الممتد دائماً إلى ما بعد الصفحة الأخيرة، والكلمات التي يتردّد صداها في اللانهاية. لكن، أليست هذه هي العلاقة الأكثر حميمية التي يفترض أن تكون حيزاً آمناً، حيث يعرف شخص آخر أسرارك وأخطائك كلّها، لكنه يحبّك على الرغم من ذلك؟

فجأة، انتزعني من تلك الأفكار صوت صغير حاد.

أدرت رأسي يميناً وشمالاً وحدقت في تلك الإضاءة الخافتة. كانت الغرفة المجاورة لغرفة ريتشارد مزدحمة بالأثاث. كانت تحجب النظر.

قلت في نفسي إنها بناية قديمة تعود إلى ما قبل الحرب. ليس هذا الصوت إلا صوت قرقعة في أنابيب المياه. لكني غيرت وضعيتي بحيث صرت في مواجهة الباب بحيث أستطيع أن ألمح أي شخص قد يكون مقترباً من الغرفة.

أسرعت فأعدت الغلاف الورقي كما كان على لوحة الزفاف. لقد وجدت ما أتيت باحثة عنه. وعلي أن أذهب الآن. لكني شعرت بنفسي مدفوعة إلى رؤية الأشياء الأخرى الموضوعة هناك، تلك الأشياء المخفية عن دائرة حياة ريتشارد اليومية. أردت مواصلة التنقيب في طبقات ماضي ريتشارد.

مددت يدي في العلبة من جديد فأخرجت لوحة خشب صغيرة عليها رسم قلب وكلمة ماما محفورة في أعلاها. كان اسم ريتشارد محفوراً على الجهة الأخرى. لا بد أنه صنعها بنفسه لأمّه؛ ولعل ذلك كان في درس الأعمال اليدوية في المدرسة. وجدت أيضاً بطانية صفراء من الصوف المحبوك وزوجاً من أحذية الأطفال برونزي اللون.

وعلى مقربة من أسفل العلبة، وجدت ألبوم صور صغيراً. لم أعرف أحداً من الأشخاص الذين في الصور. لكني تعرّفت على ابتسامة أمّه في وجه واحدة من الفتيات كانت ممسكة بيد امرأة ترتدي بنطلوناً يصل إلى ربلة ساقها ومن فوقه صدار قصير. قلت في نفسي إن هذا الألبوم كان لأمّه. وكان الشيء التالي الذي وجدته علبة بيضاء فيها ذلك التمثال الصغير الذي كان في رأس كعكة زفافنا.

فتحت غطاء العلبة وأخرجت التمثال منها. كان بورسلان التمثال صقيلاً ناعماً، وكانت ألوانه لطيفة نضرة.

هل خطر في ذهنك أنه يبدو شخصاً جيّداً إلى حد يصعب تصديقه؟

إنه السؤال الذي طرحته عليَّ سامانثا يوم أريتها هذا التمثال. أتمنى لو أنها لم تطرح عليَ هذا السؤال أبداً!

نظرت إلى العريس الوسيم وإلى العروس ذات التكوين البديع وإلى عينيها الزرقاوين. رحت أداعب التمثال شاردة الذهن وأنا أديره في يدي.

وعندها، انزلق التمثال من بين أصابعي.

أسرعت لالتقاطه بحركة سريعة محمومة راجية أن أستطيع إنقاذه من التحطم على الأرض الإسمنتية. أمسكت به قبل أن يصل إلى الأرض بسنتيمترات قليلة.

أغمضت عينيّ وتنفّست الصعداء.

كم مضى على وجودي هنا؟ بضع دقائق... أو لعل المدة قاربت ساعة كاملة؟ لقد نسيت الوقت نسياناً تاماً.

من الممكن أن يكون ريتشارد قد رد على رسالتي. وسوف ينتابه القلق إذا لم أجبه الآن. لحظة جاءتني تلك الفكرة، سمعت من جديد صوتاً خافتاً آتياً من جهة اليسار. أهي الأنابيب؟ أو... لعله صوت أقدام تقترب!

انتابني إحساس مفاجئ بأنني محبوسة في هذا القفص المعدني. لقد تركت هاتفي في الأعلى، في حقيبتي. ولا يعلم أحد بمكان وجودي. هل يمكن أن يبلغ الصوت البواب الجالس في الردهة إذا صرخت؟

حبست أنفاسي، وتسارعت دقات قلبي. انتظرت أن يظهر لي وجه من خلف الزاوية.

لم يأتِ أحد.

قد أهدّئ نفسي: إنها مخيلتي، لا أكثر!

لكن يدي كانت ترتجف عندما أعدت التمثال إلى علبته. وعندما وضعته فيها، لاحظت أرقاماً صغيرة مطبوعة على أسفله. قرّبته من عيني وحاولت قراءة الأرقام في تلك الإنارة الخافتة. إنه تاريخ: 1985. لا بد أنه تاريخ صنع التمثال.

لكني قلت في نفسي: لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً!

أخرجت التمثال من علبته مرة أخرى ونظرت إلى الأرقام. التاريخ صحيح، لا مجال للخطأ.

لكن والدَيْ ريتشارد تزوجا قبل ذلك بسنين. وقد كان مراهقاً في سنة 1985!

لقد تزوجا قبل أكثر من عشر سنين من وجود هذا التمثال. لا يمكن أن يكون لهما.

من الممكن أن تكون أمه قد عثرت على هذا التمثال في متجر للأنتيكا فاشترته لأنها وجدته جميلاً... هكذا كنت أفكر وأنا صاعدة إلى شقة ريتشارد. أو لعلّي مخطئة. من الممكن، بكل بساطة، أن أكون قد فهمت ما قاله ريتشارد لي على نحو غير صحيح.

سمعت صوت هاتفي يرن في داخل الشقة لحظة وضعت مفتاحي

في القفل. أسرعت إلى حقيبة يدي، لكن الرنين صمت قبل أن أتمكّن من إخراج الهاتف.

ثم بدأ هاتف الشقة يرن.

جريت إلى المطبخ ورفعت السماعة.

«نيللي؟ الشكر لله. أحاول الاتصال بك عدة مرات». بدا لي صوت ريتشارد أكثر ارتفاعاً من المعتاد... بدا لي متوتّراً. كنت أعرف أنه في الناحية الأخرى من العالم، لكن الاتصال كان شديد الوضوح كأن الصوت يأتيني من الغرفة المجاورة.

كيف عرف أنني هنا؟

قلت له مسرعة: «إنني آسفة. هل كل شيء على ما يرام؟».

«ظننتك في البيت».

«أوه، كنت على وشك الذهاب إلى البيت، لكني شعرت بتعب شديد وقلت في نفسي إن من الأسهل لي أن أمضي الليلة في الشقة».

ران صمت بيننا.

«لماذا لم تخبريني بهذا؟».

لم تكن لديّ إجابة على هذا. على الأقل، لم تكن لدي إجابة أحس بأنني قادرة على قولها له.

«لقد كنت سـ...» ثم توقفت. لست أعرف السبب الذي جعل الدموع تداهمني. رفرفت بعيني لأطردها عنهما... «فكّرت في أن من الممكن أن أشرح لك الأمر غداً بدلاً من كتابة رسالة طويلة وأنت منشغل مع عملائك. لم أرد إزعاجك».

«إزعاجي؟...». أطلق صوتاً لم يكن ضحكة حقيقية... «كان أكثر إزعاجاً لي بكثير تخيّل أن شيئاً قد حدث لك».

«أنا آسفة جدّاً. طبعاً، أنت محق. كان عليّ أن أخبرك».

لم يستجب على الفور.

لكنه قال آخر الأمر: «ولماذا لم تجيبي على اتصالي؟ هل أنت وحدك؟».

لقد أغضبته. كان هذا واضحاً من نبرات صوته المبتورة. أكاد أستطيع رؤية عينيه متقلّصتين، عابستين.

خرجت الكذبة تلقائياً من فمي: «كنت في الحمام. وأنا وحدي بالطبع. خرجت سامانثا مع شريكتها في السكن للرقص، لكني لم أكن راغبة في الذهاب معهما. وهكذا أتيت إلى الشقة».

أطلق ريتشارد زفيراً وقال: «اسمعي... أنا سعيد لأنك بخير. أظن أنه يجب أن أعود الآن إلى ملعب الغولف».

«اشتقت إليكِ».

عندما تكلّم من جديد، كان صوته لطيفاً: «وأنا اشتقت إليك يا نيللي، سوف أعود سريعاً».

أدركت عندما كنت أخلع ملابسي وأرتدي قميص النوم أن وجودي في ذلك القبو هزّني. وهزّني أيضاً أن ريتشارد ضبطني وأنا أخون ثقته. ذهبت وتأكّدت من إحكام قفل باب الشقة.

دخلت حمام ريتشارد واستخدمت معجون أسنانه والمنشفة الاحتياط. كانت رائحة الليمون قوية إلى حد مزعج إلى أن اكتشفت أن ثوب الحمام الذي يلف به ريتشارد نفسه بعد الاستحمام كان معلقاً على خطّاف إلى جانبي تماماً. كانت رائحة صابونه معشّشة في نسيج الثوب الكثيف.

أطفأت النور، ثم تردّدت وأشعلته من جديد وأغلقت الباب نصف إغلاق حتى لا يكون النور في عينيّ. أزحت اللحاف الأبيض الخفيف المفروش على سرير ريتشارد وأنا أتساءل عمَّ يفعله زوجي في تلك اللحظة.

لعلّه يتحدّث مع شركائه من رجال الأعمال المهمّين في ملعب الغولف. ولعل معهم في عربة الغولف مع صندوق تبريد فيه علب بيرة وزجاجات مياه، إضافة إلى مترجم جاهز لتسهيل تبادل الحديث في ما بينهم. تخيّلت ريتشارد وهو يركز على ضربة الكرة وقد تغضن وجهه وصارت تعابيره مثلما رأيتها في صورته عندما كان طفلاً صغيراً يلعب البيسبول.

لقد فتشت تلك العلب في المستودع حتى أفهم ريتشارد فهماً أفضل. ولا أزال تواقة إلى مزيد من الإجابات حول ما يتعلّق بزوجي.

لكني، عندما استلقيت على ملاءته المكوية في سريره الواسع، أدركت أن زوجي يفهمني إلى الحد الكافي لأن يخمّن بالضبط مكاني عندما لم يجدني في البيت.

إنه يعرفني أكثر مما أعرفه.

الفصل السادس والعشرون

أحس رسالة إيمّا ثقيلة في يدي... أحس وزنها غير متناسب مع ثقلها المادي الحقيقي. أطوي الورقة من جديد، ثم أبحث عن مغلف في غرفة خالتي شارلوت حيث تحب الجلوس إلى مكتب ذي سطح متحرّك حتى تنجز بعض الأعمال الورقية وتحرّر الفواتير. وجدت مغلفاً، لكني تجاهلت البحث عن طوابع. يجب أن أسلم هذه الرسالة باليد فأنا لا أستطيع الاعتماد على خدمة البريد لإيصالها في الوقت المناسب.

فوق الأوراق التي على مكتب خالتي، وجدت أيضاً صورة كلب. كلب جيرمان شيبرد له فراء ناعم بني وأسود.

شهقت، ثم مددت يدي إلى الصورة. ديوك!

لكنها لم تكن صورة ديوك! ليست إلا بطاقة ترويجية من شركة توفر الكلاب لمساعدة فاقدي البصر.

لكنه شديد الشبه بالصورة التي لا أزال أحملها في محفظتي.

عليَّ إيصال هذه الرسالة إلى إيمّا. وأيضاً البحث عن طرق لمساعدة خالتي شارلوت. يجب أن أتحرّك الآن. لكني لم أستطع منع نفسي من التهاوي فوق سريرها عندما داهمتني الصور سريعاً وانقضّت عليَّ مثل أمواج متلاحقة شدتني من جديد إلى مجاري الذاكرة الخفية.

لقد ضبطتني في يوم سيئ ـ يوم من أيام الوحدة ـ في يوم لم أخرج فيه من البيت. كانت الشوارع مغطاة بطبقات من الثلج القديم وبقع من الجليد. ونظراً لقلة خبرتي في قيادة السيارة شتاء، فإنني لم أكن أشعر براحة عندما أخرج بسيارة المرسيدس التي اشتراها لي ريتشارد. عندما اتّصلت أمي عند العصر وسألتني عما كنت أفعله، أجبتها إجابة صادقة. وتخلّيت عن حذري معها.

«لا أزال في السرير».

«هل أنت مريضة؟».

أدركت على الفور أنني كشفت لها عن أكثر مما ينبغي.

«لم أنم جيداً الليلة الماضية». ظننت بأن هذه الإجابة كفيلة بإرضاء فضولها.

إلا أن ما قلته لم يفعل أكثر من جعلها تطرح مزيداً من الأسئلة: «هل يحدث لك هذا كثيراً؟ وهل لديك ما يقلقك؟».

«لا، لا. كل شيء على ما يرام».

صمت قصير، ثم: «هل تعرفين؟... كنت أفكر في أنني راغبة في زيارتك».

حاولت جعلها تتخلّى عن هذه الفكرة، لكنها كانت مصممة. وهكذا، لم أجد أمامي غير أن أقترح عليها توقيت زيارتها في موعد عيد ميلاد ريتشارد. سوف تزورنا مورين أيضاً لتحتفل معنا بعيد ميلاده، وهي تفعل ذلك كل سنة. ولعل وجودها يكون مفيداً في تخفيف تركيز أمي عليّ.

عندما رن جرس الباب صبيحة ذلك الأحد، كان أول ما خطر في ذهني هو أن أمي قررت مفاجأتنا بأن تصل مبكرة عدة أيام، أو أنها أخطأت في التاريخ. لم يكن هذا شيئاً جديداً في طبعها.

لكن ريتشارد وضع الصحيفة التي كان يقرأها، ثم نهض واقفاً وقال لي: «أظن بأن هديتك وصلت».

«هديتي؟ أنت من لديه عيد ميلاد عما قريب».

كنت خلفه ببضع خطوات فسمعته يرحب بشخص ما، لكن جسده كان يحجب الرؤية عني. ثم رأيته ينحني ويقول: «مرحباً يا فتى!».

كان كلب الشيبرد الألماني ضخماً. رأيت عضلات كتفَيْه تتحرك عندما أمسك ريتشارد برسنه وأدخله إلى البيت، ومن خلفه دخل الرجل الذي جاء به.

«نيللي... رحبي بديوك. هذا الفتى الضخم أفضل أمان يمكنك التفكير فيه». تثاءب الكلب كاشفاً عن أنيابه الحادة.

ضحك ريتشارد: «وهذا هو كارل. واحد من مدربي ديوك. آسف يا كارل».

«لا مشكلة في هذا فأنا معتاد على أن يستقطب ديوك الاهتمام كله». لا بد أن كارل لاحظ خوفي من الكلب... «إنه يبدو عنيفاً، لكن تذكّري أيضاً أنه سيبدو هكذا في نظر أي شخص آخر. كما أن ديوك يعرف أن وظيفته حمايتك».

أومأت برأسي. لعل وزن ديوك يقارب وزني. وإذا وقف على قائمتيه الخلفيتين سيكون في نفس طولي أيضاً.

«لقد أمضى سنة في أكاديمية شيرمان كانين للكلاب. وهو يفهم عدداً من الأوامر. انظري... سأقول له أن يجلس». عندما نطق كارل تلك الكلمة، جلس الكلب على قائمتيه الخلفيتين. أمره كارل «انهض»، فنهض الكلب بحركة يسيرة انسيابية.

قال ريتشارد لي: «جرّبي هذا يا حبيبتي».

«اجلس». بدا صوتي أشبه بالصرير. لم أصدق أن الكلب سيطيعني، لكنه نظر إلي بعينيه البنيتين ووضع مؤخرته على الأرض من جديد. أبعدت نظري عنه. كنت أعرف، منطقياً، أن الكلب مدرب على إطاعة الأوامر. لكن، أليس مدرباً أيضاً على أن يهجم عندما يستشعر خطراً؟ تذكرت بأن الكلاب قادرة على الإحساس بالخوف، فانكمشت على نفسي ملتصقة بالجدار.

لم أكن أجد مشكلة في الاقتراب من الكلاب الصغيرة، تلك الأنواع ذات الشعر الكثيف التي يصادفها المرء كثيراً في مدينة نيويورك، بل يراها أحياناً جالسة في حقائب اليد أو يراها تجري متراقصة في نهاية أرسانها ذات الألوان البهيجة. بل كنت أتوقّف أحياناً لأربت على واحد منها؛ ولم أكن أجد أية مشكلة في وجودي في مصعد شقة ريتشارد مع السيدة كين وكلبها الصغير الأبيض ذي الشعر الذي يشبه تسريحة صاحبته.

لكن الكلاب الكبيرة مثل هذا الكلب نادرة في المدينة لأن مساحات الشقق تجعل عيشها فيها غير عملي. لم أقترب من كلب كبير منذ سنوات كثيرة.

لكن جيراننا في فلوريدا كان لديهم كلبان كبيران عندما كنت طفلة. كان الكلبان محبوسين دائماً ضمن ما يشبه قفصاً من شبك معدني. وكان ينقضّان في اتجاهي كلما قدت دراجتي مارة بفناء جيراننا فيصطدمان بسياج قفصهما كما لو أنهما يحاولان اقتحامه. كان أبي يقول لي إنهما ودودان لكنهما يفعلان هذا نتيجة الإثارة فحسب. لكن نباحهما العميق الأجش، وصوت قعقعة السياج الحديد، كانا يخيفانني.

لكن سكون ديوك غير الطبيعي جعل أعصابي أكثر توتّراً.

سألني كارل: «هل تريدين التربيت عليه؟ إنه يستمتع بمداعبة ما خلف أذنيه».

«بالطبع. مرحباً يا ديوك!». مددت يدي وربّتّ على رأسه بحركة سريعة. كان فراؤه الأسود والبني أكثر نعومة مما توقعت.

«سوف أحضّر طعامه ولوازمه». خرج كارل متّجهاً إلى سيارة النقل الصغيرة البيضاء.

ابتسم لي ريتشارد ابتسامة مشجعة: «تذكري ما قاله لنا ذلك الشخص من شركة أنظمة الحماية. الكلاب أفضل رادع للمتطفّلين. إنها أفضل من أي نظام إنذار يمكن للمرء شراؤه. سوف تنامين جيداً عندما يكون قريباً منك».

كان ديوك لا يزال جالساً على الأرض محدّقاً في اتجاهي. هل كان ينتظر مني إخباره بأنه يمكنه أن يقف من جديد؟ لم أمتلك في حياتي أكثر من قطة... منذ زمن بعيد، عندما كنت طفلة.

عاد كارل حاملاً فراش الكلب وآنيته وكيساً من الطعام: «أين تريدان أن أضع هذه الأشياء؟».

قال ريتشارد: «أظن أن المطبخ هو المكان الأفضل. إنه هناك».

عندما سمع كلمة قصيرة أخرى من كارل، سار الكلب من خلفه. كان يسير على أرض البيت الخشب من غير صوت تقريباً. انصرف كارل بعد بضع دقائق تاركاً لنا بطاقته وقائمة بالكلمات التي يعرفها ديوك: تعال. قف. هجوم. وقد أوضح لنا أن ديوك لا يستجيب لهذه الكلمات إلا عندما تكون موجهة إليه بنبرة آمرة وعندما تكون صادرة عني أو عن ريتشارد.

داعب كارل رأس ديوك مرة أخيرة قبل ذهابه وقال: «إنه فتى ذكي. لقد اخترتم كلباً جيداً».

ابتسمت ابتسامة ضعيفة باهتة وأنا أفكر خائفة في الصباح التالي عندما

يذهب ريتشارد إلى عمله وأبقى وحدي مع الكلب الذي من المفترض أن يشعرني بالأمان.

لازمت الناحية الأخرى من البيت طيلة الأيام الأولى التي تلت ذلك. ولم أكن أذهب إلى المطبخ إلا لآخذ موزة أو لأضع الطعام في إناء ديوك. كان كارل قد قال لنا إن علينا إخراجه في نزهة ثلاث مرات في اليوم؛ لكني لم أكن راغبة في مد يدي إلى حلقة تثبيت الرسن في الطوق الذي على رقبته. ولهذا، كنت أفتح له الباب الخلفي وأقول له أن يخرج ـ هذا واحد من الأوامر التي يفهمها ـ وكنت أنظف مكانه قبل أن يعود ريتشارد إلى البيت.

وفي اليوم الثالث، كنت جالسة أقرأ في غرفة المكتبة فرفعت رأسي ورأيت ديوك واقفاً من غير صوت عند باب الغرفة. كان ينظر إليّ. لم أسمع صوت اقترابه أبداً. وكنت لا أزال خائفة من مقابلة نظراته ـ ألا تعتبر الكلاب التحديق في أعينها تحدياً لها؟ ـ عدت أنظر إلى كتابي متمنية أن ينصرف عني. كان ريتشارد يأخذ ديوك كل ليلة في نزهة قصيرة قبل أن ينام. وكان لدى ديوك طعام كثير وماء عذب وفراش مريح. ليس عندي مبرر لأن أشعر بالذنب تجاهه. كان ديوك يعيش حياة رائعة يتوفر له فيها كل ما قد يكون راغباً فيه.

اقترب مني، ثم انبطح على الأرض إلى جانبي واضعاً رأسه بين قائمتيه الأماميتين. رفع رأسه وتنهّد. كان ذلك صوتاً شديد القرب من صوت تنهد إنسان.

استرقت نظرة إليه من فوق حافة الرواية التي في يدي، فرأيت غضوناً فوق عينيه البنيتين اللتين بلون الشوكولاته. بدا لي حزيناً. تساءلت إن كان معتاداً على صحبة الكلاب الأخرى وعلى أن يكون محاطاً بالصخب والحركة. قلت في نفسي: لا بد أن بيتنا يبدو له غريباً جداً. ومن غير

تفكير، مددت يدي وربّتّ على رأسه، خلف أذنيه... تلك الحركة التي قال مدربه إنه يحبها. اهتز ذيله مرة واحدة ثم سكن كما لو أنه لا يريد أن يأتي بأية حركة...

«أنت تحبّ هذا! لا بأس يا فتى. يمكنك أن تهز ذيلك قدر ما تريد».

انزلقت عن الكرسي وجلست إلى جانبه من غير أن أكفّ عن مداعبة رأسه. وبدا لي أنني عثرت على الإيقاع الذي يعجبه. كان لهذا أيضاً تأثيره المهدّئ عليّ... إحساسي بأصابعي منسابة عبر فرائه الكثيف الدافئ.

نهضت بعد قليل وذهبت إلى المطبخ وأتيت برسنه.

لحق بي ديوك.

«سوف أضع هذا الرسن الآن. كن كلباً طيباً واجلس!».

وللمرة الأولى، بدا لي سكونه لطيفاً. لكني ثبّتّ المشبك المعدني الفضي إلى طوقه بأقصى سرعة ممكنة حتى لا أتأخر في إبعاد يدي عن أسنانه. كان الهواء الشتائي النضر في الخارج بارداً. شعرت بأنه يقرص أنفي وأذني لحظة خطوت خارج البيت. لكن الطقس لم يكن شديد البرودة إلى حد يجعلني أستعجل العودة. أظن أنني سرت مع ديوك ذلك اليوم قرابة ثلاثة أميال فاستكشفت في حيّنا أماكن لم أذهب إليها من قبل. كان يسير بخطوات تساير خطواتي من غير أن يتقدمني أو يتأخر عني. ولم يكن يتوقف إلا حتى يتشمّم العشب أحياناً، أو حتى يبول.

وعندما عدنا إلى البيت، لم يكن فك رسنه مخيفاً مثلما كان تثبيته. ملأت له إناء الماء، ثم سكبت لنفسي كأساً من الشاي المثلج وشربته سريعاً. كنت ظمأى. شعرت بثقل لذيذ في ساقيَّ وأدركت أن حاجتي إلى هذه النزهة لم تكن أقل من حاجة ديوك إليها. هممت بالعودة إلى غرفة المكتبة، ثم توقفت عند الباب ونظرت إلى ديوك.

«تعال».

جاء متمهلاً وجلس إلى جانبي.

«أنت فتى طيب حقاً!».

في يوم ميلاد ريتشارد، ذهبنا لملاقاة أمي في المطار وعدنا بها إلى البيت. وعند وصول مورين بعد بضع ساعات من ذلك، كانت أمي قد نثرت أشياءها في أنحاء البيت ـ وضعت حقيبة يدها في المطبخ، وعلّقت شالها على واحد من كراسي غرفة الطعام، وكان كتابها مفتوحاً على المقعد العثماني المفضل لدى ريتشارد ـ كما رفعت حرارة تدفئة البيت خمس درجات إضافية.

كان واضحاً لي أن هذا قد سبّب شيئاً من الإزعاج لريتشارد، إلا أنه لم يقل أية كلمة.

سارت الأمور على العشاء بكل يسر رغم أن أمي ظلت تسقط لديوك الجالس تحت الطاولة قطعاً من شريحة اللحم التي أمامها ـ كانت قد تخلّت عن نزعتها النباتية قبل فترة قصيرة من ذلك.

قالت أمي: «إنه كلب ذكي إلى حد غير معتاد».

أزاحت مورين كرسيها قليلاً حتى تبتعد بعض الشيء عن ديوك وعن أمي. ثم سألت ريتشارد عن أسهم كانت تفكر في شرائها. قالت إنها ليست من الأشخاص الذين يحبون الكلاب كثيراً، لكنها خاطرت ومدت يدها بشجاعة فربتت على رأس ديوك مرة واحدة.

بعد تناول الحلوى، ذهبنا جميعاً إلى غرفة الجلوس لنفتح الهدايا. فتح ريتشارد هديتي أولاً فكانت قميصاً لنادي رينجرز عليه تواقيع لاعبي الفريق جميعاً، ومعه طوق لديوك يحمل اسم الفريق.

كانت هدية أمي لريتشارد كتاباً جديداً من تأليف ديباك تشوبرا[1]. قالت له: «أعرف أنك تشتغل كثيراً. ولعلك تستطيع قراءة هذا الكتاب في طريق ذهابك إلى العمل وعودتك منه!».

فتح ريتشارد الكتاب متأدّباً، مقلّباً بضع صفحات.

قال ريتشارد: «أظن أن هذا ما يلزمني بالضبط». وعندما ذهبت أمي حتى تأخذ شيئاً من حقيبة يدها، غمز لي ريتشارد بعينه.

قلت له مازحة: «سوف أشتري لك ملخّص كليفس نوتس[2] للكتاب لأنها يمكن أن تسألك عنه».

كانت هدية مورين بطاقتين لمباراة فريق نيكس في الليلة التالية. قالت ضاحكة: «لدينا هنا مهمة رياضية». كان الاثنان، ريتشارد ومورين، من مشجعي كرة السلة.

قلت له: «عليك أن تأخذ مورين معك إلى هذه المباراة».

ردّت مورين مسرورة: «تلك هي خطتي. تذكّري عندما حاول ريتشارد أن يشرح لك ذات مرة أسلوب الدفاع في كرة السلة، فرأيت أن انتباهك قد سرح بعيداً».

«اعترف بأنني مذنبة بالتهمة الموجّهة إليّ!».

انتقلت عينا أمي من مورين إلى ريتشارد، ثم استقرّتا عليّ: «حسناً، أمر جيد أنني هنا. لولا هذا، لبقيت في البيت وحدك يا فانيسا. لماذا لا نذهب غداً إلى المدينة ونتعشى مع خالتك شارلوت؟».

«عظيم!». كان واضحاً لي أن أمي فوجئت بأن مورين لم تأت بثلاث

---

(1) ديباك تشوبرا كاتب أميركي واسع الانتشار من دعاة الطب البديل.

(2) كليفس نوتس سلسلة من الملخّصات المعدة كنوع من المساعدة للطلبة. وهي تقدّم عرضاً وشرحاً لعدد كبير من الأعمال الأدبية وغير الأدبية.

تذاكر للمباراة. ولعلها ظنّت أنني أحسست بنفسي متروكة مهملة نتيجة ذلك؛ لكن الحقيقة أنني كنت مسرورة برغبة أخت ريتشارد في الذهاب معه. ليس له أقارب غيرها.

ظلّت أمي عندنا يومين بعد ذلك. وعلى الرغم من أنني كنت مستعدة للتعامل مع تصريحاتها التي لا تمر بأي نوع من المصافي، إلا أنها لم تقل شيئاً. كانت تخرج معي كلما أخذت ديوك في نزهة، كما اقترحت علي أن نمنحه أول حمام له في بيتنا. تقبّل ديوك الحمام بجلاله المعتاد، لكن عينيه البنيتين كان فيهما شيء من الملامة، ثم انتقم منا بأن هز جسمه بعد خروجه من حوض الحمام فرشّنا بالماء. كانت ضحكاتنا أنا وأمي عند ذلك أجمل لحظة عندي في زيارتها كلها. وأظنّها كانت أجمل لحظة عندها أيضاً.

عندما ودّعناها في المطار، احتضنتني زمناً أطول بكثير من عادتها.

«أحبّك يا فانيسا. وأحب أن أراك أكثر. ألا تستطيعين القدوم إلى فلوريدا بعد شهر أو شهرين؟».

لقد كنت خائفة من الذهاب لزيارتها، لكني وجدت في عناقها لي راحة مفاجئة فقلت لها: «سوف أحاول».

كنت أعتزم الذهاب إليها. لكن كل شيء تغيّر من جديد.

سرعان ما اعتدت وجود ديوك الراسخ في البيت؛ وسرعان ما اعتدت نزهاتنا الصباحية القصيرة، وكذلك اعتدت الحديث معه وأنا أحضّر طعام العشاء. كنت أمشط فراءه فترات طويلة من الزمن بينما يجلس واضعاً رأسه على ساقيّ. وصرت أعجب من أنني كنت خائفة منه. عندما أدخل لأستحم، كان ينتظرني أمام الباب، كأنه حارس. وكلما عدت إلى البيت، أجده جالساً في الممر، قبالة الباب مباشرة،

وقد انتصبت أذناه على شكل مثلثين. كان يبدو عليه الارتياح عندما أعود فأصير ضمن مجال رؤيته.

كنت شديدة الامتنان لريتشارد. لا بد أنه عرف أن ديوك سيوفّر لي ما هو أكثر من الإحساس بالأمان. ففي غياب الطفل الذي كنا شديدَي التوق إليه، كان ديوك رفيقاً لي.

بعد أسابيع من مجيء ديوك، قلت لريتشارد ذات ليلة: «أحب ديوك كثيراً. لقد كنت محقّاً فهو يجعلني أحسّ بالأمان حقّاً». حكيت له كيف كان ديوك سائراً معي على الرصيف على مسافة بضعة عشرات الأمتار من بيتنا عندما ظهر فجأة ساعي البريد خارجاً من فرجة في السور المحيط بفناء بيت جيراننا. سرعان ما وقف ديوك بيني وبينه وسمعت زمجرة خفيضة تنبعث من حنجرته. ابتعد ساعي البريد عنا مسرعاً، ثم تابع طريقه، وتابعنا طريقنا: «كانت تلك المرة الوحيدة التي أرى فيها ذلك الجانب من ديوك».

أومأ ريتشارد برأسه وهو يتناول سكيناً ليدهن بالزبدة قطعة الخبز التي كانت في يده. قال لي: «حسناً أن يتذكّر المرء أنه موجود دائماً».

وعند ذهاب ريتشارد في رحلة عمل ليوم واحد، أخذت فراش ديوك ووضعته إلى جانب سريري. استيقظت في الليل ونظرت إليه فرأيته مستيقظاً أيضاً. تركت يدي متدلية من السرير حتى أستطيع لمس رأسه، ثم غرقت في النوم سريعاً. نمت نوماً عميقاً من غير أحلام. وكان أفضل نوم حظيت به منذ شهور.

كنت قد أخبرت ريتشارد بأنني أسير كثيراً مع ديوك حتى أتخلّص من الوزن الزائد الذي راكمته منذ انتقالنا للسكن في الضواحي. لم تكن زيادة الوزن بسبب حبوب الخصوبة وحدها. ففي المدينة، كنت أسير كل يوم مسافة لا تقل عن أربعة أيام، لكني صرت الآن أقود السيارة من أجل

شراء نصف غالون من الحليب. ثم إننا نتناول العشاء في وقت متأخّر حقّاً. لم يكن ريتشارد قد علّق على زيادة الوزن بأي كلمة، لكنه كان يقف على الميزان كل صباح ويمارس التمرينات الرياضية خمس مرات في الأسبوع. أردت أن يكون شكل جسمي متناسقاً مثله.

عندما عاد ريتشارد، لم يطاوعني قلبي إلى إعادة ديوك إلى الأسفل، إلى مطبخنا البارد الموحش. ولم يكن ريتشارد قادراً على استيعاب كيف تغيّر موقفي تجاه ديوك إلى هذا الحد. قال لي مازحاً: «أظن أحياناً أنك تحبين هذا الكلب أكثر مني».

ضحكت وقلت له: «إنه صديقي. وهو رفقتي الوحيدة عندما لا تكون هنا». لكن الحقيقة كانت أن حبي لديوك كان أنقى عاطفة عرفتها في حياتها وأبعدها عن التعقيد.

كان ديوك أكثر من مجرّد حيوان منزلي. لقد صار سفيري إلى العالم. ذات يوم، توقف رجل يمارس رياضة الجري في الخارج عندما صادفنا خلال مشوارنا اليومي وسألني إن كنت أسمح له بالتربيت على ديوك. انتهى الأمر بأن توقفنا برهة نتبادل الحديث. وكان من يأتون للعناية بالحدائق يجلبون له عظماً ويسألونني على استحياء بأن أسمح لهم بتقديمه إليه. بل إن ساعي البريد صار يحبّه أيضاً. قلت لديوك ذات مرة إن ساعي البريد «صديق» ـ كلمة أخرى يفهمها ديوك. وخلال مكالمتي الهاتفية الأسبوعية مع أمي، كنت أحدّثها كثيراً عن آخر مغامراتنا معاً.

وعندها، في يوم من أيام أوائل الربيع، عندما تبدو كل شجرة وكل نبتة موشكة على الإزهار، أخذت ديوك حتى نتنزّه في درب للمشي على مسافة بضعة احياء من بيتنا.

عندما أعود بذاكرتي إلى تلك الأيام، يمكنني القول إن ذلك اليوم كان آخر أيامنا الجميلة ـ أيام ديوك وأيامي ـ لكني جلست في ذلك اليوم على

لماذا يتصل ريتشارد بالمصبغة ليتأكد من أنني لم أمرّ لجلب القمصان، ثم يتصل بي ليسألني إن كنت قد جلبتها.

لم أسأله عن الأمر مباشرة، لكني سرعان ما صرت عاجزة عن التفكير في أي أمر آخر.

غارت عيناي لكثرة الأرق. وعندما أفلح في الإغفاء قليلاً، بعض الليالي، كنت غالباً ما استيقظ فأجد ذراعي متدلية من حافة السرير وأصابعي تلمس المكان الخالي حيث اعتاد ديوك الاستلقاء.

صرت أشعر بنفسي مخدّرة معظم الوقت. كنت أنهض مع ريتشارد وأعدّ له القهوة؛ وكنت أشرب بضعة فناجين زائدة. كنت أقبّل زوجي مودعة عندما يخرج إلى العمل وأنظر إليه وهو يسير بخطواته واسعة صوب سيارته مهمهماً بأغنية ما.

بعد أسابيع من اختفاء ديوك، عندما كنت أزرع الأزهار بسأم شديد في فناء بيتنا الخلفي، وجدت مصادفة واحدة من ألعاب ديوك المفضلة: تمساح مطاطي أخضر اللون كان يحب أن يمضغه. ضممت التمساح إلى صدري وبكيت مثلما لم أبك منذ جنازة أبي.

عندما تمكّنت أخيراً من كفكفة دموعي، دخلت البيت. وقفت في ذلك الهدوء الكريه، وكان التمساح لا يزال في يدي. وبعدها، سرت في اتجاه غرفة المعيشة غير مكترثة بأن يترك حذائي آثار وحل على سجادتنا الجديدة، ثم وضعت لعبة ديوك على الطاولة في الممر حيث يضع ريتشارد مفاتيحه. أردته أن يرى التمساح لحظة عودته إلى البيت.

هذا ما لم أفعله بعد ذلك: لم أخلع ملابسي المتسخة بالتراب. ولم

أرتّب الصحف. ولم أطو الملابس المغسولة. ولم أُعد أدوات الحديقة إلى مكانها. لم أعبأ بإعداد السمكة والبازلاء والتورتوللينى[1] التي كنت أعتزم إعدادها من أجل العشاء.

وهذا ما فعلته بدلاً من ذلك: أعددت لنفسي كأساً من الفودكا مع التونيك، ثم جلست في صدر الغرفة. انتظرت بينما كان ضياء النهار يتحوّل إلى عتمة الغسق. ثم سكبت لنفسي كأس فودكا آخر، من غير تونيك هذه المرة. لم أكن أشرب إلا عرَضاً. وحتى إذا شربت، فإنني لا أتناول إلا كأساً أو كأسين من النبيذ. شعرت بالكحول القوي يسري في جسدي.

بقيت ساكنة في مكاني عندما دخل ريتشارد من الباب آخر الأمر.

صاح يناديني: «نيللي».

للمرة الأولى منذ زواجنا، لم أجب بعبارة من نوع «أهلاً حبيبي»، ولم أسرع للترحيب به وتقبيله.

«نيللي؟». نطق اسمي هذه المرة كنوع من سؤال، لا كنداء.

أجبته آخر الأمر: «إنني هنا».

ظهر بباب الغرفة حاملاً تمساح ديوك المتّسخ بالوحل الذي لم يبق منه إلا نصفه.

«ماذا تفعلين وأنت جالسة هنا في الظلمة؟».

حملت كأسي وشربت ما كان باقياً فيه من الفودكا.

رأيته ينظر إلى ملابسي ـ بنطلون الجينز القديم ذو اللون الحائل والركبتين المتّسختين بالتراب، والقميص الفضفاض ذو الكمين القصيرين. وضعت كأسي على الطاولة من غير اهتمام بعدم وجود صينية تحته.

---

(1) نوع من المعجنات المحشوة باللحم أو بالجبن.

«حبيبتي، ما الأمر؟».

اقترب مني ووضع ذراعيه من حولي.

أحسست بدفئه الصلب وبدأ تصميمي يذوب ويتلاشى. كنت في أشد الغضب منه طيلة فترة بعد الظهر. لكن ما أردته الآن أكثر من أي شيء هو أن يكون الرجل الذي سبّب كربي كلّه إلى جانبي ليواسيني. صارت الاتهامات التي كانت تتبلور في ذهني غائمة ضبابية: كيف يمكن أن يكون ريتشارد قد فعل شيئاً رهيباً إلى هذا الحد؟ من جديد، ما عاد لشيء من ذلك كله أي معنى.

بدلاً من قول ما كنت أعتزم قوله، أجبته مسرعة: «إنني في حاجة إلى استراحة».

«استراحة؟»... ابتعد عني قليلاً... «استراحة من أي شيء؟...». رأيت حاجبيه مقطّبين.

أردت أن أقول له: من كل شيء، لكني أجبته: «من الكلوميد».

«أنت ثملة. ولا تعنين ما تقولين».

«صحيح، أظنني سكرت بعض الشيء. لكني عنيت ما قلته. لن أتناوله بعد الآن».

«ألا ترين أن هذا شيء يتعيّن علينا مناقشته نحن الاثنين. إنه قرار مشترك».

«وهل كان قراراً مشتركاً أن تتخلّص من ديوك؟».

مع خروج هذه الكلمات من فمي، عرفت أنني تجاوزت خطاً في علاقتنا.

لكن ما فاجأني كان مدى إحساسي بالراحة بعد أن قلت ذلك. كان

في زواجنا قواعد غير منطوقة، مثل كل زواج، وقد خرقت واحدة من أهم تلك القواعد: ألّا أتحدى ريتشارد.

أدرك الآن أن التزامي بتلك القاعدة كان هو ما يمنعني من سؤاله عن السبب الذي جعله يشتري بيتاً من غير أن أراه قبل ذلك، وعن السبب الذي يجعله على الدوام غير راغب في الحديث عن طفولته، إضافة إلى أسئلة أخرى كنت أحاول إبعادها عن ذهني.

لكن ريتشارد لم يكن وحده من وضع تلك القاعدة؛ لقد كنت شريكاً متعاوناً موافقاً. كم كان من الأسهل علي أن أكتفي بترك زوجي ـ الرجل الذي يجعلني دائماً أشعر بالأمان ـ يتولّى مسؤولية إدارة حياتنا.

لكني لم أعد أشعر بالأمان.

«ما الذي تقولينه ؟». كان صوت ريتشارد بارداً، محسوباً.

«لماذا اتصلت بالسيدة لي وسألتها إن كانت قمصانك جاهزة؟ لقد عرفت أنني لم أستلمها. فهل كنت تحاول جعلي أخرج من البيت؟».

«يا إلهي!...». نهض ريتشارد واقفاً على نحو مفاجئ.

كان عليَّ أن أرفع رأسي حتى أنظر إليه وهو منتصب فوقي وأنا جالسة في الكرسي.

«نيللي، أنت الآن غير منطقية على الإطلاق». كنت أرى يده الممسكة بالتمساح تضغط عليه وتشوّهه. بدا لي أن ملامحه تتصلب وأن عينيه تضيقان وشفتيه تنضغطان إلى الداخل. كان ذلك كما لو أن زوجي يختفي خلف قناع.

«وما علاقة المصبغة بديوك؟ وما علاقته بأن ننجب طفلاً؟ ولماذا أريد جعلك تخرجين من البيت؟».

لقد بدأت أتوه عن طريقي، لكني لم أكن قادرة على التراجع: «لماذا

سألتني إن كنت قد جلبت قمصانك في حين كنت تعرف بالفعل أنني لمأجلبها؟». كان صوتي حادّاً ومرتفعاً.

رمى بالتمساح على الأرض: «ما الذي تريدين قوله؟ أنت تتصرّفين بجنون. السيدة لي عجوز، وهي على عجلة من أمرها دائماً. لا بد أنك أسأت الفهم». أغمض عينيه لحظة قصيرة، وعندما فتحهما رأيته قد عاد ريتشارد من جديد. لقد زال القناع عن وجهه: «أنت مكتئبة. لقد تعرّضنا لخسارة كبيرة. كلانا كان يحب ديوك. وأنا أعرف أن أقراص الخصوبة ثقيلة عليك. أنت محقّة. فلنأخذ استراحة صغيرة».

كنت لا أزال في غاية الغضب تجاهه؛ لماذا أشعر كما لو أنه يصفح عني؟

قلت همساً: «أين هو ديوك؟ أرجوك، قل لي إنه حي. لا أريد أن أعرف إلا أنه في أمان. لن أسألك عنه بعد الآن أبداً».

«عزيزتي...». ركع ريتشارد إلى جانبي وضمّني بين ذراعيه... «إنه آمن بالطبع. إنه كلب شديد الذكاء والقوة. لعله الآن على مسافة بضع بلدات منا، ولعله يعيش مع أسرة جديدة تحبّه مثلما أحببناه. ألا تستطيعين تخيّله يجري خلف كرة تنس في حديقة بيت كبيرة؟». مسح الدموع الجارية على وجنتي... «دعينا نخلع عنك هذه الملابس المتّسخة ونذهب إلى الفراش».

نظرت إلى شفتَيْ ريتشارد الممتلئتين وهو يتكلّم، وحاولت أن أقرأ عينيه. كان عليَّ أن أتّخذ قراراً؛ ولعل ذلك القرار أهم قرار واجهته في حياتي. إذا لم أتخل عن شكوكي فسوف يعني هذا أن كل ما آمنت به في ما يتعلّق بزوجي أو في ما يتعلّق بنا كان زائفاً، وأن كل لحظة على امتداد السنتين الماضيتين كانت كذبة شنيعة. لن أكون في حالة شك في ريتشارد فحسب، بل سأدمر غرائزي نفسها وأحكامي وأعمّق الحقائق عندي.

هكذا قررت أن أقبل ما يقوله ريتشارد لي. كان ريتشارد يحب ديوك وكان يعرف أيضاً كم أحبه. كان محقّاً؛ وأنا كنت مجنونة عندما ظننت أنه يمكن أن يفعل أي شيء بكلبنا.

انزاح عن جسدي التوتر الذي كان فيه، انزاح كلّه فتركني أحس كأنني ثقيلة وكثيفة كالإسمنت.

قلت لريتشارد وهو يأخذني إلى الطابق العلوي: «إنني آسفة».

عندما خرجت من الحمام بعد تغيير ملابسي، رأيت أنه قد أزاح الأغطية عن الفراش ووضع لي كأساً من الماء على الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير.

«هل تريدين أن أستلقي هنا معك؟».

هززت رأسي وقلت له: «لا بد أنك جائع. يؤسفني أنني لم أحضر لك طعام العشاء».

قبّلني على جبهتي: «لا تدعي هذا الأمر يقلقك. نالي قسطاً من الراحة يا حبيبتي».

كان ذلك كأن شيئاً لم يحدث أبداً.

في الأسبوع الذي تلا ذلك، انتسبت إلى دورة جديدة للطبخ ـ مطبخ آسيوي هذه المرة ـ وانضممت أيضاً إلى لجنة تعليم الأطفال في النادي. كنا نجمع كتباً من أجل توزيعها على المدارس في مناطق مانهاتن التي لا تحظى بخدمات كافية. كانت المجموعة تلتقي وقت الغداء. وكان النبيذ يقدم في هذه الوجبات دائماً. عادة ما كنت الشخص الذي يسبق الجميع في إفراغ الكأس وطلب ملئها قبل الجميع. صرت أحمل علبة أدفيل في حقيبة يدي حتى أعالج الصداع الذي يسببه لي أحياناً تناول الشراب في النهار. كنت أنتظر تلك الاجتماعات بفارغ

الصبر لأنني أنال بعدها قيلولة؛ وهكذا كان لدي في تلك الأيام ما يشغلني عدة ساعات.

صارت أنفاسي برائحة النعناع دائماً، وصرت أستخدم قطرة لعينَيَّ حتى يكون الاحمرار قد زال من عيني عندما يحين موعد عودة ريتشارد إلى البيت.

فكرت في اقتراح اقتناء كلب آخر... ربما من نوع آخر. لكني لم أقترح ذلك أبداً. وهكذا عاد بيتنا ـ من غير حيوانات ومن غير أطفال ـ مجرد بيت فحسب.

بدأت أكره ذلك البيت وأكره ذلك السكون المستمر الذي لا ينتهي.

الفصل السابع والعشرون

أضع البطاقة البريدية التي تحمل صورة الشيبرد الألماني على مكتب خالتي شارلوت. لقد أضعت وقتاً كثيراً. لا يمكنني أن أتأخر مرة أخرى. أضع رسالة إيمّا في حقيبة يدي. سوف أوصلها بعد انتهاء نوبة عملي في المحل. وعندما أبدأ السير في اتجاه وسط المدينة، أتخيل أنني أحس بثقلها يجذب سير الحقيبة المعلّق من كتفي.

يرن هاتفي عندما أكون قد بلغت منتصف الطريق. وللحظة قصيرة أظن بأن المتّصل ريتشارد. لكني أنظر إلى الشاشة فأرى رقم محل ساكس.

أتردّد، ثم أجيب على المكالمة وأقول مسرعة: «كدت أصل. خمس عشرة دقيقة بالحد الأقصى». تزداد خطواتي سرعةً.

تقول لوسيل: «فانيسا، لا أحبّ أن أقول لك هذا...».

«أنا آسفة جداً. لقد أضعت هاتفي. ثم...». أسمعها تتنحنح قليلاً فأسكت.

«لكن علينا أن نصرفك من العمل».

أقول يائسة راجية: «امنحيني فرصة واحدة أخرى...». بالنظر إلى وضع خالتي شارلوت، صرت الآن في حاجة إلى العمل أكثر من ذي

قبل... «لقد مررت بوقت عصيب، لكنني أعدك، أعدك بأن الأمور تتغير الآن».

«التأخّر عن العمل مشكلة. والتغيب المتكرر عن العمل مشكلة أخرى. ولكن إخفاء البضاعة المعروضة في المحل... ماذا كنت تعتزمين أن تفعلي بتلك الفساتين؟».

أوشك على إنكار الأمر، لكن شيئاً في صوتها يقول لي ألّا أجشّم نفسي عناء الإنكار. لعل أحدهم رآني آخذ فساتين ألكساندر ماكوين المزهرة البيض والسود وأخبئها في غرفة المستودع.

لا طائل من الأمر. ليس لديّ ما أدافع به عن نفسي.

«صار شيك حسابك النهائي جاهزاً. سوف أرسله لك بالبريد».

«في الحقيقة... هل يمكنني المرور حتى أستلمه بنفسي؟».

آمل أن أستطيع إقناع لوسيل عندما أقابلها شخصياً بأن تمنحني فرصة أخرى.

تتردّد لوسيل قليلاً: «لا بأس. لدينا بعض الازدحام في هذه اللحظة. هل يمكنك أن تكوني هنا بعد ساعة من الآن؟».

«بالتأكيد. أشكرك كثيراً».

صار لدي الآن وقت لإيصال الرسالة إلى مكتب إيمّا بدلاً من الانتظار إلى ما بعد العمل وتركها لها في مكان سكنها. لم تمض حتى الآن إلا أربع وعشرون ساعة منذ أن رأيت خطيبة ريتشارد، لكن هذا يعني أيضاً أن موعد زفافها قد اقترب يوماً كاملاً.

لا بد لي من استخدام هذا الوقت المتاح لي حتى أستعدّ للكلام مع لوسيل. لكني غير قادرة على التفكير إلا في قضاء هذا الوقت في الشارع أمام المكتب لأرى إن كانت إيمّا ستخرج لتناول قهوة أو لأداء مهمّة ما.

ربما أتمكّن أن أعرف من تعبير وجهها إن كان ريتشارد قد أخبرها عن زيارته لي.

دخلت هذا المبنى الرشيق المرتفع آخر مرة من أجل الحفل السنوي لمكتب ريتشارد... الليلة التي بدأ فيها كل شيء.

لكن لديّ ذكريات كثيرة أخرى عن هذا المكان: القدوم إليه من حضانة الأطفال لملاقاة ريتشارد والنظر إليه وهو ينجز اتصالاته الخاصّة بالعمل. كان صوته شديد التصميم حتى ليكاد يكون صارماً، لكنه كان ينظر إليَّ في الوقت نفسه ويتّخذ وجهه أشكالاً مضحكة من فوق السماعة. أتذكّر أيضاً كيف كنت آتي إلى هذا المكان من ويستشستر لكي أنضمّ إلى ريتشارد وزملائه على العشاء، وكيف كنت أتوقّف عندما أكون مارّة من هذه الناحية فأفاجئ ريتشارد بحضوري... عندها، كان يحتضنني سعيداً وأتعلّق به فترتفع قدميَّ عن الأرض.

أدفع الباب الدوّار وأقترب من مكتب حارس الأمن. ليست ردهة المدخل مزدحمة في هذا الوقت، عند العاشرة صباحاً. وهذا ما يريحني. لا أريد مصادفة أي شخص أعرفه هنا.

لديّ إحساس غامض بأنني أعرف هذا الحارس. وهكذا أترك نظارتي الشمسية على عينَيّ. أناوله المغلف الذي يحمل اسم إيمّا: «هل يمكنك تسليم هذه الرسالة في الطابق الثاني والثلاثين؟».

«لحظة واحدة...». يلمس شاشة الكمبيوتر على مكتبه ويكتب اسمها، ثم يرفع رأسه وينظر إليّ... «لم تعد تعمل هنا». يدفع المغلّف في اتجاهي عبر سطح الطاولة.

«ماذا؟ متى تركت العمل هنا؟».

«ليست لدي معلومات عن هذا الأمر يا سيدتي».

تدخل من خلفي موظفة توصيل من شركة UPS فينتقل انتباه الرجل إليها.

آخذ المغلف وأسير عائدة عبر ذلك الباب الدوار. إنّ في الفناء الخارجي المجاور مقعداً خشبياً صغيراً... كنت قد فكرت في انتظار إيمّا هناك. أنهار الآن على هذا المقعد.

لا يجوز أن يفاجئني هذا كثيراً. فأنا أفهم أن ريتشارد لن يريد أن تعمل امرأته، لا يريدها خاصة أن تعمل لديه! أتساءل لحظة إن كانت تعمل الآن في وظيفة أخرى، لكني أعرف أنها لن تبحث عن عمل آخر قبل زفافها القريب. وأنا واثقة أيضاً من أنها لن تعود إلى العمل بعد زواجها.

لقد بدأ عالمها بالتقلّص.

يجب أن أصل إليها الآن، فوراً. لقد هدّدتني بأن تطلب الشرطة إذا اقتربت من شقتها مرة أخرى؛ لكني غير قادرة الآن على جعل ذهني ينشغل بتلك العواقب.

أنهض واقفة وأفتح حقيبة يدي لكي أضع المغلف فيها. تمس أصابعي محفظتي. المحفظة التي فيها صورة ديوك.

أُخرِج الصورة الصغيرة الملوّنة من غلافها البلاستيكي الواقي. ينتابني غضب عنيف؛ ولو كان ريتشارد هنا الآن لانقضضت عليه وخمشت وجهه وزعقت بكل ما أعرفه من شتائم بذيئة.

لكني أرغم نفسي على العودة مرة أخرى إلى مكتب الحارس الأمني. أسأله بأدب: «من فضلك، هل لديك مغلف؟».

يناولني مغلفاً من غير أي تعليق. أضع صورة ديوك داخل المغلف. ثم أبحث عن قلم في حقيبتي. لا أجد إلا قلم تخطيط العينين الرمادي فأستخدمه. أكتب «ريتشارد ثومبسون» على المغلف. يترك القلم الطري غير المدبب على الورق أثراً متزايد التشوش؛ لكني لا أبالي.

«الطابق الثاني والثلاثون. أعرف أنه لا يزال يعمل هنا».

يتناول الحارس المغلف وينظر إليه، لكنه لا يقول شيئاً ولا يظهر على وجهه أي تعبير، حتى لحظة ذهابي على الأقل.

يجب أن أذهب إلى محل ساكس، لكني أعتزم الذهاب مباشرة إلى شقة إيمّا بما أن مهمتي هنا قد انتهت. أتساءل عمَّ تفعله في هذه اللحظة تحديداً. هل تحزم حقائبها استعداداً للانتقال. هل تشتري قميص نوم مثيراً من أجل شهر عسلها. هل تشرب قهوتها الأخيرة مع أصدقائها وتعدهم بأنها ستعود مرات كثيرة لرؤيتهم؟

تصطدم قدمي اليسرى بسطح الرصيف الصلب. أنقذي... تصطدم قدمي اليمنى بسطح الرصيف الصلب... إيمّا.

أسير مسرعة، ثم أزيد سرعتي. تتردد تلك الكلمتان في دماغي. أنقذي إيمّا... أنقذي إيمّا... أنقذي إيمّا...

لقد وصلت متأخّرة مرات كثيرة من قبل... عندما كنت في سنتي الأخيرة في فلوريدا في أخوية الفتيات. لن يحدث ذلك مرة أخرى.

ليلة اختفاء ماغي، عدت من بيت دانييل إلى بيت الطالبات لحظة كانت المنتسبات الجدد راجعات إليه مبلّلات مقهقهات تفوح منهن رائحة البحر. صاحت ليزي: «ظننت أنك كنت مريضة!».

اندفعت مخترقة مجموعة الفتيات الجديدات وصعدت إلى الطابق العلوي، إلى غرفتي. كنت ممزقة، غير قادرة على التفكير بشكل واضح. لست أعرف ما جعلني ألتفت وأنظر إلى الفتيات اللواتي كن في تلك اللحظة يجفّفن أنفسهن بمناشف رمتها فتاة ما إليهن من أعلى السلم.

استدرت سريعاً وصحت: «ماغي!».

غمغمت ليزي غير واثقة: «إنها هنا... إنها هنا...». راح صدى تلك

الفصل الثامن والعشرون

أدخل عبر باب المستخدمين، ثم آخذ المصعد إلى الطابق الثالث. أجد لوسيل تعيد طي بعض الكنزات. لديها نقص في العاملين، بسببي أنا. إنها تقوم الآن بعملي.

أمد يدي إلى كدسة كنزات الكشمير الفضية: «إنني آسفة حقاً. أنا في حاجة إلى هذا العمل. يمكنني توضيح ما كان يحدث...».

تستدير لوسيل في اتجاهي عندما يضمحل صوتي ويصمت. أحاول قراءة تعبير وجهها وهي تنظر إلى شكلي: إنها الحيرة! هل كانت تظن بأنني سأكتفي بأخذ الشيك والذهاب؟ تتوقف نظرة عينيها عند شعري فألتفت بحركة غريزية إلى المرآة التي على الجدار. إنها حائرة طبعاً... لم ترَني أبداً إلا بشعر داكن.

«فانيسا، أنا آسفة فعلاً. لكني منحتك فرصة أخرى مرات عدة».

كنت موشكة على رجائها من أجل فرصة أخرى، لكني رأيت المكان ممتلئاً بالزبائن. ورأيت بائعات أخريات ينظرن إلينا. لعل واحدة منهن أخبرت لوسيل عن تلك الفساتين التي أخفيتها.

لا طائل من الأمر كله! أضع الكنزات من يدي.

تأتي لوسيل بالشيك وتسلّمني إياه. تقول لي: «حظّاً طيّباً يا فانيسا».

وخلال سيري عائدة إلى المصعد، أرى الفساتين ذات الخطوط البيض والسود معلّقة في مكانها السابق. أحبس أنفاسي إلى أن أتجاوزها بسلام.

* * *

كان ذلك الفستان مناسباً لي تماماً، كأنه قفّاز... كأنه مفصَّلٌ تفصيلاً وفق انحناءات جسدي.

في ذلك الوقت، كانت قد مرّ على زواجنا عدة سنوات. انقطعت علاقتي مع سامانثا. ولم يظهر أي تفسير لاختفاء ديوك. قامت أمي أيضاً، على نحو غير متوقع، بإلغاء رحلة الربيع لزيارتنا وقالت إنها تعتزم الذهاب إلى نيومكسيكو في رحلة جماعية.

لكني كنت قد بدأت أعود إلى الحياة بدلاً من الانسحاب منها.

لم أتناول رشفة كحول واحدة منذ قرابة ستة أشهر. كما أن الانتفاخات التي كانت ظاهرة في عدة أماكن في جسدي اختفت شيئاً فشيئاً مثلما يتسرّب غاز الهليوم تسرّباً بطيئاً من منطاد. بدأت أنهض في وقت مبكّر كل صباح لكي أجري عبر الطرقات المحيطة والتلال الصغيرة في حيّنا.

كنت قد أخبرت ريتشارد أيضاً أنني بدأت أركّز على استعادة صحتي من جديد. أظنه صدَّقني وقبل سلوكي الجديد على أنه تحوّل إيجابي. فبعد كل حساب، كان ريتشارد هو الذي يطبع لي الفواتير التي تأتيه بالبريد الإلكتروني من النادي كل شهر قبل اقتطاعها من بطاقته الائتمانية. لقد بدأ يترك لي تلك الفواتير على طاولة المطبخ بعد أن يضع إشارات على ما فيها من مشروبات كحولية. اتضح لي أنني ما كنت في حاجة إلى قطرة العين لإخفاء احمرار عينيّ ولا إلى رذاذ النعناع لتمويه رائحة فمي. كان يعرف تماماً الكمية التي أشربها خلال لقاءات اللجنة على الغداء.

لكني كنت أعيش تغيراً يتجاوز صحتي الجسدية. لقد بدأت أيضاً

عملاً تطوّعياً جديداً. كنت أذهب بالقطار مع ريتشارد كل يوم أربعاء، ثم آخذ سيارة تاكسي إلى الحي الشرقي حيث أقرأ قصصاً للأطفال ضمن برنامج «البداية الأولى». تعرّفت على منظّمي هذا البرنامج عندما كنت أقوم بإيصال الكتب التي توزّعها لجنة النادي. لم أكن أعمل مع الأطفال إلا بضع ساعات في الأسبوع. لكن هذا العمل منحني هدفاً. كانت العودة إلى المدينة منعشة، منشطة أيضاً. وكنت أشعر بأن ذاتي القديمة قد بدأت تعود إلي. كنت أشعر بهذا أكثر من أي وقت مضى منذ شهر عسلي.

«افتحيها»... هكذا قال لي ريتشارد ليلة ذهابنا إلى حفل آلفين آيلي عندما نظرت إلى العلبة البيضاء اللامعة المربوطة بشريط أحمر على شكل فراشة.

رفعت غطاء العلبة الحريري. بعد أن تزوجت ريتشارد، صرت أعرف كيف أميّز الملمس والتفاصيل التي تميز ملابسي الأساسية القديمة التي كنت أشتريها من محلات H&M عن القطع الفاخرة التي تحمل أسماء مصممیها. كان هذا الفستان من أكثر الفساتين التي رأيتها أناقة. كان فيه سر أيضاً. يبدو من بعيد كأنه فستان عليه رسوم بسيطة بالأسود والأبيض. لكن ذلك كان خدّاعاً. عند النظر إليه عن قرب، يتبيّن أن كل خيط فيه قد اتخذ مكانه لغاية محددة... غرزة بعد غرزة... لخلق عالم عجائبي مزهر.

قال ريتشارد: «البسيه الليلة. تبدين فاتنة».

ارتدى بدلته الرسمية السوداء فأزحت يده جانباً عندما كان يهم بربط عقدة عنقه.

ابتسمت وقلت له: «دعني أربطها». يبدو بعض الرجال في ربطة العنق السوداء أشبه بصبيان ذاهبين إلى حفل التخرج بأنوفهم اللامعة وشعرهم المسرّح إلى الخلف. ويبدو آخرون أشبه بمستعرضين

معجبين بأنفسهم... أولئك الذين يحاولون أن يكون كل شيء في مكانه مئة بالمئة. لكن ريتشارد كان يمتلك الشيء الحقيقي. عقدت ربطة العنق على شكل فراشة، ثم قبلته تاركة أثراً ورديّاً لامعاً على شفته السفلى.

أستطيع الآن رؤيتنا في تلك الليلة كما لو أنني أنظر إلينا من أعلى: نخرج من السيارة الفاخرة إلى الثلج الخفيف المتساقط ونسير بذارعَيْن متشابكتين فندخل الصالة. نجد بطاقة طاولتنا التي كُتب عليها بخط مزيَّن بالأزهار ـ السيد والسيدة ثومبسون: الطاولة رقم 16 ـ نتوقّف ضاحكين لكي تُلتقط صورة لنا. نقبل كأسَيْ شامبانيا يقدمهما إلينا نادل يتجول بين الضيوف.

ثم، أوه... تلك الرشفة الأولى ـ تلك الفقاعات الذهبية تتفجّر في فمي، وذلك الدفء ينساب في حلقي. كان مذاقها كأنها بهجة مسكوبة في كأس.

بعد أن جلسنا ننظر إلى الراقصين يقفزون ويتحلّقون، يلوّحون بأذرعتهم كالأمواج وتتحرك سيقانهم ذات العضلات البارزة دائرة في دورات سريعة كأنها مغازل، وتتلوّى أجسادهم متخذة أشكالاً لا تصدّق بينما يتعالى قرع الطبول المحموم. لم أدرك أنني أتمايل أماماً وخلفاً وأصفق تصفيقاً خفيفاً إلى أن ضغطت يد ريتشارد ضغطة خفيفة. كان يبتسم لي، لكني شعرت بموجة من الحرج. لم يكن أحد غيري يتحرّك مع الموسيقى.

عندما انتهى العرض، كان هناك مزيد من كؤوس الكوكتيل والمقبلات. تحدّثنا، أنا وريتشارد، مع بعض زملائه. كان أحدهم، رجل أبيض الشعر اسمه بول، عضواً في مجلس إدارة الشركة المنظّمة للحفل، وقد حجز طاولة للعشاء. كنا من بين ضيوفه إلى تلك الطاولة.

اختلط الراقصون بالضيوف. كانت أجسادهم منحوتات نابضة بالحياة فبدوا كأنهم آلهة نزلوا من السماء.

في هذا النوع من المناسبات الاجتماعية، عادة ما يؤلمني وجهي آخر الليل لكثرة الابتسام. كنت أحاول أن أبدو مهتمة بالأحاديث تعويضاً عن عدم قدرتي على قول الكثير، خاصة لحظة ذلك الصمت الثقيل الذي يعقب سؤالاً لا مهرب منه... السؤال الذي يظنه الغرباء دائماً سؤالاً عادياً لا يحمل أية أذية: «هل لديك أطفال؟». لكن بول كان مختلفاً. عندما سألني عن عملي وقلت له إنني أعمل متطوعة في ذلك البرنامج، لم يقل لي «أوه، شيء لطيف»، ولم ينصرف عني ليبحث عن شخص أكثر أهمية. سألني: «كيف بدأت العمل التطوعي؟». فوجدت نفسي أخبره عن السنوات التي أمضيتها معلّمة في حضانة الأطفال وعن عملي التطوّعي الحالي مع برنامج «البداية الأولى».

قال لي: «لقد ساهمت زوجتي في تأمين التمويل من أجل مدرسة مستقلة[1] جديدة رائعة لا تبعد كثيراً عن هذا المكان. يجب أن تفكّري في المشاركة في نشاطاتها».

تعجبني الفكرة كثيراً. لقد اشتقت إلى التعليم.

امتدت يد بول إلى جيب سترته وأخرج منها بطاقته: «اتصلي بي الأسبوع القادم». انحنى مقترباً مني قليلاً وهمس: «عندما أقول إن زوجتي ساهمت في تأمين التمويل أعني أن زوجتي قالت لي أن أحرر لهم شيكاً بمبلغ كبير. إنهم مدينون لنا». ظهر أثر ابتسامة عند زاويتَيْ عينيه، فابتسمت له. كنت أعرف أنه واحد من أكثر الرجال الموجودين في القاعة نجاحاً، وأنه لا يزال يعيش زواجاً سعيداً مع زوجته التي كانت حبيبته منذ المدرسة... امرأة ابيضَّ شعرها كانت في تلك اللحظة تتحدّث مع ريتشارد.

---

(1) المدرسة المستقلة: نوع من المدارس في الولايات المتحدة يؤسسه معلمون أو أهالي أطفال أو مجموعة من أفراد المجتمع المدني ويتلقى تمويلاً عامّاً بموجب عقد مع السلطات المحلية أو الوطنية.

تابع بول قائلاً: «سوف أقوم باتصالاتي. وأراهن أنني أستطيع أن أجد مكاناً لكِ. إن لم يكن الآن، فربما في العام القادم».

اقترب نادل يحمل صينية فقدم لنا كأسين من النبيذ. ناولني بول كأساً وقال: «في صحتك، فلنشرب نخب بدايات جديدة». أسأت التقدير عندما قرعت كأسي بكأسه. تحطم الزجاج الرقيق ولم يبق في يدي غير ساق الكأس بنهايتها المسننة. أما النبيذ فسال على ذراعي.

«آسفة جداً...»، قلت مسرعة عندما اندفع النادل عائداً وقدم لي بعض المناديل التي كانت على الصينية ثم أخذ ساق الكأس من يدي.

قال بول: «بل هي غلطتي أنا. لم أحسن تقدير قوتي! أنا من يجب أن يكون آسفاً. انتظري، لا تتحرّكي. هنالك قطع زجاج على فستانك».

ظللت واقفة مثلما كنت في حين راح يلتقط نثرات الزجاج عن نسيج الفستان ويضعها في صينية النادل. توقّفت الأحاديث الجارية حولنا لحظة واحدة، لكنها عادت فتواصلت من جديد. لكني ظللت أشعر بانتباه الجميع منصبّاً عليّ. وددت لو أستطيع الذوبان والاختباء في تلك السجادة التي كنت واقفة عليها.

أتى ريتشارد ووقف إلى جانبي: «دعيني أساعدك!...». بدأ يجفف ثوبي المبتل بالنبيذ... «أمر حسن أنك لم تكوني تتناولين نبيذاً أحمر».

ضحك بول، لكن ضحكته بدت مفتعلة. كان واضحاً لي أنه يحاول إزالة الحرج الذي اكتنف تلك اللحظة... «حسناً، الآن صرت مديناً لك حقاً بتلك الوظيفة...». نظر إلى ريتشارد وقال: «كانت زوجتك اللطيفة تخبرني كم هي مشتاقة إلى التعليم».

كوّر ريتشارد المنديل الرطب في يده ووضعه في صينية النادل، ثم صرفه قائلاً: «شكراً»، ثم أحسست بيده على أسفل ظهري وهو يقول لبول: «إنها ناجحة مع الأطفال». انتبه بول إلى زوجته التي كانت تلوّح له

بيدها فقال لي: «رقم هاتفي معك. فلنتكلم عمَّ قريب».

لحظة ابتعاده عنا، مال ريتشارد صوبي وقال لي بصوت منخفض: «لماذا تشربين بهذه الكثرة يا حبيبتي؟». كانت كلماته بريئة من كل توتّر، لكن سكون جسده كان غير طبيعي.

أجبته سريعاً: «لم أشرب كثيراً».

«بحسب ما رأيت فقد شربت ثلاث كؤوس من الشامبانيا. ثم شربت ذلك النبيذ كله». زاد ضغط يده على أسفل ظهري وهمس في أذني: «انسي أمر العشاء. فلنعد إلى البيت».

«لكن... بول، حجز الطاولة. سوف يظلّ مقعدانا خاليين. أعدك بأن أشرب الماء فقط».

قال ريتشارد بهدوء: «أظن من الأفضل أن نذهب. بول سيتفهّم الأمر». مضيت لأجلب دثاري. وبينما كنت أنتظر، رأيت ريتشارد يقترب من بول ويقول له شيئاً ثم يضرب بيده على كتفه. قلت في نفسي إن ريتشارد يعتذر نيابة عني، لكن بول سيدرك ما بين السطور: على ريتشارد أن يعيدني إلى البيت لأنني ثملت إلى حد لا يسمح لي بالبقاء على العشاء.

لكني لم أكن ثملة!

كل ما في الأمر إن ريتشارد أراد أن يظنني الجميع أنني ثملة!

قال لي ريتشارد عندما عاد: «كل شيء على ما يرام». كان قد طلب سيارتنا؛ وكانت تنتظرنا أمام المبنى.

الآن، صار تساقط الثلج أكثر كثافة. ورغم أن سائقنا قاد السيارة ببطء في الشوارع التي صارت شبه خاوية، إلا أنني شعرت بالغثيان. أغمضت عينيّ واستندت على باب السيارة بقدر ما سمح لي حزام الأمان. تظاهرت بالنوم، لكني كنت واثقة تماماً من أن ريتشارد أدرك أنني لا أريد مواجهته.

قد يتغاضى عن الأمر... قد يتركني أصعد إلى غرفة النوم وأرتمي في السرير.

لكني تعثّرت وأمسكت بالدرابزون الحديد بينما كنت أصعد الدرجات المفضية إلى باب البيت.

قلت مرتبكة: «إنه حذائي الجديد. لست معتادة عليه بعد».

قال لي ساخراً: «بالطبع، إنه الحذاء! لا يمكن أن يكون السبب تلك الكؤوس كلّها على معدة فارغة. كانت تلك مناسبة عمل يا نيللي. كانت ليلةً مهمةً بالنسبة إليَّ».

وقفت صامتة خلفه وهو يفتح قفل الباب. وعندما صرت في الداخل، جلست على المقعد الصغير في الردهة فخلعت حذائي. وضعت فردتي الحذاء جنباً إلى جنب على الدرجة الأولى بحيث صار كعباهما متحاذيين تماماً، ثم خلعت دثاري وعلقته في الخزانة.

كان ريتشارد لا يزال واقفاً هناك عندما أغلقت الخزانة واستدرت: «يجب أن تأكلي شيئاً. تعالي!».

تبعته إلى المطبخ حيث أخرج زجاجة ماء معدني، وناولني إياها صامتاً. فتح إحدى الخزائن وأخرج علبة بسكويت من غير دسم أو سكر.

بسرعة، أكلت قطعة من البسكويت وقلت له: «صرت الآن أحسن. كنت محقاً في إعادتي إلى البيت... لا بد أنك جائع أيضاً. هل تريد أن أضع لك بعض الجبن؟ لقد اشتريته اليوم من سوق الفلاحين».

«لا أريد شيئاً». كنت أعرف أن ريتشارد موشك على الاختفاء مثلما كان يفعل عندما جرت بيننا مشاجرات أخرى كنت أحاول نسيانها. كان يبذل كل جهده حتى يمنع غضبه من الظهور... كان يحاول ابتلاعه.

قلت له بسرعة محاولة إزالة انزعاجه: «في ما يتعلق بالعمل... عرض عليَّ بول أن يعرفني على الأشخاص الذين يديرون إحدى المدارس

المستقلة. من الممكن أن يكون عملاً بوقت جزئي، ومن الممكن أيضاً ألّا يحدث ذلك أبداً».

أومأ ريتشارد برأسه بحركة بطيئة: «هل هناك سبب خاص يجعلك راغبة في الإكثار من الذهاب إلى المدينة؟».

نظرت إليه... من بين كل الأشياء التي كان يمكن أن يقولها، لم أتوقّع هذا على الإطلاق: «ماذا تعني؟».

«ذكر لي شخص من الجيران أنه رآك في محطة القطار. قال إنك كنت متأنقة، شيء غريب لأنني اتصلت بك ذلك الصباح فقلت لي إنك لم تردّي على الهاتف لأنك كنت تسبحين في النادي».

لم أستطع إنكار ذلك. إذا حاولت الكذب، فسوف يمسك بي عقل ريتشارد. تساءلت في نفسي: أي جار هذا؟ كانت المحطة شبه خالية في ذلك الوقت من النهار.

«كنت أسبح في ذلك الصباح. لكني ذهبت بعد ذلك لرؤية خالتي شارلوت. كانت زيارة قصيرة».

هز ريتشارد رأسه: «طبعاً، طبعاً. بسكويتاً أخرى؟ لا؟». أعاد غطاء العلبة المنزلق... «ما من سبب لعدم زيارة خالتك؟ كيف حالها؟».

أجبته سريعاً وقد بدأ نبض قلبي يهدأ قليلاً: «جيّدة...». سوف يتغاضى عن الأمر كله. لقد صدّقني... «شربت الشاي عندها في شقتها».

فتح ريتشارد الخزانة ليعيد علبة البسكويت فصار الباب الخشبي بيننا وبقيت لحظة غير قادرة على رؤية وجهه.

كان ينظر إليّ عندما أغلق الباب. كان وجهه شديد القرب من وجهي. أحسست بأن عينيه الضيقتين تحرقان عينيّ: «ما لا أستطيع فهمه هو أنك انتظرتني إلى أن ذهبت إلى عملي، ثم لبست وتأنّقت وذهبت بالقطار إلى المدينة، ثم عدتِ في الوقت المناسب لكي تحضري طعام العشاء.

وبعدها جلست معي تأكلين اللازانيا من غير أن تفكّري مرة واحدة بأن تذكري لي أنك زرت خالتك...». سكت لحظة قصيرة... «أين ذهبتِ حقّاً؟ مع من كنتِ؟».

سمعت صوتاً يشبه صراخ طائر، ثم أدركت أنني صاحبة ذلك الصوت. كان ريتشارد يضغط على معصمي ويلويه وهو يتكلم معي.

نظر إلى الأسفل، ثم ترك يدي على الفور. إلا أن بقعاً بيضاً ظلت ظاهرة في المكان الذي كانت أصابعه عليه. بدت لي كأنها حروق.

«إنني آسف...». تراجع خطوة إلى الخلف. مرر أصابعه في شعري. زفر ببطء... «لكن، لماذا كذبتِ عليّ بحق الشيطان؟».

كيف أخبره بالحقيقة؟ كيف أقول له إنني لم أكن سعيدة وإن كل شيء قدّمه لي لم يكن كافياً؟ لقد أردت مقابلة شخص أستطيع أن أناقش معه مخاوفي إزاء زواجي. لقد أصغت إليَّ المرأة التي ذهبت إليها بكل انتباه، ثم طرحت عليَّ بضعة أسئلة تثير التفكير. لكني كنت أعرف أن جلسة واحدة معها لن تكون كافية. كنت أعتزم أن أذهب خفية إلى المدينة بعد شهر حتى أراها مرة أخرى.

لكن الوقت قد فات على اختلاق عذر يمكن تصديقه أبرّر به كذبي.

لقد أمسك بي ريتشارد.

لم أر يده المفتوحة آتية إلى أن اصطدمت بوجهي صدمة شديدة مرتفعة الصوت.

لم أكد أنم طيلة الليتين اللتين أعقبتا ذلك. كان رأسي ينبض ألماً وتورَّم حلقي لكثرة البكاء. غطيت الكدمات التي على معصمي بأكمام القميص الطويلة، ووضعت مزيداً من كريم الوجه على الدوائر الداكنة

تحت عيني. لم أكن قادرة على التفكير إلا في ما إذا كان عليّ أن أبقى مع ريتشارد أو أن أحاول تركه.

عندها، بينما كنت أحاول القراءة في السرير من غير أن أفهم أيّ كلمة في الصفحة التي أمامي، نقر ريتشارد باب غرفة نوم الضيوف التي كنت فيها نقراً خفيفاً، ثم فتحه. رفعت رأسي لأقول له أن يدخل، لكني رأيت التعبير الذي على وجهه فذابت كلماتي.

كان هاتف البيت اللاسلكي في يده. قال لي: «إنها أمّك...». تغضَّن وجهه... «أقصد إنها خالتك شارلوت. وهي تتصل الآن...».

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً، أي إنها تجاوزت موعد نوم خالتي المعتاد. عندما تكلّمت مع أمي آخر مرة، قالت لي إنها في حالة جيدة، لكنها لم تردّ على آخر اتصالاتي.

مد ريتشارد يده بالهاتف: «يؤسفني هذا كثيراً يا عزيزتي».

كان مد يدي والإمساك بالهاتف من أصعب الأشياء التي اضطررت إلى فعلها في حياتي كلها.

الفصل التاسع والعشرون

بعد وفاة أمي، كان ريتشارد كل ما أردت أن يكونه.

طرنا إلى فلوريدا مع خالتي شارلوت من أجل حضور الجنازة. حجز ريتشارد جناحاً في فندق مع غرف متلاصقة حتى نكون كلنا معاً. عندما ودّعتها الوداع الأخير، رحت أتذكّر كيف كان شكل أمي في أسعد أوقاتها... في المطبخ تقرقع بالقدور أو تنثر التوابل في طبق من الأطباق، أو تغني لي في صباحات أغنية مضحكة حتى توقظني، أو تضحك وهي تمسح عن وجهها الماء الذي رشه عليها ديوك يوم حمّامه. حاولت أن أتذكّر صورتها ليلة زفافي عندما سارت على رمل الشاطئ عارية القدمين وكان وجهها متجهاً صوب الشمس الغاربة. لكن صورة أخرى ظلّت ملحّة على الحضور في ذهني: صورة أمي عندما ماتت وحيدة على الأريكة وإلى جانبها زجاجة أقراص دواء فارغة، وصوت التلفزيون مرتفعاً.

لم تترك رسالة... وهكذا، بقينا مع أسئلة لا سبيل إلى الإجابة عليها.

عندما انهارت خالتي شارلوت وبكت عند القبر لائمة نفسها على جهلها بأن حالت أمي قد ساءت، راح ريتشارد يواسيها قائلاً: «لا ذنب لك على الإطلاق. لا ذنب لأحد على الإطلاق. لقد كانت تتحسّن. لقد كنت دائمة الاهتمام بأختك؛ وكان حبّكِ محسوساً لديها».

اهتم ريتشارد أيضاً بالأمور الإدارية وتدبّر أمر بيع البيت القرميدي الصغير الذي ترعرعتُ فيه؛ أما أنا وخالتي شارلوت فقد اهتممنا بحاجيات أمي الشخصية.

كانت بقية البيت في حالة مقبولة نسبياً، لكن الفوضى عمّت غرفة أمي... كتب وقطع ملابس متناثرة في كل مكان. أدركت من فُتات الخبز في سريرها أنها كانت تتناول معظم وجباتها في الفراش خلال الآونة الأخيرة. وعلى الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، تزاحمت فناجين قهوة قديمة وكؤوس ماء كثيرة. رأيت حاجبَيْ ريتشارد يرتفعان دهشة عندما رأى هذه الفوضى. لكن الشيء الوحيد الذي قاله: «سوف أتصل مع واحدة من شركات التنظيف حتى تهتم بهذا المكان».

لم آخذ الكثير من حاجيات أمي: اقترحت خالتي شارلوت أن تختار كل واحدة منا بعض أوشحتها؛ كما انتقيت لنفسي أيضاً بضع قطع من حليّها. كانت صورنا العائلية القديمة الشيء الوحيد الذي أردت أخذه، إضافة إلى اثنين من كتب الطبخ المهترئة التي كانت أمي تحبها كثيراً.

كنت أعرف أيضاً أن عليّ أخذ بعض الأشياء من غرفتي القديمة التي كانت قد تحوّلت إلى غرفة نوم للضيوف. لقد تعمّدت ترك بعض الأشياء على رف خزانتي. راحت خالتي شارلوت تنظّف البراد، وكان ريتشارد يتحدّث على الهاتف مع وكيل عقاري، فأتيت بالسلم الصغير وصعدت عليه حتى أصل إلى ذلك الرف المرتفع. ألقيت بشعار أخوية الفتيات في كيس قمامة، ثم ألقيت فيه سجلّ درجاتي الدراسية في الكلّية وآخر الأوارق والواجبات التي قدّمتها. ألقيت في الكيس أيضاً بطاقات الشهادات التقديرية التي حصلت عليها في سنواتي المدرسية الأولى، ثم مددت يدي إلى آخر الرف حتى أخرج شهادة الكلية التي لا تزال ملفوفة على شكل أسطوانة ومربوطة بشريط صار لونه باهتاً.

رميتها حتى من غير أن أنظر فيها أبداً.

تساءلت عن السبب الذي جعلني أحتفظ بها بعد هذه السنين كلها.

لم أكن قادرة على النظر إلى سجل الدرجات الدراسية أو إلى شارة أخوية الفتيات من غير التفكير في ماغي. وما كنت قادرة على النظر في شهادتي من غير التفكير في ما حدث يوم تخرّجي.

كنت أربط الكيس عندما دخل ريتشارد غرفتي وقال لي: «أفكر في الخروج لشراء طعام للعشاء...». نظر إلى الكيس الذي في يدي... «هل تريدين أن أرمي هذا الكيس في القمامة؟».

تردّدت لحظة ثم ناولته الكيس وقلت: «بالتأكيد».

رأيته يخرج مبتعداً بآخر ما بقي لي من أيامي في الكلية، ثم راحت عيناي تنتقلان في أرجاء الغرفة الخاوية. لا تزال بقعة الرطوبة على السقف ظاهرة؛ وإذا أغمضت عينيَّ، أكاد أستطيع تخيل قطتي السوداء متجمعة على نفسها إلى جانبي فوق لحافي المخطط بالوردي والبنفسجي وأنا جالسة أقرأ كتاباً لجودي بلوم.

كنت أعرف أنني لن أرى هذا البيت بعد ذلك أبداً.

عدنا إلى فندقنا في تلك الليلة. كنت مستلقية في حوض الحمّام الحارّ، وأتى لي ريتشارد بفنجان من البابونج فتناولته شاكرة له. على الرغم من حر ذلك اليوم في فلوريدا فقد بدا لي أنني غير قادرة على الإحساس بالدفء.

«هل أنت صامدة يا حبيبتي؟». كنت أعرف أن سؤاله هذا لا يشير إلى وفاة أمي وحدها.

هززت كتفي وقلت: «لا بأس».

ركع ريتشارد إلى جانب الحوض ومد يده ليتناول ليفة الحمّام:

«يقلقني أنك لست سعيدة في الآونة الأخيرة. لا أريد إلا أن أكون زوجاً جيّداً لك. لكني أعرف أنني لست على الدوام كذلك. أنت تشعرين بالوحدة لأنني أعمل ساعات طويلة، ثم إن مزاجي...». ظهرت بحّة في صوت ريتشارد. تنحنح، ثم بدأ يمسح ظهري بلطف... «إنني آسف يا نيللي. لقد كنت متوتراً مضغوطاً... السوق في حالة جنونية، لكن لا أهمية لشيء إلا أنت. لا أهمية لشيء إلا نحن الاثنان. سوف أعوّضك عن ذلك».

كنت أعرف تماماً أنه يحاول جاهداً أن يصل إليّ، أن يعيدني إليه. لكني ظللت أشعر بالوحدة وبالبرد في داخلي.

رحت أحدّق في تيار الماء المتدفق بطيئاً من الدوش وهو يهمس لي: «أريد أن تكوني سعيدة يا نيللي. لم تكن أمك سعيدة على الدوام. وأمي أيضاً لم تكن سعيدة. كانت تحاول التظاهر بالسعادة من أجلي ومن أجل مورين. كنا نعرف ذلك. لا أريد أن يحدث هذا لك».

نظرت إليه عند ذلك، لكن عينيه كانتا بعيدتين، كانتا غائمتين، فرحت أحدق في الندبة الفضية فوق عينه اليمنى.

لم يكن ريتشارد يتحدّث عن أبويه أبداً. كان معنى هذا الاعتراف الآن أكبر من وعوده كلها.

«لم يكن أبي طيّباً مع أمي على الدوام...» ظلت راحت يده تتحرّك في دوائر على ظهري كما لو أنه أم تهدئ من روع طفلها... «يمكنني التعايش مع كل شيء إلا أن أكون زوجاً سيئاً لك... لكني كنت سيئاً معك بالفعل».

كان هذا أصدق حديث يجري بيننا. تساءلت عن السبب الذي جعل قوله هذه الكلمات يقتضي حدثاً كبيراً كموت أمي. لكن، لعل الأمر لم يكن بسبب وفاتها بعد تناولها جرعة زائدة من الدواء. لعلها كان نتيجة ما

حدث قبل يومين من وفاتها... يوم عدنا إلى البيت من حفلة آلفين آيلي.

قال لي: «أحبك».

مددت يدي إليه عند ذلك. تبلل قميصه من ماء الحمام الذي حملته ذراعاي.

قال لي: «كلانا صار الآن يتيماً. لذلك، سيكون كل منا أسرة للآخر».

احتضنته بقوة متشبّثة به، متشبّثة بالأمل.

في تلك الليلة، تضاجعنا للمرة الأولى منذ زمن طويل. أحاط خدي براحتَيْ كفَّيْه وحدق في عيني برقّة وتوق جعلاني أحسّ بأن شيئاً في داخلي، ذلك الشيء الذي كنت أحسه أشبه بعقدة محكمة، قد بدأ يسترخي وينحلّ. وعندما احتضنني ريتشارد بعد ذلك، رحت أفكر في الجانب اللطيف الرقيق في شخصيته.

تذكّرت كيف سدد فواتير أمي الطبية، وكيف كان يحضر افتتاح كل معرض فني لخالتي شارلوت حتى لو كان ذلك يعني التخلي عن عشاء عمل مع أحد عملائه. تذكّرت كيف كان يأتي إلى البيت مبكراً في كل ذكرى سنوية لوفاة أبي حاملاً كيساً ورقياً أبيض فيه آيس كريم بالروم والزبيب، تلك النكهة المفضّلة عند أبي، الآيس كريم الذي يطلبه عندما نذهب معاً في نزهة بالسيارة كلما تحسّنت حالة أمي.

كان ريتشارد يضع لكل منا كرة من الآيس كريم، وكنت أحكي له عن أبي ذكريات كان من الممكن أن يعلوها الغبار وأنساها من غير ذلك... ذكريات من قبيل سماحه لي، رغم تطيره، بتبني قطة سوداء وقعت في حبها عندما كنت طفلة صغيرة. كان الآيس كريم يذوب على لساني في تلك الليالي فيملأ فمي حلاوة. تذكّرت أيضاً كيف يقدّم ريتشارد بقشيشاً سخياً لعمال المطاعم وسائقي التاكسي وكيف يتبرّع لجمعيات خيرية.

الذي يجعلني غير قادرة على العودة وحيدة إلى البيت في الليل ويجعلني أحمل عبوة رذاذ الفلفل وأضع هراوة إلى جانبي عندما أنام.

وصفت لريتشارد وأنا مستلقية بين ذراعيه كيف ذهبت لتعزية أسرة ماي. اكتفى والداها بالإيماء لي برأسيهما، وبدا لي أن ألمهما الشديد جعلهما غير قادرَيْن على الكلام. لكن جيسون، أخاها الأكبر الذي كان مثلي في السنة الأخيرة في جامعة غرانت، مد يده وأمسك بيدي الممدودة. لم يمسك بها لكي يصافحها، بل أمسك بها لكي يثبتني في مكاني.

قال هامساً: «أنت السبب». شممت في أنفاسه رائحة كحول بائتة، ورأيت خطوطاً قرمزية تتخلل بياض عينيه. كانت له بشرة ماغي الشاحبة، ونمش ماغي، وشعر ماغي الأحمر.

بدأت أقول له: «إنني آسفة جداً...»، لكنه ضغط على يدي أكثر. أحسست كأنه يطحن عظامها. اقترب منه أحد حتى يحتضنه مواسياً فأفلت يدي، لكني ظللت أحس بعينيه تلاحقانني. بقيت أخواتي في الأخوية مع المعزّين في الغرفة الاجتماعية في الكنيسة، لكني انسللت مبتعدة بعد بضع دقائق وخرجت.

عندما كنت أخرج من الباب، صادفت الشخص الذي كنت أحاول تجنبه: جيسون.

كان واقفاً وحده على الدرجات الأمامية ينقر على علبة مارلبورو حمراء في يده. كان صوت النقرات رتيباً متكرراً. حاولت خفض رأسي وتجاوزه سريعاً.

لكن صوته أوقفني: «لقد أخبرَتْني عنك». أشعل القداحة وعب نفساً عميقاً من سيجارته. نفث في اتجاهي تياراً من دخان... «كانت خائفة من طقوس أسبوع القبول في الأخوية، لكنك قلت لها إنك سوف تساعدنيها.

لقد كنت صديقتها الوحيدة في الأخوية. أين كنت عندما ماتت؟ لماذا لم تكوني معها في تلك اللحظة؟».

أتذكّر كيف تراجعت إلى الخلف وأنا أحسّ بعينَيْ جيسون مطبقتَيْن عليّ، تماماً مثلما أطبقت يده على كفي.

قلت من جديد: «إنني في غاية الأسف». لكن هذا لم يخفف الغضب الظاهر على وجهه. بل بدا لي أن كلماتي زادت من غضبه.

بدأت أتراجع بخطى بطيئة وأنا ممسكة بالدرابزون حتى لا أسقط على تلك الدرجات. ظلّت عينا شقيق ماغي مثبتتين عليّ. وقبل أن أصل إلى الرصيف، ناداني بصوت فظ خشن.

«لن تنسي أبداً ما فعلته بأختي...». كان وقع كلماته مثل وقع لكمات قوية... «وسوف أحرص على ألّا تنسي».

لكني ما كنت في حاجة إلى تهديده حتى أظل محتفظة بذكرى ماغي. كنت أفكر فيها دائماً. لم أذهب أبداً إلى ذلك الشاطئ بعد ذلك. جرى تعليق نشاط أخويتنا طيلة ما تبقى من تلك السنة، لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذي جعلني أعمل نادلة في مقهى الجامعة في ليالي يومي الخميس والسبت. لم تعد حفلات أخوية الفتيات ورقصاتها تجتذبني أبداً. وصرت أضع جانباً قسماً من البقشيش الذي أحصل عليه؛ وكلما تجمع عندي بضع مئات الدولارات، كنت أذهب إلى مأوى الحيوانات الذي عملت فيه ماي متطوّعة فأتبرع بالمال باسمها. عاهدت نفسي على أن أستمر بإرسال المال باسمها كل شهر. لم أكن آمل أن تُحلّني تبرعاتي الصغيرة تلك من إحساسي بالذنب ومن دوري في موت ماغي. كنت أعرف أنني سأحمله معي دائماً، وأنني سأظل أسأل نفسي عما كان يمكن أن يحدث لو أنني لم أترك مجموعات الفتيات الماضيات إلى المحيط. لو أنني انتظرت، لو حتى ساعة واحدة، قبل أن أذهب لمواجهة دانييل.

بعد شهر تماماً من وفاة ماغي، استيقظت على صراخ أخواتي في بيت الفتيات. نزلت إلى الأسفل راكضة وأنا في سروال داخلي وقميص خفيف فرأيت الكراسي مقلوبة والمصباح محطماً وشتائم مكتوبة برذاذ الطلاء الأسود على امتداد غرفة المعيشة. عاهرات. قذرات.

كانت على الجدار أيضاً تلك الرسالة التي أدركت أنها موجهة إليَّ وحدي: أنت من قتلها.

شهقت ورحت أنظر إلى تلك الكلمات الثلاث التي تعلن عن جريمتي أمام الجميع.

نزلت الفتيات كلهن إلى الأسفل، في حين اتصلت رئيسة القسم بأمن الكلية. انفجرت إحدى طالبات السنة الأولى باكيةً؛ ورأيت اثنتين من الفتيات تبتعدان عن المجموعة وتهمس كل منهما للأخرى. تخيلت أنهما تنظران في اتجاهي خفية.

كانت الغرفة عابقة برائحة دخان السجائر. رأيت عقب سيجارة على الأرض. انحنيت والتقطته، مارلبورو أحمر! عندما وصل عنصر الأمن، سألنا إن كانت لدينا أي فكرة عمن قد يكون قد فعل ذلك في بيتنا. كان يعرف بوفاة ماغي. لكن... كان معظم أهل فلوريدا على علم بالأمر في ذلك الوقت.

جيسون... هكذا قلت في نفسي. لكني لم أستطع قولها بصوت مسموع.

قالت إحداهن: «قد يكون أحد أصدقائها! أو أخوها! إنه طالب في السنة الأخيرة، أليس كذلك؟».

نظر عنصر الأمن في أرجاء المكان، ثم قال: «لا بد لي من استدعاء الشرطة، هكذا هي الإجراءات، سأعود بعد دقيقة». خرج من البيت، لكني اعترضته قبل أن يصل إلى جهاز اللاسلكي في سيارته: «أرجوك،

لا تجعله يقع في أية مشكلة. إن كان الفاعل أخوها، جيسون... لا نريد أن يوجَّه إليه أي اتهام».

«أتظنين أنه هو؟».

أومأت برأسي: «بل أنا واثقة من ذلك».

تنهّد الرجل وقال: «خلع الباب واقتحام المكان، وتخريب الممتلكات... إنها فعلة خطيرة. عليكن، يا بنات، أن تبدأن إقفال الأبواب عليكن».

التفتّ ونظرت إلى بيتنا. إن جاء أحد وصعد السلم، فإن غرفتي ثاني غرفة إلى جهة اليسار.

من الممكن أن يزداد غضب جيسون إذا استجوبته الشرطة. وقد يعتبرني مسؤولة عن ذلك أيضاً.

جاءت الشرطة والتقطت صوراً وجمعت أدلة. وبعد ذلك، انتعلت حذائي حتى لا يجرحني الزجاج المتناثر على الأرض وبدأت أساعد الفتيات في تنظيف المكان. لكننا لم نستطع إزالة تلك الكلمات القبيحة عن الجدار، مهما حاولنا.

ذهبت مع بضع فتيات إلى متجر مواد البناء لشراء سطل طلاء.

رنّ هاتفي بينما كانت الفتيات تناقشن اختيار اللون. مددت يدي إلى جيبي. رأيت على شاشة الهاتف أن رقم المتّصل محجوب، وهذا يعني أن الاتصال آت من هاتف بحصالة. في اللحظة التي سبقت مباشرة قطع المكالمة، ظننت أنني سمعت صوتاً... صوت تنفس.

سألتني واحدة من الفتيات: «فانيسا، ما رأيك في هذا اللون؟».

كان جسدي متيبساً وفمي جافاً، لكني أفلحت في الإيماء برأسي والقول لها: «يبدو لي جميلاً». ثم ذهبت إلى ممر آخر في المتجر،

الممر الذي يعرض أقفالاً، اشتريت قفلين: قفل لباب غرفتي، وقفل آخر للنافذة.

في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، جاء اثنان من عناصر الشرطة إلى بيتنا. أبلغنا الأكبر سناً بينهما أن الشرطة استجوبت جيسون فاعترف بالجريمة.

قال الشرطي لنا: «كان ثملاً تلك الليلة. وهو آسف جدّاً لما فعله. إنه يحاول الآن ترتيب اتفاق مع المحكمة لكي يخضع لمعالجة نفسية».

قالت واحدة من الفتيات: «هذا جيد شريطة ألا يأتي إلى هذا المكان بعد الآن».

لن يأتي. كان ذلك جزءاً من الاتفاق. عليه أن يبقى بعيداً عن هذا المكان مسافة لا تقل عن مئة متر.

ظنت أخواتي أن الأمر قد انتهى. تفرقن بعد ذهاب الشرطيَّيْن، بعضهن إلى المكتبة والبعض الآخر إلى الصفوف أو إلى أصدقائهن.

بقيت في غرفة المعيشة أحدّق في الجدار ذي اللون البني الخفيف. لم أعد قادرة على رؤية تلك الكلمات، لكني كنت أعرف أنها لا تزال موجودة، وأنها ستظل موجودة دائماً.

ستظلّ موجودة مثلما ستظل دائماً تتردّد في رأسي.

أنتِ من قتلها.

كان مستقبلي يبدو واعداً بإمكانات كثيرة قبل ذلك الخريف. كنت أحلم بمدن يمكن أن أنتقل إليها بعد تخرّجي وأفكّر فيها كما لو أنني أحمل مجموعة بطاقات في يدي: سافانا، دِنفر، أوستن، سان دييغو. كنت أريد العمل في التعليم. كنت أريد السفر. كنت أريد بناء أسرة.

لكني بدلاً من الانطلاق صوب مستقبلي، بدأت أضع خططاً للفرار من الماضي.

كنت أعدّ الأيام الباقية حتى أصير قادرة على الفرار من فلوريدا. كانت نيويورك تدعوني إليها... تلك المدينة ذات الملايين الثمانية. كنت أعرف نيويورك من خلال زياراتي لخالتي شارلوت. هناك... يمكن لامرأة ذات ماضٍ معقّد أن تجد لنفسها بداية جديدة. كتب مؤلفو الأغاني عنها كلمات عاطفية حماسية، وجعلها الروائيون في مركز قصصهم، وكان الممثلون يعترفون بحبهم لها في مقابلاتهم التلفزيونية في آخر الليل. كانت نيويورك مدينة الإمكانات المفتوحة. كانت مدينة يمكن لأي شخص أن يختفي فيها.

ارتديت ثوبي الأزرق مع قبعته في يوم التخرج في شهر أيار من تلك السنة. كانت كليتنا كبيرة جداً، فتوزع الطلاب بعد انتهاء الكلمات الافتتاحية إلى مجموعات أصغر، بحسب اختصاصاتهم، لكي يستلموا الشهادات. وعندما خطوت على منصة مدرج بياجيه في «قسم التعليم»، نظرت إلى جمهور الحاضرين لكي أبتسم لأمي وخالتي شارلوت فلفت انتباهي شخص بينما كنت أبحث عنهما بين الناس: شاب أحمر الشعر كان واقفاً إلى جانب المحتشدين بعيداً من بقية الطلاب الخريجين رغم ارتدائه الثوب الأزرق اللامع نفسه.

إنه جيسون، شقيق ماغي.

«فانيسا؟». وضع عميد قسمنا بين يدي شهادتي الملفوفة على شكل أسطوانة، ولمع فلاش كاميرا. نزلت درجات المنصّة مرفرفة بعينيّ بسبب ضوء الفلاش، ثم عدت إلى مقعدي. كنت أشعر بعيني جيسون تحفران في ظهري طيلة ما بقي من تلك الأمسية.

نظرت في اتجاهه من جديد، عندما انتهت مراسم التخرج ، لكنه اختفى.

إلا أنني كنت أعرف ما يريد جيسون قوله لي. لقد ظل متقيداً بالشروط المفروضة عليه طيلة مدة سريانها، حتى التخرّج. لم يكن مسموحاً له أن يقترب مني في الجامعة حتى مسافة مئة متر. لكن، ما من قيود كانت مفروضة على ما يستطيع فعله بعد أن أغادر الجامعة.

بعد عدة شهور من تخرجنا، أرسلت ليزلي إلى عدد منا رابطاً إلى موقع إحدى الصحف على الإنترنت. لقد اعتُقل جيسون عندما ضُبط يقود السيارة وهو في حالة سكر. كانت أمواج أثر ما فعلتُه لا تزال تنتشر وتتسع. وعلى الرغم من ذلك، سرى في نفسي عندها شعور بالارتياح لما حدث له: لعل جيسون قد صار غير قادر على مغادرة فلوريدا للبحث عني.

لم أعرف عنه شيئاً بعد ذلك. لم أعرف إن كان قد ذهب إلى السجن أو خضع لإعادة التأهيل، أو توصّل من جديد إلى تسوية مع المحكمة من أجل الخروج من هذا الموقف. لكني كنت في المترو بعد سنة من ذلك؛ ولحظة إغلاق الأبواب، رأيت شخصاً نحيلاً له شعر أحمر... كان يجري مسرعاً بين الناس. نظرت إليه، ثم اندسست عميقاً بين ركاب عربة المترو محاولة الاختفاء عن نظره. قلت لنفسي وقتها إن رقم هاتفي باسم سامانثا، وإنني لم أستبدل برخصة قيادة السيارة رخصة جديدة من نيويورك. وإن أحداً لا يستطيع العثور على مستند يقوده إليّ لأنني أعيش في شقة مستأجرة.

ثم فاجأتني أمي بأن وضعت إعلاناً عن خطوبتي في صحيفة محلية في فلوريدا. حمل الإعلان اسمي واسم ريتشارد ومكان إقامتنا، فبدأت الاتصالات الهاتفية. لا كلمات... تنفّس فحسب... لا بد أن هذا جيسون يخبرني أنه قد وجدني... جيسون يخبرني أنه لم ينسَ القصة. كما لو أنني كنت قادرة على نسيانها!

لا أزال أرى ماغي في كوابيسي، لكن جيسون دخل أحلامي الآن وصرت أرى وجهه الذي شوّهه الغضب ويديه ممتدتين لكي تمسكا بي. كان هو السبب الذي جعلني أمتنع عن سماع الموسيقى الصاخبة عندما أمارس الرياضة. وكان وجهه هو الوجه الذي ظننت أنني أراه ليلة انطلق صوت الإنذار في بيتنا.

صرت شديدة الانتباه إلى كل ما يحيط بي. درّبت نفسي على استشعار أية نظرة في اتجاهي... وعلى ألّا أقع فريسة من غير انتباه. ذلك الإحساس بشيء يشبه الكهرباء الساكنة ينتشر على جلدي، وحركة رأسي الغريزية بحثاً عن زوج من العيون المحدقة... كنت أعتمد على علامات الإنذار تلك من أجل حماية نفسي.

لم أفكر في أي سبب آخر يمكن أن يكون قد جعل جهازي العصبي شديد الحساسية مباشرة بعد خطوبتي من ريتشارد. لماذا صار عندي هاجس تفقد الأقفال، ولماذا بدأت أتلقّى اتصالات صامتة من أرقام محجوبة، ولماذا دفعت ريتشارد بعيداً عني عندما ثبّتني خطيبي المحب المثير وراح يدغدغني عندما كنا نشاهد فيلم «المواطن كين»؟

يمكن لعلامات الإثارة والذعر أن تختلط على ذهن الإنسان.

لكني كنت أضع عصابة على عينَيّ!

الفصل الثلاثون

أخرج من محل ساكس للمرة الأخيرة، وأتجنّب عينَي الحارس الأمني عندما يتفقّد حقيبتي، ثم أبدأ السير في اتجاه شقة إيمّا. أحاول القول لنفسي إنني ذاهبة إليها للمرة الأخيرة أيضاً. سأتركها وشأنها بعد هذه المرة. سوف أنتقل إلى شيء آخر.

أنتقل إلى ماذا؟... هكذا كان عقلي يهمس لي.

أمامي على الرصيف، كان رجل وامرأة يسيران بيداً بيد. أصابعهما متشابكة، وحركتهما متناغمة. لو أردت تقييماً سريعاً لوضع علاقتهما لقلت إنهما سعيدان. عاشقان. لكن، بالطبع، هذان الشعوران ليسا متداخلين على الدوام.

أتأمّل كيف صاغت التصورات مجرى حياتي؛ كيف كنت أرى ما أريد رؤيته ـ ما أنا في حاجة إلى رؤيته ـ خلال تلك السنين التي عشتها مع ريتشارد. لعل كون المرء واقعاً في الحب يحمل معه شرط النظرة الانتقائية... لعل الأمر هكذا لدى كل إنسان!

كان في زواجي ثلاث حقائق، ثلاثة بدائل... وفي بعض الأحيان، ثلاث نسخ للواقع متنافسة في ما بينها. كانت هنالك حقيقة ريتشارد. وكانت هنالك حقيقتي. وكانت هنالك أيضاً الحقيقة الفعلية التي هي دائماً أصعب الحقائق تمييزاً. قد يكون الوضع هكذا في كل علاقة إذ

عادة ما يكون ريتشارد قادراً على أن يسبقني بخطوة، ولا بد الآن يعرف وجهتي على نحو التحديد. إنه في سيارة تاكسي. وهو يحاول الوصول إلى إيمّا قبلي.

لم تبلغ الساعة منتصف النهار بعد؛ ولا تزال حركة السير خفيفة. أقدّر أن سيارة التاكسي ستستغرق خمس عشرة دقيقة من مكتب ريتشارد إلى شقة إيمّا، لكني أقرب منه إليها: كانت رحلتي إلى متجر ساكس في اتجاه شقتها نفسه. لا أبعد عنها إلا عشر بنايات. إذا أسرعت، فقد أسبقه. أزيد من سرعة خطواتي وأتلمّس الرسالة في محفظتي. لا تزال موجودة. أشعر بالنسيم بارداً على جسدي الذي بدأ يتعرّق.

«أنت مجنونة». أتجاهل هذا لأن سماع تلك الكلمات منه ما عادت لها قدرة على إحباط عزيمتي... «هل قلت لها إنك قبّلتني الليلة الماضية؟».

يصيح في الهاتف: «ماذا؟ أنت التي قبلتني!».

تضطرب خطواتي لحظة، ثم أتذكّر ما قلته لإيمّا عندما واجهتها أول مرة: ريتشارد يفعل هذا: إنه يخلط الأشياء بحيث لا نعرف الحقيقة!

اقتضاني إدراك هذه الحقيقة سنوات عدة. ولم أتوصّل إلى إدراك وجود نموذج متكرّر لسلوكه إلا بعد أن بدأت أدوّن الأسئلة التي ترهق دماغي.

بدأت ذلك بعد نحو سنة من وفاة أمي. بدأت أكتب يوميات سرية أخبئها تحت فراش السرير في غرفة نوم الضيوف. كنت أسجل في دفتري ذي الغلاف الجلد المقوّى أشياء قالها ريتشارد من الممكن تفسيرها بعدة طرق. وصرت أسجل الثغرات والهفوات المفترضة في ذاكرتي ـ تلك الأشياء غير المنسجمة أبداً من قبيل تصريحي عن رغبتي في العيش في بيت في الضواحي (لم أقل هذا أبداً). أو ذلك الصباح بعد حفلة توديع العزوبية عندما نسيت أن ريتشارد كان مسافراً إلى أتلانتا ـ

إضافة إلى أشياء أصغر منها، كقولي ـ كما أكد لي ـ إنني أردت تلقي دروس في الرسم، أو ظني أن طبق لحم الخروف من الأطباق المفضلة لدى ريتشارد.

كنت أيضاً أوثّق بدأب الأحاديث المثيرة للقلق التي ما كنت قادرة على سؤال زوجي عنها... مثلاً، كيف عرف أنني ذهبت لرؤية أحد غير خالتي عندما ارتحلت سراً إلى المدينة. سجلت بعض ما جرى من كلام خلال ذلك اللقاء السرّي الأول. بعد تقديم اسمي للمرأة ذات المظهر المتعاطف التي أدخلتني إلى غرفة مكتبها، أشارت لي بأن أجلس على أريكة مقابل حوض فيه أسماك كثيرة ملونة. جلست على كرسي مرتفع الظهر على يساري وقالت لي أن أخاطبها باسم كيت. سألتني: ما الذي تحبّين الحديث عنه؟ فأجبتها: يقلقني أحياناً أنني لا أعرف زوجي على الإطلاق. سألتني قبيل نهاية كلامنا: هل يمكنك إخباري بالسبب الذي يجعل ريتشارد يحاول إفقادك توازنك؟ ما الدافع الذي قد يكون لديه لفعل ذلك؟

هذا ما كنت أحاول أن أحزر أسبابه خلال تلك الأيام الطويلة الفارغة عندما يكون ريتشارد في عمله. كنت أخرِج دفتري وأفكر كيف بدأت تأتيني تلك المكالمات الهاتفية الصامتة بعد وقت قصير جداً من خطبتنا، وكيف أن تلك المكالمات لا تأتي إلا عندما لا يكون ريتشارد موجوداً. كتبت في الدفتر أنني واثقة من إخباري ريتشارد بأنني كنت نادمة على إصراري على أن تضع ماغي عصابة العينين. وكنت واثقة أيضاً من أنني أوضحت له أن ذلك الأمر التفصيلي تحديداً (جعلها تعصب عينيها) كان مزعجاً لي على نحو خاص. فلماذا أعطاني قناعاً للعينين عندما قاد بي السيارة إلى بيتنا الجديد؟ سجّلت في الدفتر أيضاً اكتشافي أن التمثال الصغير الذي كان على كعكعة زواجنا كان مصنوعاً بعد سنين من زواج والدَيْ ريتشارد. كانت الكلمات على صفحات دفتري مبقّعة في بعض

لكني لا أمانع في هذا طالما أنه مستمر في الكلام. يجب أن أجعله يظل معي على الهاتف حتى لا يحذّر إيمّا من أنني قادمة إليها.

أستفزه قائلة: «هل أخبرتها عن العقد الماسي الذي قدمته لي؟ وهل تظن أن عليك أن تشتري لها واحداً مثله ذات يوم؟».

أعرف أن هذا السؤال يعادل إلقاء قنبلة في اتجاهه عبر سيارة التاكسي، وهذا ما أقصده تماماً. أريد إثارة غضبه. أريد أن يشد قبضتيه وأن تضيق عيناه. بهذه الطريقة، وإذا استطاع الوصول إلى إيمّا قبلي، فسوف تفهم آخر الأمر ما هو ماهر في إخفائه. سوف ترى قناعه.

أسمعه يصيح مخاطباً سائق السيارة: «ماذا بك، كان عليك أن تسرع حتى لا نقف على الإشارة الحمراء». أتخيله متجمّعاً على حافة مقعد السيارة من خلف سائقها.

أسأله من جديد: «هل قلت لها؟».

أسمع أنفاسه متقطعة. أعرف من خلال تجربتي أنه موشك على فقدان السيطرة على نفسه... «لن أشاركك هذا الكلام السخيف. إذا اقتربت منها مرة أخرى فسوف أجعلك تدخلين السجن».

أضغط على زر إنهاء المكالمة. أفعل ذلك لأنني صرت قبالة شقة إيمّا.

لقد قسوت عليها كثيراً. لقد استفدت من براءتها.

تماماً مثلما لم أكن الزوجة التي ظنّها ريتشارد، لم أكن أيضاً المرأة التي ظنّتها إيمّا.

في ليلة أول لقاء لي مع بديلتي في حفلة عطلة المكتب، نهضتْ من

خلف مكتبها في بدلتها الحمراء الفاقعة. ابتسمت لي تلك الابتسامة العريضة المرحّبة، ثم مدت يدها.

كان ذلك الحفل أنيقاً مثل كل شيء في عالم ريتشارد: جدار زجاج مشرف على مانهاتن. وطبق سيفيتشي[1] فيه ملاعق صغيرة كثيرة حتى يستخدم كل شخص واحدة منها لتذوّقه. وقطع صغيرة من لحم الخروف المتبل بالنعناع يقدمها نُدُل في بدلات رسمية سوداء. طاولة عليها مأكولات بحرية ومن خلفها امرأة تفتح للضيوف محار كوماموتو المملّح. موسيقى كلاسيكية تعزفها مجموعة من أربعة موسيقيين.

اتجه ريتشارد إلى البار حتى يحضر لنا كؤوس الشراب. سأل إيمّا: «فودكا بالصودا مع قطعة ليمون؟».

«أنت تتذكّر هذا!». تبعته عيناها وهو متجه إلى البار.

بدأ الأمر كله في تلك اللحظة: كان مستقبل جديد قد بدأ يتجسّد تحت ناظريَّ.

خلال الساعات القليلة التي أعقبت ذلك، كنت أشرب رشفات من الماء المعدني وأتبادل أحاديث مهذّبة مع زملاء ريتشارد. هيلاري وجورج كانا حاضرَيْن، لكن هيلاري بدأت منذ ذلك الوقت تضع مسافة بيني وبينها.

طيلة تلك الليلة كنت أحس بطاقة ممتدة بين زوجي ومساعدته. لم يكن ذلك تبادلاً لابتسامات خاصّة سرّية بينهما أو وقوفهما جنباً إلى جنب في مجموعة واحدة تتجاذب أطراف الحديث. كان سلوكهما طبيعياً من حيث الظاهر، لكني رأيت عينيه تطيران إليها كلما انطلقت ضحكتها العميقة. كنت أحس بانتباه كل منهما منشدّاً إلى الآخر؛ كان

---

(1) طبق من أميركا الجنوبية مؤلف من لحم السمك النيء المتبل. وهو يقدم كنوع من المقبلات.

ذلك رابطة ملموسة لامعة تربط بينهما عبر الصالة كلها. وفي نهاية الحفل، طلب ريتشارد لها سيارة تاكسي لكي تصل إلى بيتها بأمان على الرغم من اعتراضها بالقول إنها قادرة على إيقاف أي سيارة تاكسي في الشارع. خرجنا كلنا معاً وانتظرنا إلى أن أتت سيارة التاكسي الفاخرة التي طلبها لها قبل أن نتوجّه إلى سيارتنا.

قلت لريتشارد: «إنها لذيذة».

«إنها ممتازة في عملها».

عندما وصلت إلى البيت مع ريتشارد عائدَيْن من احتفال المكتب، بدأت أصعد السلم إلى غرفة النوم متلهفة على خلع جوربي الطويل الذي كان مطاطه يحز بطني. أطفأ ريتشارد مصباح الممر وتبعني إلى الأعلى. لحظة توقفي في غرفة النوم، أدارني ريتشارد بحيث صار وجهي إلى الجدار وراح يقبل رقبتي من الخلف ويضغط بجسده على جسدي. كان منتصباً منذ تلك اللحظة.

عادة ما يكون ريتشارد عاشقاً رقيقاً مراعياً. وفي فترات ماضية، كان يمضي متمهّلاً، يتذوقني كأنني وجبة من خمسة أطباق متتالية. أما في تلك الليلة، فقد أمسك بيديَّ الاثنتين، ثم استخدم يداً واحدة لتثبيتهما على الجدار فوق رأسي. وبيده الأخرى، أنزل الجورب. سمعت صوت فرقعة فأدركت أن الجورب قد تمزق. شهقت عندما ولجني من الخلف. لقد مر زمن طويل، ولم أكن مستعدة لهذا. استمر في اختراقي وأنا أحدق في ورق جدران غرفة نومنا المخطط. ثم بلغ الذروة سريعاً وترددتْ في الغرفة أصداء أنينه الخشن. ظل مستنداً إلى جسدي، لاهثاً، ثم أدارني وقبلني قبلة واحدة على شفتي.

كانت عيناه مغمضتين. لا أعرف أي وجه كان يرى في تلك اللحظة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع، رأيتها مرة أخرى عندما أتت إلى حفل

يمكنكم تسميته «حدس الزوجة». ذهبت إلى المدينة بعد بضعة أسابيع من ذلك. أردت إلقاء نظرة أخرى على إيما. جلست في الباحة التي أمام بناية المكتب حاجبة وجهي بصحيفة. ذلك هو اليوم الذي رأيت فيه ريتشارد يضع يده بلطف على ظهر بديلتي ويفتح لها الباب وهما خارجان. كانت في فستان زهري متورّد متناسب تماماً مع احمرار وجنتيها وهي ترفع رأسها وتنظر إلى زوجي من تحت أهداب عينيها.

كنت قادرة على مواجهتهما في تلك اللحظة. أو كان يمكنني أن أناديهما متظاهرة بالحماسة والبهجة، وأن أقترح عليهما أن نتناول الغداء معاً. لكني اكتفيت بالنظر إليهما وهما ذاهبان.

أجد نفسي الآن أضغط بسرعة على مفاتيح الإنترفون كلها عند مدخل بناية إيمّا آملة أن يفتح لي أحدٌ ذلك الباب. أسمع أزيز القفل بعد ثانية واحدة. فأندفع داخلة عبر الردهة الصغيرة المتواضعة. ألتفت إلى صف صناديق البريد فأرى اسمها ورقم شقتها مكتوبين على واحد منها: الطابق الخامس، الشقة ج. أصعد السلم جرياً وأنا أتساءل إن كانت ستحمل اسم عائلة ريتشارد. هل سيصير ذلك الاسم رابطاً بيني وبينها أيضاً؟

أقف أمام شقتها وأدق الباب بقوة.

أسمع صوتها تصيح: «من الطارق؟». أقف متنحّية عن الباب قليلاً حتى لا تستطيع رؤيتي عبر منظاره. إذا عرفت إيمّا صوتي فقد لا تقرأ رسالتي. وهكذا أدفع المغلف عبر الشق تحت الباب. أنظر إليه يختفي، ثم أستدير وأمضي مسرعة في اتجاه السلم آملة في الخروج قبل وصول ريتشارد.

يحلق ذقنه في تلك اللحظة، فتوقف قليلاً ونظر إليَّ ملياً: «لم تقترحي عليَّ أبداً تقديم أي شيء لديان».

هززت كتفي وتناولت فرشاة أسناني. قلت له محاولة التغطية على الأمر: «أظنني أجد نفسي شبيهة بإيمّا. ديان متزوّجة ولها أسرة. إيمّا تذكّرني بنفسي عند مجيئي إلى نيويورك. وأظن بأن هذه الهدية ستكون فعالة جداً في جعلها تشعر بنفسها موضع تقدير.

«فكرة حسنة».

تنفّست الصعداء، لكن بحذر.

تخيّلتها تفتح المغلف وتخرج منه بطاقة الهدية فيرتفع حاجباها لتلك المفاجأة. ربما تدخل مكتبه لكي تشكره. ربما تأتي إلى المكتب بعد بضعة أيام مرتدية الفستان الذي اشترته بتلك البطاقة حتى يراه.

كانت تلك مغامرة كبيرة. حاولت مواصلة برنامجي المعتاد. لكن كنت مفعمة حماسة. صرت أجد نفسي أسير في البيت من غير توقّف. تبخّرت شهيتي وانخفض وزني. كنت أستلقي صاحية إلى جانب ريتشارد أراجع خطتي في عقلي وأبحث عن ثغراتها ونقاط ضعفها. كنت تواقة إلى استعجال الأمر، لكني أرغمت نفسي على الالتزام بالوقت الذي حدّدته. كنت مثل صياد كامن ينتظر وصول فريسته إلى المكان المطلوب.

جاءتني فرصة كبيرة عندما اتصلت بي إيمّا من دالاس ذات مساء وقالت إن ريتشارد مضطر إلى القدوم في رحلة جوية متأخرة لأن اجتماعه طال كثيراً.

كنت أصلّي لكي تأتيني فرصة كهذه الفرصة. وكان كل شيء متعلقاً بما سيحدث بعد ذلك. لا بد لي من أن ألعب دوري على أكمل وجه. لا يمكن أن تتخيّل إيمّا أنني أبني بيتاً من أوراق اللعب

يمكن أن ينهار عند أي خلل وأنني موشكة على وضع الورقة الأخيرة في مكانها.

قلت لها: «يا للمسكين! إن عمله مرهق حقاً. لا بد أنه مستنزف الآن».

«أعرف. إن لهذا العميل مطالب لا تنتهي!».

«وأنت أيضاً تعملين كثيراً...». قلت هذا كأن فكرة خطرت على ذهني في تلك اللحظة فقط... «ليس ريتشارد مضطراً للاستعجال. لماذا لا تقترحي عليه تناول عشاء هادئ وإجراء حجز في فندق لقضاء هذه الليلة؟ تعالا غداً صباحاً. سيكون هذا أكثر سهولة لكِ وله»... أرجوك، التقطي الطعم!

«هل أنت متأكّدة يا فانيسا؟ أعرف أنه يريد العودة سريعاً من أجلك».

«أنا مصرّة...» تظاهرت بالتثاؤب... «سأقول لك الحقيقة: أنا راغبة في الاسترخاء تماماً ومشاهدة فيلم تافه في التلفزيون، أما ريتشارد فسيكون راغباً في أن يحدثني عن العمل».

الزوجة البليدة الكسول! هكذا أردتها أن تراني.

يستحق ريتشارد أفضل من هذا، أليس كذلك؟ يستحق ريتشارد امرأة تعرف كيف تقدّر تعقيدات عمله، وتعرف كيف تعتني به بعد يوم شاق... امرأة لا تجعله يشعر بالحرج أمام زملائه... امرأة توّاقة كل التوق إلى أن تكون معه كل ليلة.

امرأة مثلها تماماً.

أرجوك!... هكذا قلت في نفسي من جديد.

أجابتني إيمّا آخر الأمر: «سوف أقول له هذا، وإذا وافق فسوف أخبرك بتوقيت وصولنا غداً فور تأكيد حجز الطائرة».

«شكراً لك».

عندما أنهيت المكالمة، أدركت أنني، وللمرة الأولى منذ زمن بعيد، كنت أبتسم.

لقد وجدت بديلتي المناسبة تماماً. سرعان ما يهيم ريتشارد بها حباً فأصير حرة أخيراً.

ما كان أحد منهما يعرف ما رتّبته. لا يزالان جاهلين بما رتّبته لهما!

الجزء الثالث

الفصل الحادي والثلاثون

أنزل درجات السلم مسرعة فأنزلق عندما ألتفّ عند زاوية الطابق الثالث. يصطدم وركي بحافة إحدى الدرجات قبل أن أتمكّن من إمساك درابزين السلم ويشعّ الألم في جانب جسدي الأيسر كله. أشد نفسي حتى أقف، وأتابع نزولي السريع من غير توقّف تقريباً. إن قرّر ريتشارد استخدام السلم بدلاً من المصعد، فسوف يصطدم أحدنا بالآخر.

تجعلني تلك الفكرة أزيد من سرعتي. ينتهي السلم فأندفع إلى الردهة تماماً في اللحظة التي أرى فيها أبواب المصعد تنغلق. أتمنى أن أقف لكي أراقب الأرقام الوامضة فوق باب المصعد إن كان سيتوقف عند طابق إيمّا. لكني لا أستطيع المغامرة حتى بثوانٍ قليلة لكي أتأكد.

أطير إلى الشارع فأرى سيارة تاكسي تبدأ بالابتعاد عن الرصيف. أضرب على مؤخرة السيارة بكف يدي فيومض مصباح الفرملة الأحمر.

أدخل السيارة، ثم أقفل الباب من خلفي قبل أن أنهار على المقعد. أفتح فمي لكي أعطي السائق عنوان شقة خالتي شارلوت. لكن الكلمات تعلق في حنجرتي.

رائحة الليمون تحيط بي. أحسها تتخلل شعري وتخترق جلدي. أستطيع الإحساس بنفحات الليمون الحادة تغزو منخريَّ وتتغلغل نازلة حتى رئتيّ. لا بد أن ريتشارد قد خرج من هذه السيارة قبل لحظات فقط.

كلما كان مهتاجاً، فتقسو ملامحه وتتوتّر ويختفي الرجل الذي أحببته ـ كلما ازدادت رائحة الليمون شدة.

أود أن أفر من جديد، لكني لا أستطيع تحمل انتظار سيارة تاكسي أخرى. لهذا، أفتح النافذة إلى أقصى حد ممكن وأنا أخبر السائق بوجهتنا.

رسالتي من صفحة واحدة، لا أكثر. ولن تُمضي إيمّا في قراءتها أكثر من دقيقة واحدة. آمل أن تفرغ من قراءتها قبل أن يفلح ريتشارد في بلوغ بابها.

ينعطف السائق في الشارع التالي فأسند رأسي إلى المقعد بعد إلقاء نظرة أخيرة من النافذة حتى أتأكّد من أن ريتشارد لا يتبعني. أسأل نفسي كيف سهوت عن ذلك الخلل في خطتي للفرار من زوجي. كان لديَّ وقت طويل لصياغتها؛ فبعد احتفال عطلة المكتب السنوية، صار هذا الأمر عملي الوحيد، ثم صار هاجسي. لقد كنت في غاية الانتباه، لكني ارتكبت أسوأ غلطة ممكنة في حساباتي.

لم أفكر في أنني أضحّي بامرأة شابة بريئة. ولم أكن قادرة إلا على التفكير في العثور على مهرب لي. كدت أتخلّى عن كل أمل في أن هذا قد يكون ممكناً إلى أن أدركت أنه لن يتركني إلّا إذا كان مقتنعاً بأن الفكرة فكرته.

كنت واثقة من هذا نتيجة ما فعله بي من قبل عندما ظن أنني كنت أحاول تركه.

لقد بدأت الانسحاب من زواجي قبيل حفلة آلفين آيلي. كنت لا أزال صغيرة قوية، نسبياً. لم أكن محطمة بعد.

بعد الحفلة مباشرة، عندما واجهني ريتشارد في المطبخ ثم نظر إلى معصم يدي اليمنى الذي كان يبيض لونه تحت ضغط أصابعه القوية. بدا

لي أنه غير مدرك حقيقة أنه كان يلوي معصمي؛ كما لو أن شخصاً غيري قد أطلق صرخة الألم تلك التي تشبه صيحة طائر، تلك الصرخة التي أفلتت من شفتي.

لم يؤذني ريتشارد قبل تلك الليلة. لم يؤذني جسدياً، على الأقل.

كان في بعض الأحيان يتوقف عند الحافة تماماً... يتوقّف عند ما صرت الآن أعرف أنه الحافّة. لقد سجّلت كل حادثة من تلك الحوادث في دفتري ذي الجلد الأسود: في سيارة التاكسي بعد أن قبّلت نيك في حفلة توديع العزوبية، وفي مطعم سفوغليا عندما قدم لي رجل كأس شراب على البار؛ وفي الليلة التي واجهت ريتشارد فيها بمسألة اختفاء ديوك. كانت هنالك أوقات أخرى اقترب فيها من الحافة أكثر من ذلك. رمى ذات مرة صورة زفافنا على الأرض فتناثرت شظايا الزجاج وراح يتهمني اتهامات شنيعة. قال إنني كنت أغازل مدرب الغطس إريك خلال شهر عسلنا. «رأيته يتوقّف عند باب غرفتنا». هكذا صاح بي ريتشارد فتذكّرت كيف تركت أصابعه كدمات على أعلى ذراعي عندما أمسك بي ليساعدني في الخروج من القارب. وفي وقت آخر، بعد فترة بسيطة من زيارتنا إلى طبيبة الخصوبة، أي عندما اضطر إلى تضييع عميل كبير، صفق ريتشارد باب مكتبه بقوة شديدة جعلت المزهرية تسقط عن الرف.

لقد أمسك بي من ذراعي بهذه الطريقة في عدة مناسبات أخرى وضغط عليها بقوة شديدة. خفضت عينيَّ عندما كان يستجوبني ذات مرة في ما يتعلق بالشرب، فأمسك بذقني ورفع رأسي إلى الأعلى حتى يرغمني على النظر إليه.

كنت في هذه المناسبات كلّها قادرة على احتواء غضبه فينسحب إلى غرفة نوم الضيوف أو يخرج من البيت ولا يعود إلا بعد أن يهدأ غضبه.

في ليلة حفلة ألفين آيلي، بدا لي أول الأمر كما لو أن صيحتي الحادة قد لمست شيئاً في نفسه.

قال لي وهو يترك معصمي: «إنني آسف». تراجعت خطوة إلى الخلف. مرر أصابعه في شعره وأطلق زفيراً بطيئاً، ثم قال: «لكن، لماذا كذبتِ عليّ؟».

همست من جديد: «خالتي شارلوت. أقسم أنني لم أذهب إلّا إليها».

ما كان يجب أن أقول هذا. لكني كنت قلقة من أن يقودني إقراري بأنني ذهبت إلى أحد ما للحديث عن زواجنا إلى مزيد من انفجارات غضبه أو إلى طرح أسئلة ما كنت مستعدة للإجابة عليها.

أدت كذبتي المكرّرة إلى جعل شيء يفلت في داخلي. ما عاد قادراً على إمساك نفسه.

كان صوت اصطدام كفه بخدي أشبه بصوت طلقة بندقية. سقطتُ على الأرض الصلبة. غلبت الصدمة ألمي بضع لحظات وأنا راقدة على الأرض في فستاني الفاخر الذي قدمه لي، ذلك الفستان الذي صار مكرمَشاً حول ساقي.

وضعت يدي على خدي ونظرت إليه واقفاً فوقي: «ماذا... كيف يمكنك أن...».

مد يده إليَّ فظننت أنه سيساعدني في النهوض على قدمي، وظننت أنه سيطلب الصفح مني ويقول إنه أراد أن يضرب الخزانة التي خلفي.

إلا أن أصابعه قبضت على شعري وشدتني إلى أعلى.

صرت واقفة على رؤوس أصابعي وارتفعت يداي إلى يده الممسكة بشعري حتى يتركني. شعرت كما لو أنه ينتزع جلدة رأسي. انفجرت دموعي وقلت متوسلة: «توقف، أرجوك».

تركني، لكنه انحنى صوبي وثبتني على حافة منضدة المطبخ. لم يكن يؤلمني في تلك اللحظة، لكني عرفت أنها أكثر اللحظات خطراً في تلك الليلة. أكثر اللحظات خطراً في حياتي.

تقلّص شيء في وجهه، وصارت عيناه الضيقتان قاتمتي اللون. لكن صوته كان مخيفاً أكثر. إنه ذلك الجزء منه الذي لا أزال أذكره... الصوت الذي كان يهدئني في ليالٍ كثيرة... الصوت الذي أقسم أن يحبني ويحميني.

«عليك أن تتذكّري أنني معك دائماً، حتى عندما لا أكون هنا».

ظل برهة يحدّق في عيني.

ثم عاد زوجي إلى الظهور. تراجع خطوة إلى الخلف وقال: «عليكِ الآن أن تذهبي إلى السرير يا نيللي».

في صبيحة اليوم التالي، أتى ريتشارد بصينية الفطور إلى السرير. لم أكن قد نمت ليلتها، ولم أتحرّك من فراشي.

حافظت على هدوء صوتي واعتداله عندما قلت له: «شكراً». كنت خائفة من إغضابه مرة أخرى.

وقع نظره على معصمي الأيمن الذي كانت الكدمات قد ظهرت عليه. خرج من الغرفة، ثم عاد حاملاً كيساً من قطع الثلج. ومن غير أن يقول أية كلمة، وضع الكيس على تلك الكدمات.

«سوف أعود في وقت مبكر يا حبيبتي، وسوف آتي بطعام للعشاء».

أكلت الغرانولا[1] والفراولة من غير اعتراض. صحيح أن أي أثر

---

(1) غرانولا: نوع من أنواع وجبات الفطور الجاهزة مؤلف من الشوفان والسكر البني أو العسل مع الفاكهة المجفّفة والمكسرات.

للصفعة لم يكن ظاهراً على وجهي إلا أن فكي كان شديد الحساسية، وكان مضغ الطعام يؤلمني. نزلت إلى الأسفل وغسلت الطبق. أطلقت صرخة ألم صغيرة عندما فتحت باب آلة غسل الأطباق بيدي المصابة.

رتبت السرير، وحرصت على عدم إجهاد معصمي عندما أدخلت أطراف الملاءة تحت زوايا الفراش. دخلت إلى الحمام، وأجفلت عندما سقط رشاش الماء ثقيلاً على رأسي. ما كنت قادرة على احتمال غسل شعري بالشامبو ولا على تجفيفه، فتركته رطباً. عندما فتحت باب خزانة ملابسي، وجدت فستان ألكساندر ماكوين الذي ارتديته معلقاً بكل عناية. لم أتذكّر كيف خلعته... بل إن بقية تلك الليلة كلها كانت غائمة. لم أتذكّر شيئاً غير إحساسي بأنني كنت أحاول الانكماش على نفسي... بأنني كنت راغبة في أن أصير صغيرة الحجم إلى أقصى حد ممكن كأنني أريد جعل نفسي غير مرئية.

تجاوزت ذلك الفستان وأخرجت ملابس أخرى: بنطلون طويل وجوارب ثقيلة وقميص طويل الكمين ووشاح دافئ. كانت حقائبي ظاهرة في الرف العلوي. رحت أنظر إليها.

كان من الممكن في تلك اللحظة أن أحزم بعض أمتعتي وأخرج من البيت. كان من الممكن أن أحجز غرفة في فندق أو أذهب إلى بيت خالتي. كان من الممكن أيضاً أن أتصل بسامانثا رغم أن أي تواصل لم يجرِ بيننا منذ زمن بعيد، منذ أن اتسع الصدع الذي قام بيننا. لكني كنت أعرف أن ترك ريتشارد ليس بتلك السهولة.

عندما خرج من البيت في ذلك الصباح، سمعت أصوات الطنين التي تعني أن ريتشارد كان يشغل نظام الإنذار. وبعد ذلك، سمعت صوت إغلاق باب البيت من خلفه.

انتبه الرجل فأبعد عينيه سريعاً وقال: «هذا لك». ثم ناولني الكيس.

«كنت ألعب التنس. وقد وقعت».

رأيت ارتياحاً يظهر في نظرة عينيه. لكنه استدار والتفت إلى الثلج الذي غطى كل شيء في الحديقة. أغلقت الباب سريعاً.

فككت رباط الكيس فرأيت فيه علبة. عندما رفعت غطاء العلبة، وجدت فيها سواراً ذهبياً من تصميم فيردورا. كان عرض السوار لا يقل عن خمسة سنتيمترات.

مددت يدي إلى العلبة ورفعت السوار منها. من الممكن لهذا السوار الذي أرسله ريتشارد أن يغطي الندوب القبيحة التي على معصمي تغطية كاملة.

قبل أن تسنح لي فرصة اتخاذ قرار إن كنت سأتمكن من لبس ذلك السوار في يوم ما، تلقينا المكالمة الهاتفية التي أخبرتنا أن أمي توفيت.

خلال سنين كثيرة، كنت أسمح للخوف بالسيطرة عليّ. لكني أحسست بمشاعر أخرى تطفو إلى السطح بعد أن جلست في سيارة التاكسي: إنه الغضب! شعرت بأن من المريح لنفسي أن أفلت غضبي على ريتشارد بعد أن ظللت زمناً طويلاً جداً أحاول امتصاص غضبه.

كنت أخنق مشاعري خلال فترة زواجنا. كنت أنوّمها بالكحول وأدفنها بالنكران. كنت كأنني أسير على أطراف أصابعي من حول تقلبات مزاج زوجي آملة أن أستطيع ضبط المناخ المهيمن في بيتنا إذا خلقت بيئة سارّة بهيجة إلى الحد الكافي، إذا قلت الأشياء الصحيحة، وإذا فعلت الأشياء الصحيحة... تماماً مثلما كنت أضع رسمة الشمس المبتسمة في صفّي في روضة الأطفال.

كنت ناجحة في ذلك أحياناً وكانت مجموعة مجوهراتي ـ كان سوار فيردورا القطعة الأولى من بين مجموعة قطع قدمها لي ريتشارد بعدما أطلق عليه اسم «سوء التفاهم بيننا» ـ تذكّرني بالأوقات التي لم أكن فيها كذلك. لم أفكّر في أخذ هذه القطع معي عندما رحلت. حتى إن بعتها، فسوف يكون المال الذي أتلقاه ثمناً لها ملوثاً أيضاً.

خلال زواجي كلّه، وحتى بعد زواجي، كانت كلمات ريتشارد تتردّد في عقلي فتجعلني أشك في نفسي دائماً وتحد من قدرتي على الفعل. لكني أتذكّر الآن ما قالته لي خالتي شارلوت هذا الصباح: أنا لا أخاف العواصف لأنني أتعلم كيف أبحر فيها.

أغمض عينَيَّ وأستنشق هواء شهر يونيو المتدفّق عبر نافذة السيارة... تيار الهواء الذي كان يزيل أثر رائحة ريتشارد.

ليس كافياً أنني قد هربت من زوجي. وأعرف أن تمكّني من إيقاف هذا الزواج لن يكون كافياً أيضاً. حتى إذا تركتْ إيمّا ريتشارد، فأنا واثقة من أنه سينتقل إلى شابة أخرى، سينتقل إلى بديلة أخرى.

ما يتعين عليَّ فعله هو العثور على طريقة لإيقاف ريتشارد.

أين هو الآن، في هذه اللحظة تحديداً؟ أراه يضم إيمّا، يحيط بها، ويقول لها إنه آسف لأن زوجته السابقة تستهدفها. يأخذ الورقة من يدها ويقرأها سريعاً، ثم يكرمشها بين أصابعه حتى تصير كرة صغيرة. إنه غاضب ـ لكن، لعلها تظن أن أفعالي تبرر غضبه. إلا أن أملي أن أكون قد أقنعتها بإعادة تفحّص ماضيهما معاً والنظر إلى تاريخهما بعين جديدة. لعلها تتذكّر الآن المرات التي بدت لها فيها ردود أفعال ريتشارد غريبة بعض الشيء... تلك اللحظات التي تتكشّف فيها حاجته إلى كبح جماح نفسه.

فما هي خطوته التالية؟

سوف ينتقم مني.

أفكر لحظة، ثم أفتح عيني وأنحني إلى الأمام.

أقول لسائق التاكسي الذي يأخذني إلى شقة خالتي شارلوت: «لقد غيّرت رأيي. عليَّ أن أذهب إلى مكان آخر». أفتش على العنوان في هاتفي وأقرأه للسائق.

تنزلني السيارة أمام فرع سيتي بنك في مركز المدينة. إنه الفرع الذي فيه حسابات ريتشارد المصرفية.

عندما ترك لي ريتشارد ذلك الشيك، قال لي أن أستخدم المال للحصول على مساعدة. بل إنه أخبر المصرف أيضاً بأنني سأسحب المبلغ. لكني أظهرت له من خلال إرسالي صورة ديوك ومن خلال رسالتي إلى إيمّا أنني لن أختفي من حياته بهدوء مثلما يريد.

أظنه سيحاول اليوم إيقاف صرف هذا الشيك. هكذا سيبدأ ريتشارد معاقبتي. وستكون هذه طريقة سهلة لإفهامي بأنه لن يتسامح تجاه رفضي الخضوع له.

هذا يعني أن عليَّ صرف الشيك قبل أن تسنح له فرصة تغيير رأيه.

أجد شبّاكين خاليين من العملاء. واحد فيه شاب في قميص أبيض وربطة عنق. والآخر فيه امرأة في أواسط العمر. أقترب من شباك المرأة رغم أن الشاب كان هو الأقرب إليّ. تستقبلني بابتسامة ترحيب. اسمها ظاهر على البطاقة: بيتي.

أخرج شيك ريتشارد من محفظتي وأقول لها: «أريد أن أصرف هذا الشيك».

تومئ برأسها ثم تنظر إلى الرقم المكتوب على الشيك فيتغضن حاجباها وتسألني: «هل تريدين المبلغ نقداً؟». تنظر إلى الشيك من جديد.

«نعم». تبدأ قدمي بقرع الأرض فأوقفها. يقلقني احتمال أن يتصل ريتشارد بهم وأنا واقفة هنا.

«هل يمكنك التفضل بالجلوس؟ أظن من الأفضل أن يساعدك مديري في هذا الأمر».

ألقي نظرة إلى يدها. ليس في إصبعها خاتم زواج.

ليس من الصعب أن تتفادى الأسئلة إذا تعلّم المرء الحيل اللازمة لذلك. ارو قصصاً مختلقة ملونة تحرف الانتباه عن حقيقة أنك لا تعطي أية معلومات. تجنّب الأشياء المحدّدة. كن غامضاً. اكذب، لكن فقط عندما يكون ذلك ضرورياً.

أنحني مقتربة من شبّاكها إلى أقصى حد ممكن: «انظري يا بيتي... واو، إن هذا... أعني، كان هذا، اسم أمي. كانت وفاتها قبل فترة قصيرة». هذه كذبة ضرورية.

«يؤسفني سماع هذا». تعبير وجهها متعاطف. لقد اخترت الموظفة المناسبة.

«سوف أكون صادقة معك...». أتوقف لحظة... «إن زوجي، السيد ثومبسون، يطلّقني».

تكرر عبارتها: «يؤسفني سماع هذا».

«نعم، يؤسفني أنا أيضاً. سوف يتزوج هذا الصيف». أبتسم لها ابتسامة حزينة... «على أية حال، هذا الشيك منه. وأنا أريد أن أحصل على المال لأنني أحاول استئجار شقة. لقد انتقلت خطيبته الشابة الجميلة للسكن معه منذ الآن». خلال كلامي، أتخيل صورة ريتشارد ممسكاً بهاتفه وهو يطلب رقم المصرف.

«المسألة هي أن المبلغ كبير».

«ليس كبيراً بالنسبة إليه. وكما ترين، إن لنا اسم العائلة نفسه...». أخرج رخصة قيادة السيارة من حقيبتي وأقدمها لها... «ولا يزال لدينا العنوان نفسه رغم أنني تركت البيت. إنني مقيمة الآن في فندق بائس على مسافة قريبة من هنا».

يحمل الشيك عنوان بيتنا في ويستشستر. يعرف أي شخص من سكان نيويورك إنها ضاحية ثرية. تنظر بيتي إلى رخصة قيادتي، ثم تتردّد قليلاً. على الرخصة صورتي منذ عدة سنوات، قرابة الفترة التي بدأت فيها التخطيط لترك ريتشارد. كانت عيناي متألقتين وكانت ابتسامتي حقيقية.

«أرجوك يا بيتي. سأقول لك... يمكنك الاتصال بمدير فرع بارك آفنيو. لقد أخبره ريتشارد بأنني سأصرف الشيك نقداً».

«أعذريني لحظة واحدة».

أنتظر بينما تتنحى بيتي جانباً وتتكلّم في الهاتف بصوت خفيض. أشعر بشيء من الدوار نتيجة توتري، وأتساءل إن كان ريتشارد قد سبقني من جديد.

تستدير الموظفة فلا أستطيع قراءة شيء في تعابير وجهها. تنقر مفاتيح لوحة الكمبيوتر أمامها، ثم ترفع رأسها وتنظر إلي أخيراً وتقول: «أعتذر لأنني أخّرتك. كل شيء سليم. لقد أكد المدير صلاحية الشيك. أرى في السجلات هنا أنك والسيد ثومبسون كنتما تملكان حساباً مشتركاً لم يجرِ إغلاقه إلا قبل بضعة شهور».

أجيبها هامسة: «شكراً لك». تعود بعد بضع دقائق حاملة عدة حزم من الأوراق النقدية. تضع المال في آلة العد، ثم تتحّقق من كل ورقة مئة دولار مرتين بينما يزداد توتري الداخلي شدة. أتوقّع في أي لحظة أن يأتي أحد ما إليها مسرعاً ويأخذ النقود منها. لكنها تدفع المال في اتجاهي عبر الفتحة المنخفضة تحت النافذة الزجاجية ومعه مغلف كبير الحجم مزود بشريط لاصق.

أقول لها: «أتمنى لك يوماً لطيفاً».

«حظّاً طيباً».

أغلق حقيبة يدي على المال وأشعر بثقل حقيبتي المطمئن عند خصري.

إنني أستحق هذا المال. وبما أنني فقدت عملي الآن، فأنا محتاجة إليه أكثر من أي وقت مضى... حتى أساعد خالتي.

ثم إن من المُرضي إلى حد غريب أن أفكّر في رد فعل ريتشارد عندما يقوله له موظف المصرف إن ماله قد طار منه.

لقد أفقدني توازني على امتداد سنوات كثيرة. كنت أعاني العواقب كلما سببت له انزعاجاً ما. لكن من الواضح أيضاً أنه كان يستمتع بمواساتي كلما وجدني منزعجة. كانت هذه الازدواجية في شخصية زوجي قد جعلته لغزاً بالنسبة إلي. لا أزال غير قادرة على فهم السبب الذي يجعله في حاجة إلى السيطرة على كل شيء في محيطة سيطرة دقيقة تشبه دقة ترتيبه لجواربه وقمصانه.

لقد استعدت جزءاً من القدرة التي سلبني إياها. لقد فزت في معركة صغيرة. إنني ممتلئة بهجة.

أتخيّل غضبه مثل إعصار... يدور ويدوّم منطلقاً خارجه. لكني بعيدة عن متناوله في هذه اللحظة.

أخرج إلى الرصيف وأسير مسرعة إلى أقرب فرع لمصرف تشيز مانهاتن. أودع المبلغ في حسابي الجديد الذي فتحته بعد انفصالي عن ريتشارد. صرت الآن مستعدة للعودة إلى خالتي شارلوت. لكني لن أعود إلى أمان سريري فأنا مصممة على التخلص من تلك المرأة المهزومة التي كنتها.

أجد نفسي مفعمة بالطاقة عندما أفكر في ما سأفعله في الخطوة التالية.

الفصل الثاني والثلاثون

«أنا في السادسة والثلاثين. وأنا أحب ريتشارد. سوف نتزوج عما قريب». هكذا أهمس لنفسي وأنا أنظر في المرآة. مزيد من أحمر الشفاه... أمد يدي إلى علبة أدوات التجميل... «وأنا أعمل هنا مساعدة لريتشارد».

إنني في فستان أحمر ورديّ اشتريته بعد ظهر اليوم من متجر آن تايلر. ليس هذا الفستان مطابقاً تماماً، لكنه مظهره قريب، خاصة بعد أن وضعت حشية إضافية في حمالة الثديين.

لكن وقفتي ليست صحيحة تماماً. أشد كتفيَّ إلى الخلف وأرفع ذقني. هذا أفضل.

أقول في المرآة: «اسمي إيمّا». ثم أبتسم... ابتسامة واثقة عريضة.

لن أستطيع خداع أي شخص يعرفها معرفة جيدة. لكني لست في حاجة إلا إلى تجاوز عمال التنظيف في مكتب ريتشارد.

إذا كان أحد زملائه يعمل حتى وقت متأخر في هذه الليلة، فسوف ينتهي أمري. وإذا شاءت الصدفة أن يكون ريتشارد هنا... لكن لا، لا أستطيع حتى أن أترك نفسي أفكر في ذلك وإلا فلن تكون لديّ الشجاعة الكافية لإنجاز الأمر.

أكرر مرة بعد مرة: «اسمي إيمّا»... أكررها حتى أصير راضية عن البحّة في صوتي.

أسير إلى باب الحمام وأفتحه قليلاً، ثم أنظر إلى الخارج. الممر خالٍ، والأنوار خافتة. لا أستطيع رؤية ما بعد الزاوية حيث الباب الزجاج المزدوج المؤدي إلى شركة ريتشارد. أعرف أن الباب سيكون مقفلاً مثلما يكون كل ليلة. لا يحمل مفتاح هذا الباب غير عدد قليل من الأشخاص. إن المعلومات المالية لمئات العملاء مخزنة في كمبيوترات الشركة. كلّها محمية بكلمات مرور، إضافة إلى ثقتي في أن خبراء أمن المعلومات في الشركة يتلقّون إنذاراً فورياً إذا حاول أي شخص اختراق النظام.

لكني لست ساعية خلف أي سجلات إلكترونية. لا أريد أكثر من وثيقة بسيطة من مكتب ريتشارد؛ وثيقة لا أهمية لها عند أي شخص غيره.

حتى لو تسنّت لإيمّا فرصة قراءة رسالتي، وحتى إذا بدأت تتشكّل في ذهنها بضعة شكوك عابرة، فأنا أعرف أنها شابة منطقية عاقلة. فمن عساها تصدّق آخر الأمر؟... خطيبها الكامل المستقر أم زوجته السابقة المجنونة.

أنا في حاجة إلى برهان يزعزع ثقتها. إيمّا هي الشخص الذي كشف لي كيف أحصل على ذلك البرهان.

عندما واجهتُها في الشارع أمام شقتها، قلت لها أن تسأل ريتشارد عن نبيذ رافينو المفقود الذي أرسلني حتى آتي به من قبو النبيذ تلك الليلة عندما أقمنا حفلة كوكتيل في بيتنا. ومن الذي تظنين أنه طلبه؟ ... هكذا كان سؤالها لي قبل أن تتركني وتصعد إلى سيارة التاكسي.

كانت حركة ذكية من جانب ريتشارد أن يجعل إيمّا، باعتبارها مساعدته، تطلب النبيذ من أجل تلك الحفلة.

ظل ريتشارد فترة طويلة غير محتاج إلى معاقبتي. لقد حافظت على سلوك حسن عدة أشهر: كنت أستيقظ معه في وقت مبكر وأمارس التمرينات الرياضية كل صباح وأعد طعاماً صحياً لعشائنا. وهذا ما جعل ريتشارد يرى نفسه محسناً إلي. عندما بلغت تلك المرحلة في زواجي، لم تعد لدي أية أوهام أو شكوك في أن زوجي يمكن أن يصير خطيراً جداً إذا خشي أن يكون حبي له قد بدأ ينزلق بعيداً.

لذا كنت أتوقّع أن أدفع ثمناً باهظاً عندما أجريت تعديلات على شعري قبل أيام قليلة من أمسية الكوكتيل تلك. طلبت من مصففة الشعر في البداية أن تصبغه بلون الكراميل البني. اعترضت الفتاة قائلة إن النساء يدفعن لها مئات الدولارات حتى يحصلن على لون شعر يماثل لون شعري الطبيعي. لكني كنت مصممة. وعندما انتهت من صباغته، أمرتها بأن تقص منه نحو عشرين سنتيمتراً حتى صار بالكاد يصل إلى كتفي.

عندما التقينا أول مرة، طلب مني ريتشارد ألا أقص شعري أبداً. كانت تلك القاعدة الأولى التي يضعها لي رغم مجيئها متنكرة على شكل مديح.

وقد أطعت تلك القاعدة طيلة زواجنا.

لكني قابلت إيمّا. وعرفت أن عليَّ أن أمنح زوجي سبباً يجعله يتخلّص مني، مهما تكن نتائج ذلك.

عندما رأى ريتشارد شعري، صمت لحظة ثم قال لي إن هذا تغيير لطيف خلال الشتاء. فهمت أنه يريد أن يعود شعري مثلما كان مع قدوم الصيف. وبعد تلك الملاحظة المقتضبة، صار يعمل حتى ساعة متأخرة في الليل إلى أن حان موعد حفلتنا.

لقد جعل ريتشارد إيمّا تطلب النبيذ حتى يتمكّن من بناء حجّته ضدي.

والآن، يمكنني استخدام ذلك حتى أبني حجّتي ضده.

في تلك الليلة، كانت هيلاري واقفة مع ريتشارد عند البار المؤقت في غرفة المعيشة في بيتنا. تأخّرت الشركة التي ستقدم الطعام؛ وكنت أتمتم للمدعوين باعتذارات عن هُزال ما كان متوفراً لديَّ من جبن بري وجبن شيدر اللذين وضعتهما على الطاولة.

ناداني ريتشارد من الناحية الأخرى من الغرفة: «حبيبتي؟ هل يمكنك أن تأتي ببضع زجاجات نبيذ رافينو من القبو؟ لقد طلبت الأسبوع الماضي صندوقاً منها. إنها على الرف الأوسط في براد النبيذ».

سرت في اتجاه القبو بخطوات أحسستها بطيئة جداً لأنني كنت أحاول تأخير اللحظة التي أخبر فيها ريتشارد أمام أصدقائه وشركائه جميعاً بما كنت أعرفه أصلاً: ليس في قبونا نبيذ رافينو.

لكن، ليس لأنني شربته!

بالطبع، ظن الجميع أنني شربت ذلك النبيذ. كان ذلك ما أراده ريتشارد. وكان ذلك هو النموذج الذي يتكرّر بيننا دائماً: أتحدّى ريتشارد من خلال محاولة التأكيد على استقلاليتي فيجعلني أدفع ثمن شذوذي. كانت عقوبتي على الدوام متناسبة مع جريمتي المفترضة. ففي ليلة حفلة آلفين آلين، كنت أعرف أن ريتشارد قال لشريكه بول إنني في حاجة إلى الذهاب إلى البيت بعد أن أكثرت من الشراب. لكن ذلك لم يكن صحيحاً: كان ريتشارد حانقاً لأن بول عرض عليَّ المساعدة في الحصول على عمل. وأكثر من هذا كان زوجي يعرف أنني ذهبت إلى المدينة من أجل لقاء سرّي... ذلك اللقاء الذي قلت له آخر الأمر إنه كان زيارة إلى مُعالِجة نفسية.

كان جعلي أبدو سيئة في أعين الناس... أي جعل الآخرين يرونني امرأة غير مستقرة، والأسوأ من ذلك جعلي أشك في نفسي... واحداً من

أساليب ريتشارد المفضَّلة من أجل تأديبي. كان في ذلك الأسلوب فعالية خاصّة بالنظر إلى معاناة أمي.

قلت له عندما عدت من القبو خالية اليدين: «حبيبي، ليس لدينا نبيذ رافينو».

«لكنني وضعت الصندوق هناك بنفسي...». قطع ريتشارد جملته وظهر على وجهه تعبير حيرة سرعان ما حل محله تعبير حرَج واضح.

كان ممثلاً ماهراً حقاً.

قالت هيلاري بمرح مبالغ فيه: «أوه... سأكون سعيدة بأي نبيذ أبيض معتَّق!».

كانت إيما واقفة في الناحية الأخرى من الغرفة. وكانت في فستان بسيط أسود مع حزام يُظهِر رِقَّة خصرها. وكان شعرها الأشقر الغني منسدلاً مع تموّجات في نهاياته... رائعة مثلما أتذكرها دائماً.

كان لا بد لي من إنجاز ثلاثة أمور في تلك الليلة: إقناع كل واحد من الحاضرين بأن زوجة ريتشارد فوضوية بعض الشيء. وإقناع إيمّا بأن ريتشارد يستحق زوجة أفضل. وأهم من ذلك كله، إقناع ريتشارد بالأمر كله.

جعلتني شدّة التوتر أشعر بنوع من الدوار. نظرت إلى إيمّا لكي أستمد الشجاعة منها، ثم قمت بشيء من التمثيل من جانبي.

شبكت ذراعي بذراع هيلاري آملة ألّا تحس ببرودة أصابعي الثلجية عبر كم فستانها وقلت لها: «سوف أنضم إليك في ذلك. من الذي يقول إن الشقراوات أكثر جمالاً؟ أحب كوني امرأة داكنة الشعر. هيا يا ريتشارد... افتح لنا زجاجة».

أفرغت كأسي الأولى في مجلى المطبخ عندما ذهبت لإحضار مزيد من مناديل الكوكتيل، وحرصت على أن يكون ريتشارد ضمن مدى

السمع عندما سألتُ هيلاري إن كانت تريد ملء كأسها مرة أخرى. كانت كأسها لا تزال في نصفها. اتجهت نظرة عينيها إلى كأسي الفارغة قبل أن تهز رأسها نفياً.

بعد لحظة من ذلك، ناولني ريتشارد كأساً من الماء وقال لي: «أليس من الأفضل يا حبيبتي أن تتّصلي بالشركة التي ستقدم الطعام».

بحثت عن رقم هاتف الشركة، ثم نقرت على الأعداد الستة الأولى منه وأنا أبتعد عن ريتشارد حتى لا يلاحظ الإيقاع غير الطبيعي لمكالمة من جانب واحد. أومأت له بعد تلك المكالمة وقلت: «من المتوقّع أن يكونوا هنا في أية لحظة». ثم شربت كأس الماء.

كنت أتظاهر بشرب كأس النبيذ الثالثة عندما وصل عمال تلك الشركة.

وعندما راحوا يجهزون البوفيه، استدعى ريتشارد كبيرهم إلى المطبخ فذهبت خلفهما.

سألته قبل أن يتمكّن ريتشارد من قول أي شيء له: «ماذا يجري؟ ...». لم أبذل أي جهد في إبقاء صوتي منخفضاً... «كان من المفترض أن تصلوا قبل ساعة من الآن».

«إنني آسف يا سيدة ثومبسون...». نظر الرجل إلى اللوحة الإلكترونية التي يحملها... «لكنا أتينا في الوقت المحدّد لنا».

«هذا غير ممكن. بدأت حفلتنا في الساعة السابعة والنصف. وأنا واثقة من قولي لكم إننا نريدكم أن تكونوا هنا في الساعة السابعة».

كان ريتشارد واقفاً إلى جانبي لإبداء اعتراضه الشديد على هذه الغلطة من جانب الشركة.

لم يقل الرجل أي كلمة، لكنه أدار اللوح في اتجاهنا وأشار إلى

التوقيت المسجل عليه: الساعة الثامنة مساء ـ وكان توقيعي على تلك الصفحة واضحاً.

تنحنح ريتشارد محرجاً بعض الشيء، لكن، ماذا حدث؟

كان من الضروري أن يكون رد فعلي في محله تماماً. وكان لا بد لي من إظهار سوء تدبيري، إضافة إلى قلة اكتراثي بالإزعاج الذي سببته له.

قلت من غير اهتمام: «أوه، أظن أن الغلطة غلطتي. المهم أنهم قد جاؤوا آخر الأمر».

«كيف يمكنكِ أن... ؟». خنق ريتشارد بقية كلمات جملته. أطلق زفيراً بطيئاً، لكن التوتّر لم يفارق وجهه.

شعرت بالغثيان يصعد من معدتي إلى حلقي وعرفت أنني غير قادرة على الاستمرار في التمثيل أكثر من ذلك. فأسرعت إلى الحمام وغسلت يديَّ ووجهي بالماء البارد. ورحت أحصي أنفاسي إلى أن هدأت ضربات قلبي آخر الأمر.

خرجت من الحمام بعد ذلك ونظرت إلى الضيوف. لم أنجز بعد كل ما كان يُفترَض إنجازه.

كان ريتشارد يتحدّث مع واحد من شركائه ومع أحد زملائه في لعب الغولف في النادي، لكن ما يشبه إحساساً بالوخز في جلدي نبّهني إلى أن عينيه كانتا تنظران في اتجاهي تكراراً. شعري، وشربي، وردة فعلي تجاه «غلطتي» مع شركة تقديم الطعام... كنت أتصرّف تصرّف امرأة مختلفة تماماً عن المرأة التي راجعت معه تفاصيل الحفلة كلّها بدقّة تامّة خلال الأسابيع الماضية. لقد أمضينا ساعات في مراجعة قائمة المدعوين؛ وكان ريتشارد يذكّرني بالمعلومات الشخصية عن كل واحد من شركائه حتى لا أجد صعوبة في الحديث معهم وتقديم كل واحد منهم للآخرين. ناقشنا الخيارات المتعلّقة بترتيب الزهور. نبّهني ريتشارد إلى عدم طلب

الروبيان لأنه يسبب مشكلة تحسسية لأحد ضيوفنا. وقد قلت له إنني سوف أتحقّق مرة أخرى من أن لدينا العدد الكافي من علّاقات الملابس حتى لا نضطر إلى وضع معطف أي شخص على السرير.

بعد ذلك، كان يجب إنجاز بند آخر من بنود قائمتي السرية؛ ذلك البند الذي سجّلته في رأسي فقط وراجعته مرات كثيرة خلال وجود ريتشارد في عمله: التكلّم مع إيمّا.

مرّ أحد الخدم فعرض عليَّ شطيرة جبن بارميزان حارة من التي كان يحملها في صينيته. أرغمت نفسي على الابتسام له، ثم تناولت واحدة لكني لففتها بمنديل.

انتظرت لحظة إلى أن وصل الخادم نفسه إلى المجموعة التي كانت إيمّا واقفة معها، ثم اقتربت منها.

قلت لها: «عليك أن تجربي واحدة من هذه». ضحكت لها ثم تابعت... «لا بد لك من المحافظة على قواكِ إن كنت تعملين مع ريتشارد».

عبست إيمّا لحظة، ثم صفا وجهها من جديد: «إنه يعمل ساعات طويلة. لكني لا أجد مشكلة في ذلك».

أخذت شطيرة وتناولت قضمة منها. رأيت ريتشارد آتياً في اتجاهنا من آخر الغرفة، لكن جورج اعترضه.

قلت لها: «أوه، ليست المسألة مسألة ساعات طويلة فحسب، بل لأنه شديد التدقيق، أليس هذا صحيحاً؟».

أومأت برأسها، ثم وضعت ما بقي من الشطيرة الصغيرة في فمها.

«حسناً، يسعدني أن كل امرئ صار لديه أخيراً ما يأكله. كنت أتوقع، على الأقل، أن يأتي هؤلاء الناس في موعدهم بالنظر إلى المبلغ الكبير الذي يتقاضونه». كنت أتكلم بصوت مرتفع إلى الحد الكافي لجعل

الرجل متوسط العمر الذي يحمل طبق الطعام قادراً على سماعي، والأهم من ذلك، أردت أن تظن إيمّا بأنني أوجّه تلك الملاحظة الخشنة إليه. شعرت بالحرارة في وجنتي، لكني أملت أن تظن إيمّا أنها نتيجة إكثاري من النبيذ. عندما لاقيت نظرة عينيها، رأيت فيهما استنكاراً لجلافتي.

خلّص ريتشارد نفسه من جورج وسار في اتجاهنا مباشرة. قبل أن يصل بلحظة واحدة، استدرت وسرت في الاتجاه الآخر.

فلأعطهم سبباً آخر أيضاً... كنت أعرف أنه عليَّ أن أفعل هذا الآن قبل أن أفقد شجاعتي.

كانت كل خطوة صراعاً عندما عبرت الغرفة بخطوات بطيئة، كانت ضربات قلبي تتردّد في أذنَيّ. وكانت قطرات من العرق البارد تتجمع على شفتي العليا.

كانت حواسّي كلها تصرخ بي قائلة لي أن أتوقف، وأن أستدير وأعود من حيث أتيت. لكني أرغمت نفسي على مواصلة التقدّم متحرّكة بين تلك المجموعات الصغيرة من الأشخاص المبتسمين. لمس أحدهم ذراعي، لكني ابتعدت عنه من غير أي التفاتة.

كانت القوة الوحيدة التي تدفعني إلى الأمام هي تفكيري في أن إيمّا وريتشارد ينظران إليّ.

كنت أعرف أنني لن أحظى في وقت قريب بفرصة أخرى للاقتراب منها.

وصلت إلى جهاز آيبود المتصل بمكبرات الصوت. كان ريتشارد قد اعتنى بانتقاء مجموعة من مقطوعات الجاز ومن أعمال المؤلفين الكلاسيكيين المفضّلين لديه. كانت الموسيقى الناعمة محلّقة في أرجاء الغرفة.

لقد أنجزت كل ما قررت إنجازه.

كان الأمر يستحق ذلك على الرغم من أن كدماتي لم تشفَ إلا بعد أسبوعين.

لم يرسل ريتشارد بعد ذلك أي قطعة مجوهرات على سبيل التعويض عن «سوء التفاهم بيننا». كان هذا تأكيداً على أنه أقلع عن محاولة إصلاح الأمر بيننا. لقد بدأ اهتمامه يتحوّل في اتجاه آخر.

أقول مرة أخيرة وأنا أنظر في الممر الخالي: إنني أحب ريتشارد، ومن المفترض أن أكون هنا.

لم يكن دخول مبنى ريتشارد أمراً صعباً. تحت مكتبه ببضعة طوابق، هناك شركة محاسبة تتعامل مع أشخاص أثرياء. رتبت موعداً مع تلك الشركة وقلت لهم إنني امرأة عازبة حصلت في الآونة الأخيرة على ميراث كبير. لم يكن هذا شديد البعد عن الحقيقة... كان إيصال صرف الشيك الذي أخذته من ريتشارد لا يزال معي. حجزت آخر موعد في ذلك النهار، أي في الساعة السادسة مساء؛ ثم مررت من أمام مكتب الحارس الأمني في الأسفل واضعة بطاقة الزيارة على صدر فستاني الجديد.

بعد موعدي، أخذت المصعد إلى طابق ريتشارد وسرت مسرعة إلى حمام السيدات. لم يتغير الرمز الخاص بفتح باب الحمام. دخلت حجرة المرحاض الأخيرة. لقد جعلت مظهري الخارجي قريباً من مظهر إيمّا إلى أقصى حد ممكن؛ وكان أحمر الشفاه متناسباً مع لون فستاني؛ ثم إن شعري الذي صار الآن أشقر اللون مموّجاً قد غيّر مظهري تغييراً تاماً.

مزقت بطاقة الزيارة إلى قطع صغيرة وألقيتها عميقاً في سلة القمامة. ثم أمضيت بعد ذلك ساعتين في التمرن على صوتها ووقفتها وحركاتها.

دخلَتِ الحمام خلال تلك الفترة بضع نساء، لكن أياً منهن لم تبق فيه طويلاً. صارت الساعة الآن الثامنة والنصف. أخيراً، رأيت طاقم عمال التنظيف المؤلف من ثلاثة أشخاص يخرج من المصعد. كانوا يدفعون أمامهم عربة محملة بمواد التنظيف ومعداته. أرغمت نفسي على الانتظار إلى أن بلغوا باب شركة ريتشارد.

أنا واثقة من نفسي.

«مرحباً!». أخاطبهم بصوت مرتفع وأنا آتية في اتجاههم بخطى سريعة.

إنني متماسكة تماماً!

«تسعدني رؤيتكم من جديد».

إنني أنتمي إلى هذا المكان!

لا بد أن يكون أفراد طاقم التنظيف قد رأوا إيمّا في ليالي العمل المتأخرة في المكتب. ينظر في اتجاهي الرجل الذي فتح قفل الباب الزجاجي المزدوج ويبتسم لي ابتسامة متردّدة.

«طلب مني مديري التحقق من شيء ما على مكتبه». أشير إلى ذلك المكتب في الزاوية الذي أعرفه حق المعرفة... «تلزمني دقيقة واحدة فقط».

أتجاوزهم مسرعة بخطى أكثر اتساعاً من خطواتي الطبيعية. تأخذ امرأة من الطاقم ممسحة الغبار وتأتي خلفي. كنت أتوقع هذا. أعبر مكتب إيمّا الذي تنتصب عليه الآن زهرة بنفسج أفريقية في أصيص صغير وإلى جانبها فنجان شاي كبير مزين بالأزهار، ثم أفتح باب مكتب ريتشارد: «يجب أن يكون هنا». أسير إلى خلف المكتب وأفتح واحداً من الدرجين السفليين الثقيلين. لكني أجده فارغاً إلا من بضع قطع من الشوكولاته وعلبة من كُرات الغولف وأداة صغيرة لتمرين أصابع اليدين.

أقول للمرأة: «أوه، لعله وضعه في مكان آخر». يمكنني الإحساس بنظرتها المترقبة. من الواضح أنها صارت متوتّرة بعض الشيء. أراها تقترب مني. أستطيع قراءة العملية الجارية في عقلها: تقول لنفسها إنني أعمل في هذا المكان، وإلا لما سمح لي الحارس بالمرور. ثم إنها لا تريد الإساءة لشخص يعمل في المكتب. لكن من الممكن أن تفقد عملها إذا كانت مخطئة.

أرى خَلاصي ينظر إليّ: صورة فوتوغرافية لإيمّا في إطار فضي منتصبة على مكتب ريتشارد. أرفع الصورة وأريها لعاملة التنظيف مع الحرص على إبقائها بعيدة عنها بعض الشيء.

«هل ترين، إنها صورتي!». تبتسم المرأة ابتسامة ارتياح. يسعدني أنها لا تسألني عن السبب الذي يجعل مديري يضع صورة مساعدته على مكتبه.

أفتح الدرج الثاني فأرى فيه ملفات ريتشارد. على كل منها لصاقة مطبوعة.

أجد المصنّف الذي يحمل عنوان «AmEx» فأقلب الوثائق التي فيه إلى أن أجد واحدة مسجلة في شهر شباط. البند الذي أبحث عنه ظاهر في رأس تلك القائمة: نبيذ سوذبي، 3150 دولاراً؛ تمت إعادة المبلغ.

عاملة التنظيف ملتفتة إلى النافذة الآن. إنها تمسح الغبار عنها. لكني لا أستطيع السماح لنفسي حتى بلحظة احتفال واحدة. أضع الورقة في حقيبة يدي.

«لقد انتهيت! شكراً لك!».

تومئ المرأة برأسها. أما أنا فأتوجّه إلى الباب. وعندما أمر بزاوية المكتب، أمد يدي وألمس صورة إيمّا من جديد. لا أستطيع مقاومة ذلك... أديرها حتى تصير مواجِهة للجدار.

الفصل الثالث والثلاثون

أستيقظ صباح اليوم التالي فأحس انتعاشاً لم أعرفه منذ سنين.

لقد نمت نوماً مستمراً طيلة تسع ساعات من غير حاجة إلى أقراص منومة أو كحول. إنه نصر صغير آخر.

عندما أقترب من المطبخ، أسمع خالتي شارلوت تعمل فيه. أقترب منها وأحتضنها. رائحة الخزامى وزيت الكتان... رائحتها تطمئنني بقدر ما تقلقني رائحة ريتشارد.

«أحبك!». مكتبة أحمد

تضع يديها على يدي وتقول لي: «وأنا أحبك أيضاً يا عزيزتي».

صوتها ينبئني بأنها فوجئت... كما لو أنها قادرة على الإحساس بالتغيير الذي في داخلي.

لقد تعانقنا عشرات المرات منذ أن انتقلت إلى السكن معها. احتضنتني خالتي شارلوت عندما جلست أبكي بعد أن أنزلتني سيارة التاكسي عند باب بنايتها. وعندما كنت أعجز عن النوم وتهاجمني ذكريات أسوأ أوقات زواجي، كنت أحس بها تندسّ في فراشي وتطوقني بذراعيها. كانت كأنها تريد امتصاص ألمي. مقابل كل صفحة من صفحات دفتري التي امتلأت بوصف خداع ريتشارد، يمكنني ملء صفحة مقابلة بكلام

عن تلك الأيام في حياتي عندما حملتي خالتي شارلوت وحمتني بحبها الثابت الذي لا يطلب شيئاً بالمقابل.

وأما اليوم، فأنا من أحتضنها. أنا التي أعطيها بعضاً من قوتي.

عندما أُفلتها، تمسك خالتي شارلوت وعاء القهوة التي حضّرتها قبل قليل فأخرج علبة الحليب من البراد وأعطيها لها.

إنني في حاجة إلى طاقة... إلى طعام مغذٍّ يكون وقوداً لقوَّتي التي عثرت عليها أخيراً. أكسر عدة بيضات في مقلاة وأضيف إليها الطماطم الكرزية وقطعاً من جبن الشيدر، ثم أضع شريحتين من الخبز الكامل في آلة التحميص.

«لقد أجريت بعض البحث في الآونة الأخيرة». ترفع رأسها وتنظر إليّ فأعرف أنها تدرك تماماً ما أتحدث عنه... «لن تكوني وحدك في هذا الأمر أبداً. إنني معك هنا. ولن أذهب إلى أي مكان». تسكب الحليب في قهوتها وتقول لي: «لا يمكن أبداً. أنت مخطئة. ولن تُمضي حياتك في رعاية امرأة عجوز».

أقول بصوت مرح: «للأسف، سواء أعجبك هذا أم لم يعجبك، فإنني باقية معك. فقد عثرت على أفضل اختصاصي في التنكّس البقعي في نيويورك. إنه واحد من أهم أطباء العيون في البلاد. وسوف نراه بعد أسبوعين». لقد أرسلت لي مديرة عيادته استمارات المعلومات التي سأساعد خالتي شارلوت في ملئها.

تتحرّك يداها بسرعة فتوشك قهوتها على الاندلاق من حافة فنجانها. أعرف أنها غير مرتاحة. وأنا واثقة من أنه ليس لديها تأمين صحي ممتاز باعتبارها فنانة مستقلة تعمل لحسابها.

«لقد أعطاني ريتشارد مالاً عندما أتى. لدي الآن مال كثير»... وأنا أستحق كل قرش من هذا المال!

قبل أن تفلح خالتي في الاعتراض، أمد يدي إلى فنجاني وأقول لها: «لا أستطيع المجادلة في هذا الأمر قبل أن أشرب قهوتي»... تضحك خالتي فأغيّر الموضوع... «إذاً، ماذا تفعلين اليوم؟».

«كنت أفكّر في الذهاب إلى المقبرة. أريد أن أزور بو».

عادة، لا تذهب خالتي إلى المقبرة إلا في ذكرى زواجهما السنوية التي تأتي في فصل الخريف. لكني أدرك بأنها صارت تنظر إلى كل شيء بطريقة مختلفة... إنها تريد الآن تثبيت الصور المألوفة في ذاكرتها حتى تتمكّن من استدعائها بعد أن تفقد بصرها.

أحرّك البيض مرة أخيرة، ثم أرش عليه الملح والفلفل: «يسرني أن أنضم إليك إن كنت تريدين صحبة».

«أليس عليك الذهاب إلى العمل؟».

«ليس اليوم».

أدهن شريحتَي الخبز المحمّصتيْن بالزبدة، ثم أفرغ البيض من المقلاة في صحنين، واحد لي وواحد لها. أضع صحنها أمامها، ثم أتناول رشفة من قهوتي حتى أكسب بعض الوقت. لا أريد إقلاقها. وهكذا أخترع قصة عن أنهم قد قرّروا صرف بعض العاملين لديهم.

«سوف أشرح لك بعد أن ننتهي من طعامنا».

* * *

في المقبرة، نغرس أزهار الجيرانيوم عند رأس القبر... أزهار حمر وصفر وبيض... ونحكي بعض قصصنا المفضلة عن بو. تروي لي خالتي شارلوت كيف التقته أول مرة عندما ادعى أنه الشخص الذي أتت حتى تقابله في «موعد أعمى» في أحد المقاهي. لم يكشف لها عن الحقيقة إلا في لقائهما الثالث بعد أسبوع من ذلك. لقد سمعتُ منها هذه القصة عدة مرات؛ لكنها تجعلني أضحك كل مرة عندما تصل إلى وصف مدى

ارتياح بو عندما لم تعد تدعوه باسم ديفيد. أحكي لها كيف كنت أحب دفتر الصحافي الصغير الذي كان يضعه في جيبه الخلفي ويضع قلماً داخل اللولب السلكي. كان يعطيني دفتراً مثله كلما جئت مع أمي في زيارة إليهما. كنا نتظاهر بأننا صحافيان نقوم بتغطية إحدى القصص معاً. كان يأخذني إلى محل البيتزا في الحي، وبينما ننتظر دورنا. كان يقول لي أن أسجّل كل شيء أراه... أن أسجل المشاهد والروائح والأحاديث التي أسمعها... تماماً مثلما يفعل أي مراسل صحافي حقيقي. لم يكن يعاملني على أنني طفلة صغيرة. كان يحترم ملاحظاتي ويقول لي إن لي عيناً شديدة الانتباه إلى التفاصيل.

شمس الظهيرة عالية في السماء، لكن ظل الأشجار يقينا حرّها. لسنا في عجلة من أمرنا؛ بل إني مستمتعة كثيراً بالجلوس على العشب الطري والحديث مع خالتي شارلوت. أرى في البعيد أسرة تقترب منا: أب وأم وطفلتان. الطفلة الصغيرة ممتطية كتفَيْ أبيها، وفي يدها الأخرى باقة أزهار.

«لقد كنتما رائعين مع الأطفال. ألم ترغبي أبداً في أن تنجبي؟». لقد طرحت هذا السؤال على خالتي مرة واحدة من قبل، عندما كنت أصغر سناً. لكني أسألها الآن بعد أن صرت امرأة ناضجة مثلها... بعد أن صرنا على قدم المساواة.

«سأكون صادقة معك. كانت حياتي ممتلئة تماماً... ممتلئة بفنّي وبأسفار بو في مهمات كثيرة طيلة الوقت، أسفار أرافقه فيها. ثم، كنت محظوظة بأن تكون لي حصة فيك».

«بل أنا المحظوظة». أميل إليها وأضع رأسي على كتفها لحظة.

«أعرف أن رغبتك في إنجاب طفل كانت كبيرة جداً. يؤسفني أن ذلك لم يحدث».

«لقد حاولنا وأمضينا في المحاولة وقتاً طويلاً». أتذكر تلك الخطوط الزرق على شريط اختبار الحمل، وأتذكر ما كان الكلوميد يسببه لي من غثيان وإرهاق. أتذكر اختبارات الدم، وزيارات الطبيبة... زيارات في كل شهر تجعلني أحس بأنني فاشلة... «لكني صرت بعد فترة غير واثقة من أن إنجاب الأطفال مقدَّر لنا».

«حقّاً؟ هل كان الأمر بهذه البساطة؟».

أقول في نفسي: لا... بالطبع لا! لم يكن بسيطاً على الإطلاق.

كانت د. هوفمان هي من اقترحت عليّ آخر الأمر أن يجري ريتشارد اختباراً جديداً للحيوانات المنوية. سألتني عندما كنت جالسة في عيادتها فائقة النظافة خلال واحد من الفحوص السنوية: «ألم يطلب أحد منه فعل ذلك؟ من الممكن أن تحدث أغلاط في أي اختبار طبي. ومن المعتاد أن يجرى اختبار النطاف مرة ثانية بعد ستة أشهر أو بعد سنة. إن من غير المألوف أبداً أن تصادف شابة معافاة مثلك هذه المشكلات كلها».

كان ذلك بعد وفاة أمي، وبعد أن وعدني ريتشارد بأن الأمور لن تسوء بيننا مرة أخرى. صار يبذل جهداً حقيقياً لكي يعود إلى البيت في السابعة مساء عدة أيام في الأسبوع. وكنا نقوم برحلات طويلة في العطلات. ذهبنا في رحلة طويلة إلى برمودا في عطلة نهاية الأسبوع. وذهبنا إلى بالم بيتش في عطلة أخرى فلعبنا الغولف وتشمَّسنا عند بركة السباحة. تجدد التزامي بزواجنا؛ وبعد نحو ستة أشهر، اتفقنا على محاولة الإنجاب من جديد. لم تأتني تلك الوظيفة التي اقترحها بول، لكني واصلت عملي التطوّعي مع برنامج «البدايات المبكرة». صرت أقول لنفسي إنني ملومة جزئياً في العنف الذي أظهره ريتشارد تجاهي. لا يمكن أن يكون أي زوج سعيداً إذا عرف أن زوجته تذهب إلى المدينة سرّاً وتكذب عليه!

قال لي ريتشارد إنه ظن أن لدي عشيقاً؛ وصرت أقول لنفسي إنه ما كان يمكن أن يؤذيني لولا ذلك الظن. مع مرور الوقت، ومع زوجي الحلو اللطيف الذي يجلب لي أزهاراً من غير سبب ويترك لي رسائل حب على وسادتي، صار من السهل عليَّ إقناع نفسي بأن كل زواج يمكن أن يعرف أوقاتاً صعبة. قلت لنفسي إن ما حدث بيننا لن يتكرّر أبداً.

ومثلما اختفت الندوب من على معصمي، اختفى أيضاً ذلك الصوت الملحّ في داخلي الذي كان يقول لي إن عليّ تركه.

أقول لخالتي الآن: «كان زواجي... غير مستقرٍّ، نوعاً ما. وصار يقلقني إنجاب طفل ضمن هذا الجو المضطرب».

«كانت تبدو عليك السعادة معه أول الأمر...». خالتي شارلوت تختار كلماتها بعناية... «ومن الواضح أنه كان يعبدك».

الفكرتان صحيحتان. أومئ برأسي وأقول: «أحياناً، لا تكون هذه الأشياء كافية».

عندما أخبرت ريتشارد بما قالته لي د. هوفمان، وافق من غير أي تردد على إعادة الفحص: «سوف أرتب موعداً يوم الخميس، وقت الغداء. أظنك تستطيعين الابتعاد عني طيلة هذه المدة!». علِمنا عند إجراء الاختبار أول مرة أن عليه أن ينتظر يومين حتى تتجمّع كمية جيدة من النطاف النشطة.

قررت في اللحظة الأخيرة أن أرافق ريتشارد عندما يذهب لإجراء الفحص. تذكرت كيف كان يذهب معي دائماً إلى مواعيدي في إجراء فحص الخصوبة. ثم إنني كنت حرة وما كان لدي الكثير لأفعله يوم الخميس، فقلت إن قضاء فترة بعد الظهر في المدينة سيكون لطيفاً لأنني سألتقيه في العمل ونذهب لتناول العشاء معاً. على الأقل، كانت تلك الأسباب التي قلتها لنفسي.

كانت خالتي صديقتي وموضع أسراري طيلة فترة طويلة من حياتي، لكني لن أثقل عليها بهذا الأمر. أفتح حقيبة يدي التي وضعت فيها زجاجتَيْ مياه أتيت بهما من البيت فأناولها واحدة منها ثم أشرب جرعة كبيرة من زجاجتي. وبعد فترة وجيزة، ننهض واقفتين. وقبل أن نذهب، تمر أصابع خالتي شارلوت على حروف اسم زوجها المحفور على القبر.

«هل يغدو الأمر أكثر سهولة مع مرور الزمن؟».

«نعم ولا. أتمنّى لو أنه حظي بمزيد من الوقت. لكنني ممتنّة لأنني عشت معه ثمانية عشر عاماً رائعة».

أشبك ذراعي بذراعها ونسير عائدتين في اتجاه البيت، لكننا نختار مساراً طويلاً.

أتساءل عمَّ يمكن أن أفعله من أجلها بالنقود التي أتتني من ريتشارد. البندقية هي مدينة خالتي المفضلة في العالم. أقرر أن آخذ خالتي إلى إيطاليا عندما ينتهي هذا الأمر كله... عندما أكون قد أنقذت إيمّا.

بعد وصولنا إلى البيت ودخول خالتي شارلوت إلى غرفة الاستوديو حتى تعمل، أصير مستعدة لتنفيذ خطتي وإيصال وثيقة AmEx إلى إيمّا. أعرف كيف أفعل هذا. لأن إيما لم تغير رقم هاتفها الذي كانت تستخدمه خلال عملها مساعدة لريتشارد. سوف أصوّر الوثيقة وأرسلها إليها. لكن من الضروري إرسالها عندما لا يكون ريتشارد قريباً منها حتى تتمكّن من استيعاب المعنى الكامل لما تراه.

كان الوقت لا يزال مبكراً كثيراً عندما خرجت مع خالتي شارلوت هذا الصباح. أظنّهما كانا لا يزالان معاً. لكنه يجب أن يكون في عمله الآن.

أسحب الورقة من حقيبتي وأفتحها فأبسطها على الطاولة. يستخدم ريتشارد بطاقة AmEx لدفع مصاريف العمل؛ إنها البطاقة التي لا

يستخدمها أحد غيره. إن معظم المصاريف المسجلة في هذه الوثيقة مصاريف وجبات غداء وسيارات تاكسي ومصاريف رحلاته إلى شيكاغو. أرى عليها أيضاً قيمة أتعاب الشركة التي قدمت الطعام في تلك الحفلة. أنا من وضع توقيعه على العقد وأنا من حدّد التفاصيل. لكن ريتشارد قرّر استخدام بطاقة AmEx لأن تلك المناسبة كانت متعلّقة بالعمل، من حيث الأساس.

كان في الوثيقة أيضاً مبلغ أربعمئة دولار تكلفة الأزهار التي طلبناها تلك الليلة.

إن المبلغ المردود من محل سوذبي للمشروبات موجود في أعلى الوثيقة فوق أتعاب شركة تقديم الطعام بعدة سطور.

أستخدم هاتفي للالتقاط صورة للصفحة كلها، وأحرص على ظهور اسم محل المشروبات وتاريخ العملية والمبلغ بكل وضوح. ثم أبعث بالصورة إلى إيمّا مع رسالة من جملة واحدة:

أنتِ من طلب النبيذ؛ فمن الذي ألغى الطلبية؟

عندما أرى أن رسالتي قد وصلتها، أغلق هاتفي وأضعه جانبه. لم أستخدم البرنامج الذي يخفي رقم المتصل: ما عادت هنالك حاجة إلى إخفاء ما أفعله. أتساءل إن كانت ذاكرة إيما ستكشف لها شيئاً عندما تعيد التفكير في تلك الليلة. تظن بأنني كنت ثملة. وتظن بأن ريتشارد كان يحاول تدارك سلوكي. لديها انطباع يقول إنني شربت صندوقاً كاملاً من زجاجات النبيذ خلال أسبوع واحد.

إذا أدركتْ أن شيئاً واحداً من هذه الأشياء غير صحيح، فسوف تبدأ الشك في بقيتها.

أنظر إلى هاتفي على أمل أن تكون هذه الرسالة بداية الخيط الذي تسحبه بأصابعها.

الفصل الرابع والثلاثون

أتتني إجابة إيمّا صبيحة اليوم التالي. كانت أيضاً رسالة نصّية من سطر واحد:

أراك الساعة السادسة مساء اليوم في شقتي.

أحدق في تلك الكلمات دقيقة كاملة. لا أستطيع تصديقها. أحاول الوصول إليها منذ مدة طويلة؛ وها هي الآن ترحّب بي! لقد أفلحتُ في خلق الشكوك الضرورية في ذهنها. أتساءل عما صارت تعرفه حتى الآن. وأتساءل عما ستسألني.

تغمر البهجة جسدي كلّه. لا أعرف الزمن الذي سيكون متاحاً لي. وهذا ما يجعلني أسجل النقاط التي لا بد لي من التعرض إليها: يمكنني طرح موضوع ديوك. لكن، ماذا عندي من أدلّة أقدمها؟ أكتب بدلاً من ذلك: «أسئلة الخصوبة». أريدها أن تسأل ريتشارد عن سبب عدم قدرتنا على الإنجاب. من المؤكد أنه سيكذب عليها. لكن الضغط في داخله سيتزايد. ولعلها ترى كم يكافح من أجل إبقائه مخفياً. أكتب أيضاً «زياراته المفاجئة». هل يأتيها ريتشارد على نحو غير متوقع، حتى عندما لا تكون قد أخبرته شيئاً عن برنامجها؟ لكن ذلك لن يكون كافياً... أنا واثقة من أنه لم يكن كافياً لإقناعي عندما كنت زوجته. سوف يكون عليَّ إخبارها عن المرات التي سبب لي ريتشارد فيها أذىً جسدياً. لم يسبق

أن قلت لأحد عن هذه الأشياء التي سأكشف عنها أمام إيمّا. لا بد لي من ضبط انفعالاتي حتى لا تغلبني فتعزز الشكوك التي قد تكون باقية لديها حول عدم توازني.

إذا أصغت إليَّ بذهن مفتوح ـ إذا بدت لي متقبّلة ما أقوله ـ فيجب أن أشرح لها كم كانت خطتي لتحرير نفسي منه دقيقة متأنية. سأشرح لها أيضاً أنني استخدمتها في تلك الخطة، لكنني لم أتصور أبداً أن تصل الأمور بينهما إلى هذا الحد.

سوف أطلب غفرانها. لكن خلاصها صار الآن أكثر أهمية من غفرانها لي. سوف أخبرها أن عليها أن تترك ريتشارد، أن تتركه على الفور، بل حتى الليلة، قبل أن يوقعها في شراكه.

عندما رأيت إيمّا آخر مرة، كنت أحاول ترتيب الصورة التي أريد أن تراني بها: حقيقة أننا نسختان قابلتان للتبديل في ما بينهما. أما الآن، فأنا أسعى إلى الصدق التام. أستحم، ثم أرتدي بنطلون جينز وقميصاً قطنياً خفيفاً. لا أهتم كثيراً بتصفيف شعري أو باستخدام مواد التجميل. وحتى أحرق الطاقة العصبية التي انفجرت في داخلي، أقرّر أن أذهب إلى بيتها سيراً على الأقدام. سوف أغادر الشقة في الساعة الخامسة. لا يجوز أن أصل متأخرة.

أقول وأكرر لنفسي: كوني هادئة؛ كوني عقلانية؛ كوني مقنعة. لقد رأت إيمّا المسرحية التي قدّمتُها؛ وسمعت من ريتشارد وصفاً لشخصيتي؛ وهي تعرف ما يقوله الناس عني. مهمتي الآن أن أقلب كل شيء وأن أغيّر قناعاتها في ما يخصّني.

لا أزال مستمرة في تحضير ما أقوله لها لكن هاتفي يرن. رقم لا أعرفه. لكني أعرف رمز المنطقة معرفة جيدة: إنه اتصال من فلوريدا.

يتوتّر جسدي. أجلس على سريري وأحدق في الشاشة بينما يرن الهاتف مرة ثانية. عليَّ أن أرد على هذا الاتصال.

هذا الانتقام من جانب ريتشارد... ردّ على أي فعل من أفعالي؟ هل يعاقبني بسبب صورة ديوك، أم بسبب رسالتي إلى إيمّا، أم لأنني صرفت الشيك؟

أم لعله صار يعرف أيضاً أنني أرسلت تلك الوثيقة إلى إيمّا؟ آندي لا يفهم الأمر. لا يفهمه أحد! لا بد أن ريتشارد كان ساحراً عندما تحدّث معه. وسوف يكون ساحراً عندما يتصل بأسرة ماغي. سوف يحرص على الحديث معهم فرداً فرداً. بمن فيهم جيسون. سوف يذكر لهم اسمي قبل الزواج. سيأتي ذلك الاسم عفواً في سياق الكلام ـ وقد يقول لهم شيئاً عن أنني انتقلت إلى نيويورك.

فماذا سيفعل جيسون؟ أنتظرُ أن يغمرني ذلك الذعر المألوف.

إنه لا يأتي!

بدلاً من ذلك، يفاجئني انتباهي الآن إلى أنني لم أفكر في جيسون أبداً منذ أن تركت ريتشارد.

يقول لي آندي: «سوف تكون تلك الأسرة سعيدة بأن تسنح لها فرصة شكركما بشكل شخصي. ولا حاجة إلى القول إنهم يكتبون لكم رسائل في كل سنة فأقوم بتحويلها إلى زوجك».

أرفع رأسي. فكّري كما يفكّر ريتشارد. كوني مسيطرة على الموقف... «أنا لست... أنت تعرف... زوجي لم يطلعني على تلك الرسائل...». لا أدري كيف يظل صوتي ثابتاً عادي النبرة... «في الحقيقة، لقد تأثّرت كثيراً بوفاة ماغي. ولعل زوجي ظن أن قراءة تلك الرسائل ستكون مؤلمة لي. لكني أحب الآن أن أعرف ماذا كانوا يقولون فيها».

«أوه، بالتأكيد. كانوا، أكثر الأحيان، يبعثون برسائلهم الإلكترونية إليّ حتى أقوم بإحالتها إلى زوجك. لكني أتذكّر محتواها ولو أني لا أتذكر كلماتها بدقة. كانون يعبرون دائماً عن امتنانهم الكبير لكما ويقولون إنهم

يتمنّون لقاءكما في يوم من الأيام. يأتون لزيارة المأوى من حين لآخر. ما فعلتماه كان ذا أثر كبير في نفوسهم».

«هل تقول لي إن الأب والأم يأتيان إلى المأوى؟ وماذا عن جيسون، شقيق ماغي؟».

«نعم، يأتون جميعاً. أتت أيضاً زوجة جيسون وطفلاه. قص الطفلان شريط الافتتاح بعد أن قمنا بأعمال التجديد».

أتراجع خطوة إلى الخلف ويكاد الهاتف يسقط من يدي.

لا بد أن ريتشارد كان يعرف بهذا كله منذ سنين. لقد كان يعترض تلك المراسلات ويمنع وصولها إليّ. أراد أن أظل خائفة. أراد أن أظل نيللي المتوترة. كان في حاجة إلى التظاهر بأنه يحميني لأن لديه نقصاً ما. لقد عمل على زيادة اعتمادي عليه؛ وكان يتغذّى على خوفي.

من بين مظاهر قسوة ريتشارد كلها، كانت هذه الفعلة أسوأها.

أرتمي على السرير عندما أدرك هذا. ثم أتساءل عمَّ كان يفعله أيضاً حتى يثير قلقي عندما نكون معاً.

أقول لآندي بعد لحظة: «أود أن أتصل بوالدَيْ ماغي، ومع شقيقها أيضاً. هل يمكنك أن تعطيني أرقام هواتفهم؟».

أظن أن ريتشارد كان في غاية الغضب. وأظنه ما كان يفكر بأن آندي يمكن أن يخبرني عن تلك الرسائل. زوجي السابق هو الآن من يخونه وضوح التفكير.

لم يسبق لي أبداً أن أغضبته إلى هذا الحد؛ بل إن الأمور لم تقترب من هذا الحد في يوم من الأيام. لعله متلهّف الآن لإيقاع الأذى بي، على جعلي أتوقف. إنه متلهف على إزالتي من حياته.

أودّع آندي، ثم أتذكر أنّه يجب أن أسرع حتى أرى إيمّا. قاربت

الساعة الخامسة. إنه التوقيت الذي قررت الانطلاق فيه. يغمرني فجأة قلق من أن يكون ريتشارد في انتظاري خارج البيت. الحقيقة أنني لا أستطيع الذهاب إليها سيراً على الأقدام. سوف آخذ سيارة تاكسي. لكن لا بد لي من الوصول إلى سيارة التاكسي بأمان.

إن للبناء مدخلاً احتياطياً من الخلف يؤدي إلى زقاق ضيق فيه حاويات القمامة وحاويات المواد التي يُعاد تدويرها. فأي مدخل يتوقّع ريتشارد مني استخدامه؟

يعرف ريتشارد أنني أعاني شيئاً من رهاب الأماكن المغلقة وأنني أكره كثيراً الإحساس بأنني محصورة في مكان ما. ذلك زقاق ضيق. وهو خال من الناس عادة. ومحاط ببنايات مرتفعة. إذاً، هذا هو الطريق الذي يقع اختياري عليه.

أخلع حذائي وأنتعل بدلاً منه حذاء رياضياً، ثم أنتظر إلى أن تبلغ الساعة الخامسة والنصف. أنزل بالمصعد، ثم أفتح مزلاج الباب الاحتياط الخلفي. أدفع الباب فينفتح ثم أنظر إلى الخارج. يبدو لي الزقاق خالياً، لكني لا أستطيع رؤية ما خلف حاويات القمامة البلاستيك. أستنشق نفساً عميقاً ثم أبتعد عن الباب وأمضي في الزقاق مسرعة.

قلبي يكاد ينفجر. أترقّب في كل لحظة أن تظهر ذراعاه، أن تقبضا عليّ. أندفع مسرعة في اتجاه الرصيف الذي أراه أمامي. عندما أبلغه آخر الأمر، أدور على نفسي دورة كاملة وأنا ألهث وأنظر إلى كل ما يحيط بي.

ليس هنا. وأنا واثقة من أن جلدي سيحس بوقع نظرته المفترسة.

أمضي في الشارع ثم أرفع ذراعي وألوّح لسيارات التاكسي العابرة. لا يمر زمن طويل قبل أن تتوقّف إحداها، ثم يندفع السائق في زحمة السير متجهاً إلى شقة إيمّا.

تبلغ سيارة التاكسي زاوية الشارع عند بيتها؛ لكني أرى أنني وصلت قبل السادسة بأربع دقائق. أطلب من السائق أن يبقي عداد السيارة عاملاً وأكرر في عقلي، مرة أخيرة، ما سوف أقوله لها. بعد ذلك، أخرج من السيارة وأسير إلى باب بناية إيمّا. أضغط على مفتاح الشقة 5 ـ ج فأسمع صوت إيمّا عبر الإنترفون: «فانيسا؟».

«نعم». لا أستطيع منع نفسي من الالتفات خلفي مرة أخيرة. لكني لا أرى أحداً هناك.

يأخذني المصعد إلى طابقها.

تفتح لي الباب عند اقترابي. إنها جميلة كعهدها دائماً، لكنها تبدو قلقة. حاجباها مقطبان. تقول لي: «ادخلي».

أعبر العتبة فتغلق الباب الثقيل من خلفي. إنني وحدي معها الآن. تغمرني موجة ارتياح شديدة تجعلني أشعر بشيء من الدوار.

شقتها صغيرة مرتبة فيها غرفة نوم واحدة. وعلى الجدران بضع صور ضمن إطارات، أرى على الطاولة الجانبية وروداً بيضاً في مزهرية. تشير إليّ بالجلوس على الأريكة ذات الظهر المنخفض فأجثم على حافتها. لكنها تظل واقفة.

«أشكرك لأنك قبلت رؤيتي».

لا تجيبني.

«إنني راغبة في الحديث معك منذ زمن بعيد».

يبدو لي أن هنالك شيئاً ما غير طبيعي. إنها تلتفت من فوق كتفها. أراها تنظر في اتجاه باب غرفة النوم.

ومن زاوية عيني، أرى باب تلك الغرفة ينفتح.

أنكمش على الأريكة وترتفع يداي سريعاً بحركة غريزية لكي أحمي

نفسي. لا... أقولها في نفسي، أقولها في سري، أقولها يائسة. أريد الهرب، لكني لا أستطيع الحركة... تماماً مثلما يحدث في كوابيسي. لا أستطيع فعل شيء غير النظر إليه وهو يقترب مني.

«مرحباً يا فانيسا».

تنتقل عيناي إلى إيمّا. لا أستطيع قراءة تعابير وجهها.

أهمس: «ريتشارد. ماذا أنت... لماذا أنت هنا؟».

«أخبرتني خطيبتي بأنك أرسلت إليها بعض السخافات في ما يتعلق بردّ ثمن النبيذ». يواصل التقدم صوبي بحركة انسيابية لا استعجال فيها. يتوقف إلى جانب إيمّا.

ينزاح عن جسدي بعض الذعر الذي سكنه. ريتشارد ليس هنا لكي يؤذيني. لن يؤذيني جسدياً على أيّ حال. لن يفعل ذلك أمام أي شخص. أنه هنا لكي يضع نهاية لهذا الأمر كله من خلال هزيمتي أمام إيمّا.

أنهض واقفة على قدمي، ثم أفتح فمي، لكنه ممسك بزمام الموقف. عنصر المفاجأة في صفه.

«عندما اتصلت بي إيمّا، شرحت لها ما حدث بالضبط...». إنه توّاق إلى اجتياز تلك المسافة التي تفصل بيننا. أعرف هذا من عينيه المتقلّصتين... «وكما تعرفين جيداً، انتبهت إلى أن ذلك النبيذ ليس من المصاريف المتعلّقة بالعمل، فأنا أعرف أننا لم نشرب منه شيئاً في الحفلة. كان التصرّف السليم من الناحية الأخلاقية أن ألغي الدفعة من حساب AmEx وأسددها من بطاقة فيزا الشخصية الخاصة بي. أتذكّر أنني أخبرتك بهذا عندما أرسل محل سوذبي النبيذ إلى بيتنا ووضعته في القبو».

«هذه كذبة...». أستدير إلى إيمّا... «لم يطلب ذلك النبيذ على الإطلاق. إنه ماهر في هذا ـ يعرف كيف يخترع تفسيراً لكل شيء!».

صحنه؟ ولماذا أرسل لي هدية في الصباح التالي كانت بطاقة انتساب إلى دورة في الطبخ؟ هل كانت تلك بادرة ذكية لمّاحة؟ أم كان يحاول أن ينقل إليّ رسالة خفية مفادها أن ذلك الطبق لم يكن حسن الإعداد؟ هل كانت تلك عقوبة لي على بوحي ذلك اليوم في عيادة د. هوفمان بأنني حبلت عندما كنت في الكلية؟

كتبت قبل ذلك بعدة صفحات: لماذا ظهر بشكل مفاجئ في حفلة توديع العزوبية رغم عدم دعوته إليها؟ هل كان الحب ما يدفعه أم الرغبة في السيطرة والتحكم؟

مع تزايد أسئلتي، صار من المستحيل أن أواصل إنكار الأمر: إما أن يكون في ريتشارد خلل عميق ما، أو أن يكون ذلك الخلل عندي. الاحتمال الأول مخيف، والاحتمال الثاني مخيف أيضاً!

كنت واثقة من أن ريتشارد يحس بالتغير الذي حدث بيننا. كنت غير قادرة على منع نفسي من الابتعاد عنه... من الابتعاد عن أي شخص. تخلّيت عن عملي التطوعي كله. وصرت لا أذهب إلى المدينة إلا في ما ندر. مضى أصدقائي في مقهى جيبسون وفي روضة الأطفال، كل في حياته. بل حتى خالتي شارلوت كانت بعيدة عني لأنها اتفقت مع صديقة فنانة باريسية على أن تتبادلا شقتيهما مدة ستة أشهر... لقد فعلتا هذا عدة مرات في الماضي. كنت أشعر بأنني غارقة عميقاً في وحدتي.

قلت لريتشارد إنني مكتئبة لأننا لم نستطع إنجاب طفل. لكن عدم الحمل صار الآن نعمة!

صرت أهرب إلى الكحول؛ لكني لم أكن أفعل ذلك في حضور زوجي. كنت في حاجة إلى حضور الذهن في وجوده. وعندما أبدى ريتشارد ملاحظة حول كمية النبيذ التي أستهلكها خلال النهار وطلب مني الكف عن الشرب وافقته على ذلك. بدأت أقود السيارة لمسافة

«لن يأتي ريتشارد، أليس كذلك؟».

أجبتها على الفور: «لا تقلقي يا سامانثا. إنه لا يحب قضاء الوقت معك بأكثر مما تحبين قضاء الوقت معه».

تطور الكلام بيننا إلى مشادة فكان ذلك آخر اتصال هاتفي بيننا.

دخلت غرفة الضيوف ومددت يدي تحت الفراش لأخرج دفتر مذكراتي. رحت أسأل نفسي في تلك اللحظة إن كنت منزعجة غاضبة لأن سامانثا بدت وكأنها تعرف شيئاً لا أستطيع السماح لنفسي بقبوله... شيء من قبيل أن ريتشارد ليس زوجاً مثالياً؛ وأن زواجنا لا يبدو جيداً إلا عند النظر إليه من خارجه. الأمير/ جيد إلى درجة لا يمكن أن يكون حقيقة/ توحي ملابسك بأنك ذاهبة إلى اجتماع مع أهالي الأطفال. بل إنها دعتني ذات مرة باسم نيللي، وبنبرة صوت حملت أثراً واضحاً من السخرية، لا من المزاح.

رفعت الفراش بيدي اليمنى ومددت يدي اليسرى ورحت أحركها جيئة وذهاباً فوق نوابض السرير المغلفة، لكن أصابعي لم تلمس حواف دفتري المألوفة.

تركت الفراش وأضأت المصباح الليلي الذي إلى جانب السرير. ركعت على ركبتي ورفعت الفراش أعلى من ذي قبل. لم يكن دفتري هناك. نظرت تحت السرير، ثم بدأت أزيح الأغطية عن الفراش، ثم أزحت عنه الملاءة التي تغطيه.

توقّفت يداي عن الحركة عندما شعرت بتوتر كالكهرباء الساكنة ينتشر على جلدي. شعرت بنظرة ريتشارد قبل أن ينطق كلمة واحدة.

«أهذا ما تبحثين عنه يا نيللي؟».

نهضت على قدميَّ ببطء، ثم استدرت في اتجاهه.

كان زوجي واقفاً بباب الغرفة مرتدياً سرواله التحتي وبلوزة قطنية خفيفة قصيرة الكمين. وكان دفتري في يده.

«لم تكتبي شيئاً طيلة هذا الأسبوع. لكني أظنك كنت مشغولة. لقد ذهبتِ إلى متجر البقالة يوم الثلاثاء مباشرة بعد خروجي إلى العمل، ثم ذهبت يوم أمس بالسيارة إلى متجر المشروبات في كاتونا. أنت تحسنين التسلل، أليس كذلك؟».

كان يعرف كل ما أعرفه.

رفع الدفتر أمامي وقال: «تظنين أنني السبب في عدم قدرتنا على الإنجاب؟ تظنين أن عندي مشكلة في هذا؟».

كان يعرف كل ما أفكر فيه.

اقترب مني فتراجعت. لكنه لم يفعل غير أن التقط شيئاً عن الطاولة الصغيرة من خلفي. التقط قلماً.

«لقد نسيت شيئاً يا نيللي. نسيت القلم هناك. رأيت القلم هناك...». صار صوته مختلفاً... صار أكثر ارتفاعاً وحدّة على نحو لم أسمعه من قبل. كانت نبرات صوته شبه عابثة... «حيث يكون القلم، لا بد من وجود ورقة!».

راح يقلب صفحات الدفتر: «هذا جنون حقيقي...». تتالت جمله أسرع فأسرع... «ديوك! طبق لحم الخروف! قلبت صورتك على ظهرها! شغّلت نظام الإنذار في البيت!...». كان يمزّق صفحة جديدة مع كل اتهام ينطقه... «صورة زواج أبي وأمي! لقد تسللت إلى غرفة المستودع! تتساءلين عن تمثال كعكعة زفاف أبي وأمي؟ كنت تذهبين إلى المدينة للحديث عن زواجنا مع امرأة غريبة؟ أنت معتوهة، بل أنت أسوأ من أمك!».

لم أدرك أنني كنت أتراجع إلا عندما اصطدمت الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير بساقي.

«كنت نادلة بائسة غير قادرة حتى على السير في الشارع من غير تصور أن هنالك من يلاحقك...». مرر أصابعه في شعره فجعل قسماً منه منتصباً. كانت بلوزته مجعدة وشعر ذقنه نابتاً قليلاً... «أيتها العاهرة الجاحدة. كم يبلغ عدد النساء المستعدات لارتكاب جريمة قتل حتى يحظين برجل مثلي؟... حتى يعشن في هذا البيت؟... حتى يذهبن إلى أوروبا في إجازة ويقدن سيارات مرسيدس؟».

أحسست بأن الدم كلّه قد هرب من رأسي. وجعلني الذعر في شبه دوار. بدأت أقول بصوت متوسل: «أنت محق؛ أنت طيّب جداً معي. ألم تر الصفحات الأخرى؟ كتبت كم كان كرماً منك أن تدفع من أجل تجديد مأوى الحيوانات. وكتبت كم ساعدتني عندما توفّيت أمي. كتبت كم أحبّك أيضاً».

لكن كلماتي لم تكن تصله. بدا كأنه ينظر من خلالي. قال لي آمراً: «نظفي هذه الأوساخ!».

ركعت على ركبتي وبدأت أجمع الأوراق.

«مزّقيها».

جمعت كمية من الأوراق وحاولت تمزيقها لكن يديَّ كانتا مرتعشتين وكمية الأوراق أكبر من أن أستطيع تمزيقها.

«كم أنت فاشلة في كل شيء!».

أحسست تغيراً معدنياً في الهواء... بدا لي ممتلئاً بضغط مفاجئ.

قلت باكية: «أرجوك يا ريتشارد. أرجوك. أرجوك...».

أصابتني ركلته الأولى قرب أضلاعي. كان الألم انفجاراً. تجمعت على نفسي كأنني كرة وشددت ركبتي حتى صدري.

صاح وهو يركلني من جديد: «هل تريدين تركي؟».

جلس فوقي وأجبرني على الاستلقاء على ظهري، ثم ثبت ذراعي بركبتيه. كانت عظمتا ركبتيه يهرسان مرفقي.

«إنني آسفة. إنني آسفة. إنني آسفة». حاولت أن أتلوى حتى أفلت منه لكنه كان جالساً فوق بطني. لقد ثبتني تماماً.

أطبقت يداه على عنقي: «كان من المفترض أن تحبيني إلى الأبد».

كنت أحشرج وأنا أرفس وأتلوى تحته، لكنه كان أقوى مني كثيراً. بدأت عيناي تغيمان. حرّرت إحدى يدي فحاولت خمش وجهه وأنا موشكة على فقدان الوعي.

«كان من المفترض أن تنقذيني». صار صوته الآن ناعماً حزيناً.

لكن تلك الكلمات كانت آخر ما سمعته قبل أن يغمى علي. وعندما صحوت وجدت نفسي لا أزال مستلقية على الأرض. كانت صفحات مذكراتي قد اختفت.

كان ريتشارد قد اختفى أيضاً.

آلمتني حنجرتي وشعرت بظمأ شديد. بقيت مستلقية هناك زمناً طويلاً. لم أكن أعرف مكان ريتشارد. انقلبت على جنبي وطوّقت ركبتيَّ بذراعَيّ. كنت أرتجف في قميص نومي الرقيق. وبعد برهة، مددت يدي وجذبت اللحاف عن السرير. جعلني الذعر غير قادرة على الحركة؛ جعلني غير قادرة على مغادرة الغرفة.

ثم شممت رائحة قهوة طازجة.

سمعت خطوات ريتشارد تصعد درجات السلم. ما كان لدي مكان أختبئ فيه. وما كانت لدي قدرة على الجري. كان ريتشارد بيني وبين باب البيت.

دخل الغرفة دون استئذان. كان فنجان القهوة في يده.

قلت بسرعة: «سامحني...». كان صوتي خشناً... «لم أدرك أن... لقد كنت أشرب، ولم أكن أنم جيداً. لم يكن تفكيري واضحاً».

اكتفى بالنظر إلي. كان قادراً على قتلي. علي إقناعه بألا يقتلني.

قلت كاذبة: «لم أكن أريد تركك. ولا أعرف السبب الذي جعلني أكتب تلك الأشياء السيئة. أنت طيّب جدّاً معي».

تناول ريتشارد رشفة من فنجانه، لكن عينيه ظلتا تنظران في عينَيّ من فوق حافة الفنجان.

«أخاف أحياناً أن أكون قد صرت مثل أمي. إنني في حاجة إلى مساعدة».

«أعرف أنك لن تتركيني. أعرف هذا». لقد استعاد السيطرة على نفسه. وقد قلت له الكلمات التي يجب أن أقولها... «أعترف بأنني فقدت أعصابي، لكنك أنت من دفعني إلى ذلك». قال هذا كما لو أن ما فعله لم يكن أكثر من رفع صوته عليَّ خلال مجادلة بسيطة... «لقد كنت تكذبين علي. كنت تخدعينني. أنت لا تتصرفين مثل نيللي التي تزوجتها». توقف لحظة. ربت بيده على السرير فنهضت مترددة وجلست على حافته، لكني أبقيت على اللحاف من حولي كأنه درع يحميني. جلس إلى جانبي فأحسست بالفراش ينخسف تحت ثقله ويجعلني أميل في اتجاهه.

«لقد فكرت في الأمر ووجدت أنني مخطئ جزئياً. كان عليَّ أن أرى العلامات المبكرة. لقد سايرتُ اكتئابك. أنت في حاجة إلى ما يضبطك، إلى نظام ثابت. سوف تستيقظين وتنهضين معي من الآن فصاعداً؛ وسوف نمارس التمرينات الرياضية معاً كل صباح. وبعدها نتناول طعام الإفطار. مزيد من البروتيين. سوف تستنشقين الهواء النقي. وسوف تعودين إلى العمل مع بعض تلك اللجان في النادي. كنت تبذلين بعض

المراقبة قرب الباب. رأيت كدس سلال التسوق الحمر ذات المقابض المعدنية اللامعة، ورأيت مكان عرض المجلات الشعبية، ورأيت السكاكر بأغلفتها البراقة المجعّدة.

ما كنت أعرف أبداً كيف يستطيع زوجي مراقبتي على نحو مستمر. لكن رقابته ما عادت خفية على الإطلاق. صرت غير قادرة على التفلت من القواعد الجديدة الصارمة في زواجنا. وبالتأكيد، لم أكن قادرة أبداً على محاولة تركه.

سوف يعرف.

سوف يوقفني.

سوف يؤذيني.

وقد يقتلني.

بعد أسبوع من ذلك، أو بعد أسبوعين، رفعت رأسي عن طعام الإفطار ورحت أنظر إلى ريتشارد وهو يختار قطعة محمَصة من لحم الديك الرومي الذي طهوته مع البيض المخفوق. كان وجهه لا يزال محمرّاً قليلاً من أثر التمرينات الرياضية الصباحية. وكان البخار يتلوى صاعداً من فنجان قهوته. كانت صحيفة وول ستريت جورنال مطوية إلى جانب طبقه.

قضم قطعة من اللحم وقال: «إنه ممتاز».

«شكراً».

«ما خططك لهذا اليوم؟».

«سوف أستحم، ثم أذهب إلى النادي من أجل التحضير لبيع الكتب المستعملة. لدينا الكثير من العمل في تصنيف تلك الكتب وفرزها».

أومأ برأسه: «يبدو هذا جيداً». مسح أطراف أصابعه بمنديل الطعام ثم فتح الصحيفة... «لا تنسي أننا سنقيم مأدبة العشاء الوداعية بمناسبة تقاعد دانييل يوم الجمعة القادم. هل يمكنك انتقاء بطاقة لطيفة، وسوف أضع فيها تذكرة رحلتها البحرية؟».

«بالطبع». خفض رأسه إلى الصحيفة وراح يقرأ صفحة الأسهم.

وقفت ورفعت الأطباق عن الطاولة. وضعتها في آلة غسل الأطباق، ثم مسحت منضدة المطبخ وطاولة الطعام. وبينما كنت أمر بالإسفنجة على الرخام، اقترب ريتشارد مني وطوق خصري بذراعيه. قبّل رقبتي.

همس لي: «أحبّك».

«وأنا أحبّك أيضاً».

لبس سترته وحمل حقيبة أوراقه، ثم سار في اتجاه باب البيت. ذهبت خلفه ورحت أنظر إليه متّجهاً إلى سيارته المرسيدس. كان كل شيء مثلما أراده ريتشارد بالضبط. عند عودته الليلة إلى البيت سيجد العشاء جاهزاً. تخليت عن بنطلون اليوغا الرياضي وارتديت فستاناً جديداً. وسوف أسلّيه بقصة مضحكة عما قالته ويندي في النادي اليوم.

نظر ريتشارد إليَّ عبر زجاج النافذة الكبيرة، ثم قاد سيارته في اتجاه الخروج من فناء البيت.

صحت ملوّحة له بيدي: «مع السلامة».

كانت ابتسامته عريضة حقيقية. كان الرضا واضحاً عليه تماماً.

أدركت شيئاً في تلك اللحظة. وكان ذلك أشبه بشعاع صغير من شعاع الشمس يلوح في العتمة الرمادية القطنية الخارقة الضاغطة على روحي.

ما من سبيل لأن يتخلّى زوجي عني.

لا بد أن تكون فكرة إنهاء زواجنا فكرته هو.

الفصل السادس والثلاثون

يرن هاتفي الخليوي وأنا جالسة أعيد كتابة سيرتي الذاتية على كمبيوتري المحمول.

أرى اسمها على شاشة الهاتف. أتردّد قبل أن أجيب. ينتابني قلق من أن يكون هذا فخّ جديد من أفخاخ ريتشارد.

يقول لي صوتها الأبح الذي صرت أعرفه معرفة جيدة: «أنت محقة». أظل صامتة.

«... في ما يتعلق ببطاقة فيزا...». ينتابني خوف من أي شيء يمكن أن أقوله في هذه اللحظة فيجعل إيمّا تكف عن الكلام وتغير رأيها وتنهي المكالمة... «لقد اتصلت بشركة بطاقات الائتمان. ليست هنالك أي دفعة لتسديد ثمن نبيذ من محل سوذبي. لم يطلب ريتشارد نبيذ رافينو أبداً».

لا أكاد أصدق ما أسمعه في هذه اللحظة. ولا يزال جزء مني قلقاً من أن يكون ريتشارد خلف هذا. لكن نبرة صوت إيمّا مختلفة عما كانته في الماضي. ما عاد في صوتها ذلك الازدراء تجاهي.

«فانيسا، لقد كان شكلك عندما قال إنه سيرافقك إلى الأسفل... ذلك ما أقنعني بأن عليَّ أن أتحقّق. كنت أظن أنك في حالة غيرة.

ظننت أنك تريدين استعادته. لكنك لا تريدين استعادته، أليس ما أقوله صحيحاً؟».

«لا، لا أريده».

تقول إيمّا بصراحة مباشرة فجة: «أنت خائفة منه. هل ضربك حقّاً؟ هل حاول خنقك حقاً؟ لا أستطيع تصديق أن ريتشارد يمكن أن... لكن...».

«أين أنت الآن؟ وأين هو؟».

«أنا في البيت. وهو في رحلة عمل إلى شيكاغو».

أحمد الرب أنها ليست في شقة ريتشارد. قد تكون شقتها آمنة. لكن هاتفها قد لا يكون كذلك... «يجب أن نلتقي وجهاً لوجه». لكن لقاءنا هذه المرة سيكون في مكان عام.

«ما رأيك في مقهى ستاربكس في شارع...».

«لا، عليك أن تظلي على برنامج يومك الطبيعي. ما الذي كنت تعتزمين فعله اليوم؟».

«سأذهب إلى صف اليوغا بعد ظهر اليوم. ثم أذهب بعد ذلك لأخذ فستان الزفاف».

لن نكون قادرتين على الحديث في استوديو اليوغا: «إذاً، أراك في محل فساتين الزفاف. أين هو؟».

تعطيني إيمّا العنوان والتوقيت وأقول لها إنني سأقابلها هناك. لكنها لا تعرف أنني سأصل في وقت مبكر حتى أتأكد من عدم وقوعي في كمين جديد.

صاحت بريندا، صاحبة المحل: «يا للعروس الرائعة!».

لاقت عينا إيمّا عينيّ في المرآة وهي واقفة على منصة مرتفعة في فستانها الحريري الضيق بلون الحليب. ليست مبتسمة؛ لكن بريندا تبدو شديدة الانشغال في عملية القياس النهائية للفستان فلا تلاحظ مزاج إيمّا القاتم.

تتابع بريندا كلامها: «لا أظنّه في حاجة إلى أي شيء أبداً. سوف أكويه على البخار ثم أرسله إليكِ غداً».

أقول لها: «يمكننا الانتظار في واقع الأمر. نريد أن نأخذه معنا». ركن تجربة الفساتين خالٍ، وفي زاويته عدة كنبات. إنه مكان منعزل آمن.

«في هذه الحالة، ما رأيكما في كأس من الشامبانيا؟».

أقول لها: «يسرني أن أشرب كأساً».

تومئ إيمّا برأسها موافقة.

أشيح برأسي جانباً عندما تبدأ إيما بخلع فستانها. لكني لا أزال أرى صورها المنعكسة في عدد من المرايا في أرجاء الغرفة ـ جلد ناعم وملابس داخلية وردية هفهافة. يا لها من لحظة حميمة على نحو غريب.

تأخذ بريندا الفستان وتضعه على علاقة مغلّفة بالقماش، أما أنا فأنتظرها نافدة الصبر إلى أن تخرج من الغرفة. أتجه إلى الكنبات حتى قبل أن تنتهي إيما من تزرير تنورتها. إن محل فساتين الزفاف هذا مكان يمكنني فيه أن أكون واثقة من عدم ظهور ريتشارد على نحو مفاجئ. عملياً، يُمنع العريس من رؤية خطيبته في فستان الزفاف قبل موعد العرس.

تقول إيمّا: «كنت أظنك مجنونة! خلال عملي في مكتب ريتشارد، كنت أسمعه يتحدّث معك على الهاتف ويسألك عما تناولته على الإفطار وما إذا كنت خرجت من البيت من أجل بعض الهواء النقي. كنت

أستطيع الاطلاع على الرسائل الإلكترونية التي يسألك فيها عن مكان وجودك. يقول لك إنه اتصل بك أربع مرات في اليوم وإنك لم تجيبي على اتصالاته. لقد كان دائم القلق عليك».

«أفهم تماماً كيف كان الأمر يبدو لكِ بهذه الصورة».

نصمت عندما تعود بريندا حاملة كأسَيْ شامبانيا. تقول: «أهنئك مرة أخرى...». أخاف أن تظل معنا وأن تكون راغبة في الكلام. لكنها تعتذر قائلة إن عليها متابعة وضع الفستان.

«أدركت أنني كنت أحاول تقييمك». تقول إيمّا لي هذه الكلمات من غير مواربة بعد أن تذهب بريندا. تنظر إليَّ نظرة فاحصة فأرى عينيها الزرقاوين المدوَّرتين مألوفتين على نحو غير متوقَّع. قبل تحديد سبب هذه الألفة تتابع إيمّا كلامها: «كانت لديك هذه الحياة التي لا ينقصها شيء مع رجل رائع تماماً. بل حتى لم تكوني تعملين. كنت مكتفية بالتجول في البيت الفاخر الذي دفع ريتشارد ثمنه. لم أكن أرى أنك تستحقين شيئاً من هذا».

تركتها تتابع كلامها.

تميل برأسها جانباً. أحس كما لو أنها تراني أول مرة: «أنت مختلفة عما تخيلته. لقد فكرت فيك كثيراً. كنت أتساءل كيف يكون إحساسك عندما تعرفين أن زوجك يحب امرأة غيرك. كان هذا الهاجس يبقيني ساهرة طيلة الليل».

«لم يكن الذنب ذنبك». ليست لديها أية فكرة عن مدى صدق جملتي هذه.

تنبعث طنة مرتفعة من حقيبة يدها. تتجمّد بعد أن كان كأس الشامبانيا على شفتيها. تنظر كلتانا إلى حقيبة يدها.

تخرج هاتفها.

«ريتشارد أرسل لي رسالة. لقد وصل إلى فندقه في شيكاغو. يسألني عما أفعله الآن ويقول إنه مشتاق إلي».

«اكتبي له أنك مشتاقة أيضاً. وقولي إنك تحبّينه».

يرتفع حاجباها، لكنها تفعل مثلما قلت لها.

«والآن، أعطني هاتفك...». أنقر على الهاتف ثم أجعل إيما تراه وأشير إلى الشاشة: «إنه يتعقّب حركتك. لقد اشتراه لك ريتشارد، أليس هذا صحيحاً؟ كما أن الحساب باسمه هو. يمكنه معرفة موقع هاتفك ـ أي موقعك أنت ـ في أي وقت».

لقد فعل معي الأمر نفسه بعد خطبتنا. لم أدرك هذا إلا بعد ذلك اليوم الذي كنت فيه واقفة في متجر البقالة أتساءل إن كان يعرف ما اشتريته من أجل عشائه. هكذا اكتشف أمر ذهابي سرّاً إلى المدينة وإلى محل المشروبات الواقع في بلدة قريبة.

كان ريتشارد مسؤولاً أيضاً عن الاتصالات الغريبة الغامضة التي بدأت تأتيني بعد معرفتي به. هذا ما أدركته في فترة متأخرة. كانت تلك الاتصالات عقوبة لي بعض الأحيان كما حدث خلال شهر عسلنا عندما ظن ريتشارد أنني أغازل مدرب الغطس الشاب. وفي حالات أخرى، كان يحاول إبقائي في حالة مضطربة غير متّزنة... يحاول توتير أعصابي حتى يتمكن من طمأنتي في ما بعد. لكني لا أحكي لإيمّا عن هذه الأشياء.

إيمّا تنظر إلى هاتفها: «هذا يعني أنه يتظاهر بعدم معرفته شيئاً عما أفعله على الرغم من أنه يعرف كل شيء...». تأخذ رشفة من كأسها... «يا إلهي، هذا تصرّف مريض».

«أدرك أن من الصعب عليك تلقي هذه الأخبار كلها». أعرف أيضاً أن هذا أقل ما يمكن أن يقال.

لا تبدو على إيمّا أيّ رد فعل أول الأمر. لعلها أدركت بغريزتها أنني سأنفجر باكية إن أظهرت تعاطفها معي. تكتفي بالنظر إليّ، ثم تدير وجهها.

تقول آخر الأمر: «لا أستطيع تصديق أنني فهمت كل شيء على نحو خاطئ هكذا... ظننت أنك أنت التي... سوف يعود غداً، وقد اتفقنا على أن أمضي الليلة عنده. وبعد ذلك ستأتي مورين إلى المدينة. سنلتقي في شقتي حتى ترى فستاني. ثم نذهب كلنا لاختيار كعكة الزفاف!».

ليست ثرثرتها هذه إلا علامة على توترها... علامة على أن حديثنا قد هزّها.

مورين عنصر تعقيد إضافي في الواقع. لا يفاجئني أن يدخلها ريتشارد وإيمّا في تحضيرات الزفاف. لقد رغبتُ في الشيء نفسه، أنا أيضاً. إضافة إلى العقد الخرزي ذي القفل الذي يشبه الفراشة، ذلك العقد الذي قدّمته إليها، طلبت رأيها في ما إذا كان ريتشارد يفضل الصور الملونة أو الصور بالأبيض والأسود من أجل ألبوم الصور الذي سيكون هديتي له بعد زفافنا.

لقد اتصل بها ريتشارد ووضعها على «السبيكر» ورحنا نناقش معاً أنواع المقبلات التي تسبق وجبة الطعام الرئيسية. أحطت إيمّا بذراعي. تصلب جسدها أول الأمر، لكنه استرخى قبل أن تبتعد عني. لا بد أنها الآن تجد مشقة في التعامل مع انفعالاتها.

أنقذيها. أنقذيها.

أغمض عيني وأتذكّر الفتاة التي لم أستطع إنقاذها. أقول لإيمّا: «لا تخافي. سوف أساعدك».

نصل إلى شقة إيمّا فتضع ثوب زفافها على ظهر الأريكة.

«ماذا؟ ...». تهز رأسها وتناولني كأس الماء... «لا، لماذا تسألين؟».

تريحني إجابتها. لكني أقول لها: «إنني أبحث عن الطريقة المثلى لتواصلنا». لن أقول لإيمّا الآن كل شيء. إذا عرفتْ أن حقيقة الأمر أسوأ بكثير مما عرفته الآن، فقد تكف عن الاستماع إلي.

ما من حاجة إلى شرح أنني واثقة من قدرة ريتشارد على التنصت على المكالمات التي كنت أجريها من هاتف بيتنا خلال فترة زواجنا.

لم أتوصّل إلى الاستنتاج الصحيح إلا آخر الأمر... إلا بعد أن ظهر لي على صفحات دفتر مذكراتي أن هنالك نموذجاً يتكرّر باستمرار.

عندما انطلق نظام الإنذار في بيتنا في ويستشستر فهربت واختبأت في الخزانة، أحسست أول الأمر بالاطمئنان لأن كاميرا المراقبة الموضوعة عند باب البيت الخلفي لم تبين أثراً لوجود شخص دخيل. ثم أدركت أن ريتشارد قد تفقد الكاميرات. لم يتحقق أحد غيره مما قد تكشفه.

تماماً قبل انطلاق نظام الإنذار، كنت على الهاتف مع سامانثا. لقد كنت أمزح عندما تحدّثت عن جلب رجال إلى البيت بعد ليلة من الرقص في البارات. لكني أظن الآن أن ريتشارد هو من أطلق نظام الإنذار. كانت تلك عقوبة لي.

كان يتغذّى على خوفي؛ وكان ذلك ينمّي إحساسه بالقوة. أفكر في الاتصالات الهاتفية الغامضة التي صارت تأتيني بعد خطوبتنا بفترة قصيرة. أفكر أيضاً كيف أخذ ريتشارد خطيبته المصابة برهاب الأماكن المغلقة إلى الغطس؛ وكيف كان يذكّرني دائماً بتشغيل نظام الإنذار. أتذكر كيف كان يستمتع بتهدئتي وإراحتي، كيف كان يهمس لي قائلاً إنه وحده من يحميني.

أخذت جرعة كبيرة من كأس الماء، ثم قلت لإيمّا: «في أي وقت يعود ريتشارد غداً؟».

«في وقت متأخر بعد الظهر». تنظر إلى فستان الزفاف... «يجب أن أعلّقه».

أذهب مع إيمّا إلى غرفة نومها وأنظر إليها وهي تعلّق الثوب على باب الخزانة. يبدو لي الفستان كأنه عائم في الهواء. لا أستطيع إبعاد ناظريَّ عنه.

ما عادت العروس التي كانت من المفترض أن تلبس هذا الفستان الجميل موجودة. سيظل هذا الفستان فارغاً يوم زفافها.

تسوي إيمّا علّاقة الفستان بحركة خفيفة. تتردّد يدها عنده قليلاً قبل أن تسحبها.

«لقد بدا لي شخصاً رائعاً جداً». صوتها ممتلئ دهشة... «كيف يمكن أن يكون رجل مثله قاسياً إلى هذا الحد؟».

أفكر في فستان زفافي الراقد في علبة حافظة في خزانتي القديمة في ويستشستر. كان محفوظاً من أجل الابنة التي لم أنجبها أبداً.

أبتلع ريقي بصعوبة قبل أن أتمكّن من الكلام.

«كان جزء من ريتشارد رائعاً حقاً. هذا ما جعل زواجنا يستمر تلك المدة كلها».

«ولماذا لم تتركيه؟».

«لقد فكرت في هذا. هنالك أسباب كثيرة لأن أتركه. وهنالك أسباب كثيرة لعجزي عن تركه».

تومئ إيمّا برأسها.

«... كان لا بد أن أجعله يتركني هو».

«لكن، كيف عرفت أنه يمكن أن يتركك؟».

أنظر في عينيها. لا بد من الاعتراف. لقد كان ما عرَفتْه إيمّا حتى هذه اللحظة شديد الوطأة عليها. لكنها تستحق أن تعرف الحقيقة. من غير ذلك، ستكون فريسة واقع زائف. وأنا أعرف تماماً كم يمكن لذلك الواقع الزائف أن يكون مدمِّراً.

«هنالك شيء آخر...». أعود إلى غرفة المعيشة فتتبعني. أشير إلى الأريكة... «هل يمكننا أن نجلس؟».

تجلس متصلبة على حافة مسند الأريكة كأنها تستعد لما سيأتي.

أكشف لها عن كل شيء: حفلة المكتب عندما رأيتها أول مرة. اللقاء في بيتنا عندما تظاهرت ب ثملة. الليلة التي تصنَّعت فيها المرض واقترحت على ريتشارد أن يأخذها إلى الحفلة الموسيقية بدلاً مني. رحلة العمل عندما شجعتهما على البقاء حتى اليوم التالي.

تكون ممسكة برأسها بين يديها عندما أنتهي من كلامي.

تصيح قائلة: «كيف تفعلين هذا بي؟...». تقفز واقفة على قدميها وتنظر إليَّ غاضبة... «كنت أعرف هذا طيلة الوقت. كنت أعرف أن فيك شيئاً غير طبيعي على الإطلاق!».

«إنني آسفة».

«هل تعرفين كم ليلة بقيت فيها مستيقظة أفكر في أنني أساهم في خراب زواجك؟».

لم تقل إنها كانت تشعر بالذنب، لكن من الطبيعي أن يكون لديها ذلك الشعور. أنا واثقة من أن العلاقة الجسدية بينهما بدأت عندما كنا لا نزال متزوجين. الآن، صارت ذكريات إيمّا كلها عن علاقتها بريتشارد ملوّثة مرتين: لا بد أنها تحس بنفسها بيدقاً استخدمتُه في قصة زواجي الفاشل. بل لعلها تظن بأن كلاً منا يستحق الآخر.

«لم أكن أظن أبداً بأن الأمر سيبلغ هذا الحد. لم أتوقّع أن يطلب الزواج منك. ظننت أن ذلك سيكون مجرّد علاقة».

تصيح إيمّا: «مجرّد علاقة». تتقد وجنتاها غضباً... يفاجئني الانفعال في صوتها... «كأن ذلك شيء صغير لا قيمة له! علاقات تدمّر الناس. هل فكرتِ يوماً في المعاناة التي سألقاها؟».

تسقط عليَّ كلماتها سقوط السياط، لكن شيئاً يشتعل في داخلي فأجد نفسي أردّ عليها.

أصيح: «أعرف أن هنالك علاقات تدمر الناس!». وأفكر كيف بقيت عدة أسابيع متكوّرة على نفسي في سريري بعد معرفتي بخداع دانييل، بعد رؤية زوجته ذات المظهر المرهَق. حدث هذا قبل نحو خمسة عشر عاماً، لكني لا أزال قادرة على رؤية الدرّاجة الصفراء ثلاثية العجلات والحبل الوردي تحت شجرة البلوط خلف فناء بيته. لا أزال أتذكّر كيف تعثّر قلمي على الورقة عندما سجلت اسمي في «عيادة الأمومة».

«لقد خدعني رجل متزوج ذات مرة، عندما كنت في الكلية». صار صوتي الآن أكثر رقة. إنها المرة الأولى التي أكشف لأي كان عن هذا الجزء بعينه من حكايتي. تجتاحني موجة ألم طازجة كأن ذلك حدث الآن... أصير من جديد كأنني تلك الفتاة محطمة القلب في الحادية والعشرين من عمرها... «ظننت بأنني أحببته. لكنه لم يخبرني عن زوجته أبداً. أظن أحياناً أن حياتي كانت ستمضي في مسار مختلف تماماً لو عرفتُ ذلك».

تجتاز إيمّا الغرفة بخطوات واسعة. تفتح باب الشقة.

«اخرجي...». لكن ذلك السم قد اختفى من صوتها. شفتاها مرتجفتان، ودموع تلمع في عينيها.

أقول لها راجية: «دعيني أقول شيئاً واحداً أخيراً. اتصلي الليلة بريتشارد وقولي له إنك غير قادرة الآن على المضيّ في هذا الزفاف. قولي له إنني أتيت إليك من جديد. وأن زيارتي كانت القشة الأخيرة». لا تستجيب لكلماتي، لكني أتابع الكلام بسرعة وأنا سائرة في اتجاه الباب... «اطلبي منه أن يقوم هو بإخبار الجميع بأن الخطبة قد فُسخت؛ هذه نقطة مهمة حقاً. لن يعاقبك إذا تحقق له الشعور بأنه قادر على التحكم بالرسالة التي تصل إلى الآخرين... إذا خرج من الأمر محتفظاً بكرامته».

أقف أمامها حتى لا تفوتها كلمة من كلماتي... «قولي له إنك غير قادرة على تحمل زوجته السابقة المختلة نفسياً. عديني بأن تفعلي هذا. عندها، ستكونين آمنة».

إيمّا صامتة. لكنها تنظر إليَّ، على الأقل، رغم أن عينيها باردتين كأنهما تقيّماني من جديد. تنتقل نظرتها من وجهي إلى جسدي ثم تعود إلى جسدي.

«كيف تعتقدين بأنني سأصدق أي شيء تقولينه لي؟».

«لست في حاجة إلى التصديق. أرجوك، اذهبي للإقامة عند بعض أصدقائك. اتركي هاتفك هنا حتى لا يتمكن من العثور عليك. إن غضب ريتشارد ينجلي سريعاً. لا أريد منك شيئاً غير أن تحمي نفسك».

أجتاز العتبة إلى الخارج، ثم أسمع صوت انطباق الباب بعنف من خلفي.

أسير في الممر متمهلة وأحدق في السجادة الزرقاء الداكنة تحت قدمي. لا بد أن إيمّا تعيد الآن تقييم كل ما قلته لها. لعلها غير عارفة أبداً أين تضع ثقتها.

إذا لم تتقيد إيمّا بالخطوات التي قلتها لها، فقد يطلق ريتشارد غضبه كلّه عليها... إذا لم يستطع العثور عليَّ خاصة. بل يمكن أن يحدث أسوأ من هذا: قد يقنعها بتغيير رأيها وإتمام الزواج.

ربما لم يكن صائباً أن أخبرها بدوري كيف سار الأمر كله. كان ينبغي أن أُغلّب أمانها على حاجتي إلى التخفيف من ذنبي... إلى أن أكون صادقة صدقاً تاماً. في تلك الحالة، من الممكن أن يجعلها جهلها أقل ضعفاً مما جعلتْها هذه الحقيقة الخطرة.

فما هي خطوة ريتشارد التالية؟

لدي أربع وعشرون ساعة إلى أن يعود من رحلته. ولا فكرة عندي الآن عمَّ أفعله.

أسير في الممر بخطوات بطيئة. لا أريد تركها... لا أريد! أسمع صوت فتح باب خلفي عندما أهم بدخول المصعد. ألتفت فأرى إيمّا واقفة على العتبة.

«تريدين مني إخبار ريتشارد بأنني ألغي الزفاف بسببك أنت!».

أومئ برأسي وأقول سريعاً: «صحيح. عليك إلقاء اللائمة كلّها عليّ».

تقطب حاجبيها. تميل برأسها جانباً ثم تحدّق بي بنظرة تتحرّك من رأسي إلى أخمص قدمي.

أقول لها: «إنه الحل الأكثر أماناً».

«قد يكون هو الحل الأكثر أماناً لي، لكنه ليس كذلك بالنسبة لكِ».

الفصل السابع والثلاثون

يقول ريتشارد: «اشتقت إليك كثيراً يا حبيبتي».

أحس بشيء ينتفض في صدري أمام هذا الحب وهذه الرقّة في صوته.

زوجي السابق واقف على مسافة لا تزيد على ثلاثة أمتار. عاد من شيكاغو قبل بضع ساعات. لكنه عرّج على شقته لارتداء بنطلون جينز وقميص خفيف قبل المجيء إلى شقة إيمّا. إنني جاثمة على الأرض أنظر عبر ثقب المفتاح في خزانة غرفة نومها. هذا هو المكان الوحيد الذي يخفيني ويسمح لي بالنظر إلى الغرفة في الوقت نفسه.

إيمّا جالسة على حافة سريرها مرتدية بنطلوناً رياضياً ضيقاً وبلوزة قصيرة الكمين. وعلى الطاولة الصغيرة إلى جانبها علبة مناديل وزجاجة دواء مضاد للاحتقان وفنجان من الشاي. أتأمل هذه اللمسات الصغيرة.

«أحضرت لك حساء الدجاج وعصير برتقال طازج من محل آي. أتيت ببعض الزنك أيضاً. يقسم مدربي على أنه قادر على هزيمة زكام الصيف بكل سهولة».

«شكراً لك». صوتها ضعيف ناعم. إنها مقنِعة تماماً.

«هل آتي لك بكنزة دافئة؟».

تتقلّص معدتي عندما أرى هيكل ريتشارد يملأ مجال رؤيتي ويحجب عني بقية الغرفة. إنه يقترب من مكان اختبائي.

«الحقيقة أنني أشعر بحرٍّ شديدٍ. هل تعطيني منشفة مبللة باردة حتى أضعها على جبيني؟».

لم نتمرن على هذا الموقف. إنها بارعة في الارتجال!

أظل حابسة أنفاسي إلى أن أسمع وقع خطواته يبتعد عني وأراه يتجه إلى الحمام. أتحرك قليلاً. إنني راكعة منذ بضع دقائق. أشعر بالألم في ساقيّ.

لم تنظر إيمّا في اتجاهي ولا مرة واحدة. لا تزال تحت تأثير صدمة ما كشفته لها. ولا يبدو عليها أنها واثقة بي ثقة كاملة. لكني لا ألومها.

لقد قالت لي يوم أمس وأنا واقفة في الممر قرب باب المصعد: «ليس من حقّك التدخّل في حياتي بعد الآن. لن أنهي هذا الأمر مع ريتشارد على الهاتف لمجرد أنك قلت لي هذا. أنا من أقرر متى ألغي زفافي».

لكنها تسمح لي الليلة، على الأقل، بالبقاء قريبة منها حاملة هاتفي في يدي. تسمح لي بمراقبته... تسمح لي بحمايتها.

توقّعت كلتانا أن يصرّ ريتشارد على زيارتها عندما تقول له إنها مريضة. كان التظاهر بالمرض حلاً مناسباً لعدد من المشكلات. إذا كان ريتشارد يتتبّع حركات إيمّا، فالمرض يفسّر عدم ذهابها إلى درس اليوغا. المرض يفسّر أيضاً رغبتها في النوم في شقتها، ثم إنها لا تستطيع حتى أن تُقبّله فضلاً عن ممارسة الجنس معه. أردتُ أن أوفر عليها هذا كله.

يقول لها ريتشارد وهو يقترب منها: «هذه هي المنشفة يا حبيبتي». أراه ينحني فوق سريرها فيحجب ظهره عني حركاته. لكني أتخيّله يضع المنشفة الرطبة على جبين إيمّا ويمسّد شعرها. أتخيّله ينظر إليها بقدر كبير من المحبّة.

أشعر كما لو أن عظمتي ركبتيَّ تتحطمان على الأرضية الخشبية القاسية. إحساس بالاحتراق في عضلات فخذيَّ. ليتني أستطيع الوقوف وتحريك ساقيَّ قليلاً. لكن ريتشارد يمكن أن يسمع.

«لا أحب أن تراني على هذه الحال. إنني في حالة مزرية».

لو لم أكن أعرف الحقيقة، لاقتنعت تماماً بأنها بريئة من أية دوافع خفية.

«حتى عندما تكونين مريضة... تظلين أجمل امرأة في العالم».

لا أزال أعرف ريتشارد حقّ المعرفة. إنه يعني صادقاً كل كلمة يقولها. لو أن إيمّا تقول له الآن إنها تريد شراب الفراولة المثلج، أو جوارب دافئة من الكشمير، فهو مستعد للتجول في مانهاتن كلها حتى يأتي لها بأفضل ما هو موجود. سوف ينام على الأرض إلى جانب سريرها إذا قالت له إن هذا يريحها. إنه الجزء من طبيعة زوجي السابق الذي أجد صعوبة كبيرة في نزعه من قلبي. لكني لا أستطيع الآن رؤية أكثر من هيكله عبر ثقب الباب.

أغمض عينيَّ بشدة.

ثم أرغمهما على النظر من جديد. لقد تعلّمت مدى خطورة الغفلة عن الأشياء التي لا أريد تحمّل رؤيتها.

إذا لم تحقّق إيما توقّعات ريتشارد ـ ما عاد هنالك أي مجال لأن تحقّقها ـ فسوف تكون هنالك عواقب. إذا لم تكن الزوجة التي في أحلامه، فسوف يؤذيها ثم يقدم إليها بعض الحلي لتهوين الأمر عليها. وإذا لم تكوّن له عائلة ولم تخلق له البيت الذي يرضيه، فسوف يعتدي على حقيقتها من غير انقطاع، فيلويها ويشوّهها حتى تعجز هي نفسها عن التعرّف عليها. والأسوأ من هذا كله أنه سيأخذ منها كل ما تحبه، وكل مَنْ تحبه أيضاً.

يقول ريتشارد لإيمّا: «سأخبر مورين بأنك مضطرة إلى إلغاء لقائنا غداً».

ممتاز!... هكذا أقول في نفسي. قد يمنحنا هذا التأخير مهلة إضافية للتوصل إلى الطريقة الأمثل لتخليص إيمّا.

لكن إيمّا لا توافق على اقتراحه. أسمعها تقول له: «لا... أنا واثقة من أنني سأتحسّن سريعاً إذا حظيت ببعض الراحة».

«كما تريدين يا حبيبتي. أنت أهم شيء».

حتى عبر باب الخزانة المغلق، أستطيع الإحساس بالجاذبية المغناطيسية لسحر شخصيته.

كنت متمسكة بأملي في أن تبدأ إيمّا وضع مسافة بينها وبين ريتشارد منذ الليلة. لكن موقفها صار يبدو لي مزعزعاً بعد بضع دقائق فقط من حضوره.

عبر ثقب المفتاح، أرى أكفّهما متشابكة. وأرى إبهام يده يداعب معصمها بحركة رقيقة.

أود أن أقفز خارجة من الخزانة لأبعده عنها. إنه يزعزع ثباتها. إنه يعيدها إليه!

«ثم إن على مورين أن تأتي حتى أجعلها ترى فستان الزفاف...». ذلك الفستان معلّق إلى يساري الآن، على بعد سنتيمترات مني. وضعته إيمّا في الخزانة حتى لا يراه ريتشارد... «وعلينا أيضاً أن نقوم بتلك المهمات الممتعة المتعلّقة بالزفاف. هل تتوقع أن أتركك تذهب وحدك لاختيار الكعكة؟». كانت تقول هذا بصوت لعوب.

هذا عكس ما كان يجب أن يحدث. إيمّا التي أراها الآن مختلفة كل الاختلاف عن إيمّا التي كانت تتساءل قبل أربع وعشرين ساعة، عندما

كنا واقفتين في هذه الغرفة نفسها، كيف يمكن أن يكون ريتشارد رائعاً إلى هذا الحد وقاسياً إلى هذا الحد.

ما عدت قادرة على البقاء من غير حركة. أرفع ركبتي اليمنى عن الأرض ببطء وأضع قدمي على الأرض بكل هدوء. أكرر الحركة نفسها بساقي اليسرى. أنهض ببطء شديد، سنتيمتراً مؤلماً بعد سنتيمتر. الفساتين والقمصان تحيط بي، والأقمشة الحرير المتدلية تلامس وجهي. تصطدم إحدى علاقات الملابس بالقضيب المعدني. صوت صغير جداً، محدود، رنة واهية لا غير.

أسمع ريتشارد يسأل: «ما هذا؟».

لا أستطيع رؤية شيء.

رائحته الليمونية تحيط بي، أو لعلي أتخيّل هذا؟ أنفاسي ضحلة، وقلبي يصطخب عنفياً. إنني مذعورة إلى حد يجعلني موشكة على الإغماء. جسدي ينتفض في الخزانة.

«إنه سريري القديم يطقطق قليلاً...». أسمع صوت حركة إيمّا؛ والعجيب أن السرير يصدر صريراً... «لا أطيق الانتظار حتى أنام في سريرك».

تدهشني مرة أخرى بحيلتها البارعة السريعة كالبرق.

ثم أسمعها تقول: «لكن، هنالك شيء لا بد لي من إخبارك به».

«ما هو يا حبيبتي؟».

تتردّد إيمّا.

أركع من جديد لأنظر من ثقب الباب.

ما الذي يجعلها تطيل الحديث هذه الإطالة كلّها. تعرف كم هو ذكي... ألا تريد خروجه من شقتها سريعاً قبل أن يكتشف أنها ليست مريضة حقاً.

كعكات زفاف مختلفة ويلف خصرها بذراعه ويهمس لها بالوعود ويقول إنه سيجعلها سعيدة؟

أقول لها: «لقد رأيتِ كيف ركل الجدار...». صوتي يرتفع قليلاً... «ألا ترين حقيقته؟».

المسألة أكبر بكثير من أن تتعامل معها إيمّا وحيدة. حتى لو تركها ريتشارد تذهب ـ أنا مقتنعة بأنه لا يمكن أن يفعل هذا ـ فماذا عن الطرق الكثيرة جداً التي يستطيع إلحاق الأذى بي من خلالها؟ وماذا عن المرأة التي كانت قبلنا، تلك الزوجة السابقة ذات الشعر الداكن التي لم تستطع الاحتفاظ بهدية ريتشارد الثمينة من تيفاني؟ إنني واثقة الآن من أنه آذاها أيضاً.

زوجي السابق مخلوق صاحب عادات ثابتة، رجل يحكمه روتين متكرّر. مهما تكن رائعة قطعة المجوهرات في العلبة الزرقاء اللامعة، فقد كانت اعتذاراً... كانت محاولة منه للتغطية ـ حرفياً ـ على شيء بشع.

لا تعرف إيمّا أنني عازمة على إنقاذ أية امرأة يمكن أن تصير زوجة ريتشارد.

«عليك إنهاء الأمر سريعاً. كلما استمر الأمر وطال، كلما صار أكثر سوءاً».

«قلت لك إنني سأفكر بالأمر».

تسير إلى الباب وتفتحه. لا أريد الخروج، لكني أسير فأتجاوزها.

تقول لي: «مع السلامة». لديّ إحساس غريزي بأنها لا تريد رؤيتي بعد الآن.

لكنها مخطئة في هذا!

مخطئة لأنني صرت الآن مدركة أنني في حاجة إلى خطة أضعها

وأنفذها بنفسي. زُرعت بذرة الفكرة في رأسي عندما كنت أنظر إلى انفجار غضب ريتشارد عند ذكر اسمي، عند سماعه بالقصة المتخيلة عن أنني اتصلت بها. تتخذ الخطة شكلها في ذهني وأنا سائرة في الممر ذي السجادة الزرقاء، وأنا أسلك المسار الذي سلكه ريتشارد قبل دقائق فقط.

تظن إيمّا بأن مورين ستأتي إليها يوم غد لرؤية الفستان، ثم يذهبون لاختيار كعكة العرس مع ريتشارد.

لا فكرة لديها عمَّ سيحدث حقاً.

مكتبة أهد

الفصل الثامن والثلاثون

صفحات عقدي الجديد للتأمين على الحياة تخرج متتابعة من الآلة الطابعة.

أكبسها معاً، ثم أضعها في مغلف. لقد حرصت على اختيار بوليصة تأمين تتجاوز تغطيتها احتمال موتي نتيجة أسباب طبيعية لتشمل أيضاً احتمال الموت أو التشوّه نتيجة وقوع حادث أو اعتداء.

أضع المغلف على مكتبي إلى جانب الرسالة التي كتبتها لخالتي شارلوت. إنها أصعب رسالة كتبتها في حياتي. تركت لها فيها معلومات عن حسابي المصرفي الذي صار فيه مال كثير حتى تتمكن من تحريكه. هي أيضاً المستفيد الوحيد المذكور في بوليصة التأمين.

بقيت أمامي ثلاث ساعات.

ألتقط قائمة المهمات التي وضعتها فأشطب تلك المهمة. غرفتي نظيفة، وسريري مرتب. ممتلكاتي كلها موضوعة في خزانة ملابسي.

في وقت سابق من هذا اليوم، شطبت بندين من بنود المهمات على القائمة. لقد اتصلت بوالدَيْ ماغي. وبعد ذلك اتصلت بشقيقها جيسون.

لم يتذكر اسمي أول الأمر. لم يتذّكره إلا بعد لحظات. كنت أسير في الغرفة خلال فترة التوقّف القصيرة التي استلزمتها عملية الربط الذهني تلك؛ وكنت أتساءل إن كان سيقر بمواجهاتنا السابقة.

لكنه شكرني كثيراً على تلك التبرّعات المقدمة إلى مأوى الحيوانات، ثم أخبرني عن حياته منذ أيام الكلية. قال لي إنه تزوج صديقته التي تعرف إليها هناك. قال لي جيسون بصوت كادت العواطف تخنقه: «لقد بقيتْ معي. كنت في غاية الغضب تجاه الجميع، لكن أكثر غضبي كان موجّهاً إلى نفسي لأنني لم أكن هناك حتى أساعد أختي الصغيرة. عندما جرى توقيفي بسبب قيادة السيارة تحت تأثير الكحول وذهبت إلى مركز إعادة التأهيل، حسناً، كانت صديقتي الصخّرةَ التي تمسكتُ بها. لم تكن لتتخلى عني أبداً. وتزوجنا في العام التالي».

قال لي جيسون إن زوجته معلمة في المدرسة المتوسطة. تخرّجت معه في السنة نفسها. كان هذا سبب ذهابه إلى حفل تخرج قسمنا في مدرج بياجيه ووقوفه في الزاوية. لقد كان هناك من أجلها.

لقد جعلني قلقي وإحساسي بالذنب أختلق كذبة كبرى في حياتي. لكن الأمر ما كان متعلّقاً بي أبداً.

لم أستطع منع نفسي من الحزن على المرأة التي تركَتْ ذلك الخوف كله يصوغ قسماً كبيراً من خياراتها في الحياة.

لا أزال خائفة كثيراً، لكن خوفي لم يعد يقيّدني.

لا تزال على قائمة المهات بضعة بنود.

أفتح الكمبيوتر المحمول وأزيل تاريخ تصفّح الإنترنت... أحذف كل دليل على عمليات البحث التي قمت بها. أتأكد مرتين حتى أكون واثقة من أن بحثي عن بطاقات لرحلات بالطائرة وعن فنادق صغيرة غير معروفة ما عاد مرئياً لأي شخص يمكن أن يحاول الدخول إلى كمبيوتري.

لا تفهم إيما ريتشارد مثلما أفهمه. وهي غير قادرة على إدراك ما هو قادر عليه في حقيقة الأمر. من المستحيل تخيل ما يمكن أن يصير عليه في أسوأ لحظاته.

سوف يتابع ريتشارد هذا المسار ما لم أوقفه. لكنه سيصير أكثر انتباهاً وحذراً. سوف يجد طريقة لإدارة المنظار وإزاحة الواقع الحقيقي الحالي وتشكيل صورة برّاقة تلهي الناظر عن حقيقته.

أخلع ملابسي وأضعها على السرير، ثم أستحم بماء حار وأمضي في الحمام زمناً طويلاً محاولة إرخاء التوتر في عضلاتي. ألفّ جسدي بثوب الحمام وأمسح الضباب عن المرآة فوق المغسلة.

بقيت ساعتان ونصف الساعة.

أبدأ بشعري. أمشط خصلاته الرطبة إلى الخلف، ثم أربطها في عقدة محكمة. أضع الكحل وأحمر الشفاه بكل عناية وأختار القرطين الماسيين اللذين جاءاني من ريتشارد في ذكرى زواجنا السنوية الثانية. أثبت ساعتي الكارتييه ذات الحزام العريض على معصمي. من الضروري جدّاً أن أكون منتبهة إلى كل ثانية.

أختار الثوب الذي لبسته عندما ذهبت مع ريتشارد إلى برمودا. فستان ضيق كلاسيكي أبيض بلون الثلج. يكاد يكون ممكناً استخدامه فستان عروس في حفل زفاف بسيط على شاطئ البحر. كان هذا واحداً من الفساتين التي أعادها إليّ قبل بضعة أسابيع.

أختاره الآن لا من أجل تاريخه فحسب، ولا من أجل احتمالاته، بل أيضاً لأن له جيوباً.

بقيت ساعتان.

أضع حذائي، ثم أجمع المواد التي تلزمني.

أمزّق قائمة المهمات إلى قطع صغيرة، ثم ألقيها في المرحاض

وأجعل الماء المتدفق يجرفها. أنظر إليها تغيب وتختفي وأرى لون الحبر في الماء.

لا يزال أمامي شيء واحد قبل ذهابي. إنه أصعب بند على جدول المهمات. سوف يتطلب مني كل ما أملكه من قوة وكل ما لديَّ من موهبة وكل ما راكمته من قدرة على التمثيل.

أجد خالتي شارلوت في غرفة النوم الإضافية التي صارت مرسَماً لها. باب الغرفة مفتوح.

اللوحات مصفوفة ثلاثاً ثلاثاً عند الجدران في الغرفة كلّها. وعلى الأرض الخشب بقع من ألوان بهيجة. أستسلم لحظة أمام هذا الجمال: سماوات زرق، ونجوم ملونة متلألئة، وأفق في تلك اللحظة الأثيرية قبيل الفجر. نشوة جمال الأزهار البرية. حبة قمح جافة على طاولة قديمة. برج باريسي فوق نهر السين. انحناءةُ وجْنة امرأة، وجلدها الأبيض الحليبي الذي رسم العمر تجاعيده فيه. أعرف هذا الوجه معرفة جيدة... إنه صورة خالتي التي رسمَتها لنفسها.

خالتي شارلوت مأخوذة بالمنظر الذي تبدعه على القماش. ضربات فرشاتها أقل دقة مما كانت في الماضي. وأسلوبها أقل انضباطاً.

أريد أن تظل هكذا في ذاكرتي.

تمر بضع لحظات قبل أن ترفع رأسها وتطرف بعينيها: «أوه، لم أرك هنا يا حبيبتي».

أجيبها برقة: «لا أريد إزعاجك. إنني خارجة قليلاً، لكني تركت لك طعام الغداء في المطبخ».

«تبدين جميلة. إلى أين تذهبين؟».

«إنها مقابلة عمل. لا أريد أن أجلب النحس لنفسي. لكنني سأخبرك عنها الليلة بعد عودتي».

تقع عيناي على لوحة في آخر الغرفة: حبل غسيل معلق أمام بناية فوق قناة في مدينة البندقية. قمصان وبنطلونات وتنورات ترفرف في النسيم الذي أكاد أحسّه.

«لكن عليك أن تعديني بشيء قبل أن أذهب».

تقول خالتي شارلوت عابثة: «أراك تتخذين قرارات اليوم!».

«هذا جدي. الأمر مهم. هل تذهبين إلى إيطاليا قبل نهاية هذا الصيف؟».

تخبو الابتسامة على شفتي خالتي شارلوت: «هل هنالك شيء سيئ؟»

أتمنّى من كل قلبي أن أجتاز الغرفة وأحتضنها، لكني أخاف أن أصير عاجزة عن الذهاب إن فعلت هذا.

لقد كتبت لها ذلك كله في رسالتي:

هل تذكرين ذلك اليوم عندما علّمتني أن ضوء الشمس يحتوي على ألوان قوس قزح كلها. أنت كنت ضياء شمسي. أنت من علّمني كيف أعثر على أقواس قزح... أرجوك، اذهبي إلى إيطاليا، من أجلنا. سوف تحمليني معك دائماً.

أهز رأسي: «ما من شيء سيئ. كنت أعتزم أخذك إلى إيطاليا وأن تكون تلك مفاجأة لك. لكني أخشى ألّا نتمكن من الذهاب معاً إذا حصلت على هذه الوظيفة، هذا كل ما في الأمر».

«لا حاجة للتفكير في الأمر الآن. ركّزي على مقابلتك. متى موعدها؟».

أنظر إلى ساعتي: «بعد تسعين دقيقة».

«أتمنى لك حظاً طيباً».

أقذف لها قبلة في الهواء، ثم أتخيّل القبلة تحط على خدها الناعم.

الفصل التاسع والثلاثون

للمرة الثانية في حياتي، أجد نفسي واقفة في فستان أبيض عند بداية سجادة زرقاء طويلة أنتظر ظهور ريتشارد.

ينغلق باب المصعد من خلفه. لكن ريتشارد يظل ساكناً من غير أية حركة.

أشعر بثقل تحديقه رغم أن امتداد الممر كله لا يزال يفصل بيننا. إنني أتعمد إذكاء غضبه منذ أيام عدة، أتعمّد نبشه واستدراجه من حيث يكافح دائماً حتى يخفيه ويبقيه مدفوناً. هذا عكس ما علّمت نفسي فعله خلال فترة زواجي.

«هل فوجئت يا حبيبتي؟ هذا أنا يا نيللي».

بلغت الساعة تمام الثانية بعد الظهر. لا تبعد إيمّا عن مكان وقوفي الآن أكثر من عشرة أمتار. إنها في غرفة معيشتها مع مورين. لا تعرف أي منهما أنني هنا. لأنني تسلّلت قبل ساعة إلى البناية عندما تبعت موظفاً لتوصيل الطلبات عبر الباب الرئيسي. كنت أعرف بدقة متى يصل ذلك الرجل بملابس العمل حاملاً علبة مستطيلة طويلة. كنت أعرف هذا لأنني أنا من طلب إرسال هذه الورود البيض إلى شقة إيمّا في تلك الساعة من هذا اليوم.

يقول لي ريتشارد: «ظننتك سافرتِ وتركتِ المدينة».

«لقد غيرت رأيي. أردت أن أتحدّث مرة أخرى مع خطيبتك».

تلمس يداي أشياء مختلفة في جيبي. رد فعل ريتشارد ستحدّد الشيء الذي أخرجه أولاً. يتقدم ريتشارد خطوة على السجادة المستطيلة. يكاد يكون مستحيلاً أن أمنع نفسي من الانكماش والتراجع. تبدو بدلته السوداء وقميصه الأسود وربطة عنقه الذهبية الحرير في غاية الترتيب والأناقة على الرغم من حر الصيف. لم يفقد أعصابه تماماً بعد، ليس مثلما أريده أن يكون.

«حقّاً؟ وما الذي تريدين قوله لها؟». صوته هادئ منخفض على نحو خطير.

«سوف أبدأ بهذه...». أسحب ورقة من جيبي... «إنها فاتورة بطاقة فيزا التي تثبت أنك لم تطلب ذلك النبيذ». لا يزال بعيداً عني إلى حد يمنعه من رؤية الكتابة المطبوعة على الورقة بحروف صغيرة ومعرفة أن بيان مدفوعات فيزا الذي أحمله بيدي يخصّ بطاقتي، لا بطاقته.

يجب أن أتابع قبل أن يطلب مني رؤية هذا الدليل. أبتسم له على الرغم من تقلّص معدتي: «وسوف أشرح لإيمّا أيضاً أنك تلاحق حركتها عن طريق هاتفها...». أحاول إبقاء صوتي منخفضاً ثابتاً مثل صوته... «تماماً كما كنت تفعل معي».

أكاد أستطيع الإحساس بانقباض جسده كله: «لقد تجاوزتِ حدّكِ يا فانيسا...» يتقدم في اتجاهي خطوة محسوبة أخرى... «إنك تعبثين مع خطيبتي. بعد كل ما عانيته معك، أنت تحاولين الآن تخريب علاقتي بها!»

أحاول بطرف عينيّ تقدير المسافة التي تفصلني عن باب شقة إيمّا. يتوتّر جسدي استعداداً.

«لقد كذبتَ بخصوص ديوك. أعرف ما فعلته به، وسوف أخبر إيمّا بهذا...». ما أقوله ليس صحيحاً لأنني لم أتوصل أبداً إلى اكتشاف ما جرى لكلبي العزيز رغم كوني لا أظن في حقيقة الأمر أن ريتشارد قد أوقع به أذى حقيقياً... لكن محاولتي تصيب هدفها. أرى وجه ريتشارد يتقلّص حنقاً.

«ثم إنك كذبت بخصوص تحليل النطاف أيضاً...». فمي الجاف يجعلني أجد صعوبة في تشكيل الكلمات. أتراجع خطوة في اتجاه باب إيمّا... «أشكر الرب على أنك لم تستطع جعلي أحمل بطفل. أنت لا تستحق أن يكون لك طفل. لقد التقطتُ صوراً بعد أن آذيتني. ولقد جمعتُ الأدلة. لم تكن تظنني ذكية إلى هذا الحد، أليس كذلك؟».

إنني أختار تلك الكلمات بدقّة... كلمات أعرف أنها تثير جنون زوجي السابق.

كلماتي تفعل فعلها.

«سوف تتركَكَ إيمّا عندما أقول لها كل شيء...». ما عدت قادرة على منع ارتعاش صوتي. لكن الحقيقة في ما أقوله أمر لا يمكن إنكاره... «تماماً مثلما تركتكَ المرأة التي كانت قبلي...». أتنشق نفساً عميقاً قبل أن أنطق جملتي الأخيرة... «لقد أردت تركك أيضاً. لم أكن أبداً زوجتك الحلوة نيللي. لم أكن أريد أن أظل متزوّجة منك يا ريتشارد».

ينفجر غضبه... هذا ما توقّعته.

لكني أخطأت حساب سرعة فقدانه ضبط نفسه، وسرعة حركته بعد ذلك.

ينقض عليَّ قبل أن أفلح في اجتياز الخطوات القليلة التي تفصلني عن باب إيمّا.

تطبق كفا ريتشارد على عنقي وتمنعا وصول الأوكسجين إلى رئتَيّ.

ظننت أنه سيتاح لي وقت للصراخ. ظننت أنني سأدق الباب حتى تخرج إيمّا وموريين وتكونا شاهدتين على تحوّل ريتشارد. لن يتمكّن ريتشارد أبداً من تفسير عنفه على نحو يقنعهما. وسيكون ذلك دليلاً مادّياً لا يمكن العثور عليه في دفتر ملاحظات ولا في درج مصنفات ولا في غرفة تخزين. كانت شهادتهما بوليصة التأمين الثانية التي تلزمني حتى أنقذ الجميع... حتى أنقذ نفسي، وحتى أنقذ إيمّا، وحتى أنقذ غيرنا من النساء في مستقبل ريتشارد.

كنت أيضاً معتمدة على أن ريتشارد سيوقف هجومه عندما تظهر إيمّا وموريين. أو أنهما ستكونان قادرتين، على إيقافه ومنعه من إيذائي على الأقل. أما الآن، فما من سبب يرغمه على حرمان نفسه من حاجته إلى إنهاء أمري.

أحسست كأن حنجرتي تنسحق على عظام رقبتي. ألم مبرح. تتهاوى ركبتاي.

تمتد يدي اليسرى يائسة في اتجاه باب إيمّا رغم معرفتي بعقم هذه المحاولة. إنها الآن تدور حول نفسها مرتدية فستان عرسها أمام من ستصير قريبتها. ليس لديها أي فكرة عمَّ يحدث على الجانب الآخر من غرفة المعيشة من شقتها.

هجوم ريتشارد صامت تقريباً. تنبعث حشرجة من حنجرتي، لكن صوتها ليس مرتفعاً إلى حد يجعله يبلغ أي شخص يمكن أن يكون الآن في بيته في هذا الطابق.

يثبّتني على الجدار. أشعر بأنفاسه الحارّة على خدّي. وعندما يقترب أكثر، أرى الندبة فوق عينه، ذلك الهلال الفضي الصغير. يكتنفني الدوار، يقتلعني.

تبحث يدي عن عبوة رذاذ الفلفل في جيبي. أجدها فأخرجها، لكن

ريتشارد يصدم رأسي بالجدار في تلك اللحظة فترتخي قبضتي على العبوة. أسمعها تسقط على السجادة.

تظلم عيناي؛ وأرى حدوداً سوداً تحيط بمجال رؤيتي. أركل قصبتَيْ ساقيه ركلات متكررة محمومة، لكن ضرباتي لا تأثير لها عليه.

رئتاي تحترقان. أريد هواء!

تحدّق عيناه في عيني. تتشبّث يداي بملابسه، ثم أحس شيئاً صلباً في جيب سترته. أمسك به. أخرجه.

علي إنقاذ نفسي، وإنقاذها.

أستجمع آخر ما بقي لدي من قوة وأضربه بذلك الجسم الصلب على وجهه. يطلق ريتشارد صرخة.

تنبثق رشقة دم حمراء قانية من الجرح عند صدغه.

أحس بأطرافي ثقيلة، ويبدأ ارتخاء جسدي. تغمرني سكينة لم أحسها منذ سنين ـ بل لعلي لم أحسها في حياتي أبداً. تستسلم ركبتاي.

يختفي الضغط على رقبتي عندما أبدأ بالسقوط في الظلمة. أتهاوى إلى الأرض وأتنفس، أستنشق أنفاساً متقطعة. أسعل سعالاً شديداً، ثم أتقيأ.

«فانيسا!...». صوت امرأة يناديني من مكان أحسّه بعيد جداً.

أنا مستلقية على السجادة. إحدى ساقيَّ مطوية تحتي، لكني أحس كما لو أنني أطفو على صفحة ماء.

«فانيسا!».

إنها إيمّا. لا أستطيع الإتيان بأيّ حركة غير أن أدير رأسي إلى أحد الجانبين فأرى على الأرض قطع بورسلان متكسرة. أرى قطعاً من تمثال من الخزف الصيني ـ عروس شقراء مبتسمة ابتسامة حلوة، وعريسها الوسيم. إنه التمثال الذي كان موضوعاً على كعكة زفافنا.

أراه إلى جانب تلك القطع جاثياً على ركبتيه. وجهه خال من كل تعبير؛ وجدول من دم يسيل على وجهه ويلطخ قميصه الأبيض.

أتنشق نفَساً مؤلماً، ثم أتنشق نفَساً آخر. ما عاد في زوجي السابق أي شيء موح بالخطر. شعره منسدل على عينيه. إنه ساكن تماماً.

يسعفني الأوكسجين فيستعيد جسدي بعضاً من قواه، لكن حنجرتي متورمة تؤلمني. لا أستطيع بلع ريقي. أفلح أخيراً في شد نفسي إلى الخلف وأجلس مستندة على جدار الممر.

تسرع إيمّا إليّ. إنها حافية القدمين... وهي في فستان طويل أبيض، مثلي. فستان زفافها. «سمعت أحداً يصرخ ـ خرجت لأرى، لكن، عند ذلك. ماذا جرى؟».

لا أستطيع الكلام، لا أستطيع شيئاً غير ابتلاع أنفاس ضحلة متعجلة.

أرى عينيها تنظران إلى رقبتي وأسمعها تقول: «سوف أطلب الإسعاف».

لا يستجيب ريتشارد إلى أي شيء مما يحدث حوله، ولا إلى الشهقة التي أطلقتها مورين عندما ظهرت فجأة في باب الشقة.

«ماذا يحدث؟». تنظر مورين إليّ... تنظر إلى المرأة التي صرَفَتْها عنها باعتبارها شخصاً غير مستقر، باعتبارها زوجة أخيها التي تخلّى عنها. ثم أراها تنظر إلى ريتشارد، إلى الرجل الذي ساعدَته في بناء نفسه وأحبته حباً غير مشروط. تذهب إليه. تمد يدها وتلمس ظهره. أسمعها تقول: «ريتشارد؟».

يرفع يده إلى جبهته، ثم ينظر إلى بقعة الدم الحمراء على كفه. يبدو بعيداً على نحو غريب... كما لو أنه في حالة صدمة.

أكره رؤية الدم!... كان ذلك من أول الأشياء التي قالها لي ريتشارد.

أدرك فجأة أن ريتشارد لم يسبب لي أي نزف في أيّ حالة من حالات عنفه الجسدي تجاهي.

تجري مورين فتدخل الشقة ثم تعود حاملة مجموعة مناديل ورقية. تركع إلى جانبه وتضغط بالمناديل على جرحه. «ما الذي يجري؟... ». تغدو كلماتها أكثر حدة... «فانيسا، لماذا أنت هنا؟ ماذا فعلتِ به؟».

«لقد آذاني»... صوتي خشن. أشعر وكأن كل كلمة أقولها مثل كسرة بورسلان تجرح باطن حنجرتي.

لا بد لي من قول هذه الكلمات.

يجعلني الألم أكشّر وأنا أرغم صوتي على أن يكون أكثر ارتفاعاً: «لقد خنقني. كاد يقتلني. تماماً مثلما كان يؤذنيني عندما كنا متزوجين».

تطلق مورين زفرة، ثم تقول: «إنه لا يمكن... أن... لا، ليس...».

لكنها تصمت بعد ذلك. لا تزال تهز رأسها. لكن كتفيها يتهدلان ووجهها ينطفئ. وأنا واثقة كل الثقة من أنها تصدقني الآن رغم أنها لم ترَ بعد آثار أصابعه التي أعرف أنها تزداد حمرة على رقبتي.

تنهض مورين واقفة. تبعد المناديل الورقية عن وجه ريتشارد وتفحص وجهه. عندما تتكلّم بعد ذلك، تأتي نبرة صوتها جازمة، لكنها حانية أيضاً: «ليس جرحاً كبيراً. لا أظنه في حاجة إلى غرزات».

لكن ريتشارد لا يبدي أيّ استجابة لكلامها.

«سوف أهتم بكل شيء يا ريتشارد». تلملم مورين قطع البورسلان المتناثرة تضعها كلها في راحة يدها ثم تحتضن أخيها بذراعيها وتميل

برأسها على رأسه. لا أكاد أستطيع تمييز كلماتها الهامسة: «لقد اعتنيت بك دائماً يا ريتشارد. لم أسمح أبداً بأن يصيبك أي مكروه. لا تقلق. إنني هنا. سوف أصلح كل شيء».

كلماتها تحيّرني. العاطفة الغريبة الكامنة وراءها تحيّرني كثيراً. لا تبدو مورين غاضبة ولا حزينة ولا منزعجة.

صوتها مشحون بشيء لا أستطيع تحديده أول الأمر... لا أستطيع تحديده لأنه شديد الغرابة في هذا الموقف.

لكني أدرك الأمر في النهاية. إنها راضية!

الفصل الأربعون

أقف قبالة مبنى يشبه بيت عزبة ريفية جنوبية بأعمدته الكبيرة وشرفته المسقوفة المحيطة به من كل الجهات مع صف منتظم من الكراسي الهزازة. لكن الدخول إلى هذا المكان غير ممكن من غير المرور على البوابة التي يقف عليها حارس أمن. أظهر له بطاقة التعريف الشخصية التي تحمل صورتي. يفتش الحارس الحقيبة القماش التي في يدي. يرفع حاجبيه عندما يرى ما في داخلها، لكنه يكتفي بأن يومئ برأسه مشيراً لي بأن أتابع سيري.

أرى بضعة مرضى في مستشفى نيو سبرينغز. إنهم يعتنون بالمزروعات أو يلعبون بالورق على الشرفة. لكني لا أراه بينهم. يمضي ريتشارد ثمانية وعشرين يوماً في هذا المركز الصحي المخصص للأمراض العقلية الحادة حيث يخضع لجلسات معالجة يومية مكثفة. هذا جزء من الصفقة التي وافق عليها حتى يتفادى تقديمه إلى المحاكمة بتهمة الاعتداء عليّ.

أصعد درجات سلم الخشب العريض أمام المدخل فأرى امرأة تنهض من أحد كراسي الشيزلونغ. أطرافها حسنة التكوين ذات مظهر رياضي. أشعة شمس بعد الظهر المتألقة في مواجهتي، فلا أعرف تلك المرأة على الفور.

ثم أراها تقترب مني، فأعرف أنها مورين. «لم أعرف أنك ستكونين هنا اليوم». لا معنى لدهشتي هذه، لأن ريتشارد لم يبق له أحد غير مورين.

«إنني هنا كل يوم. لقد أخذت إجازة من عملي».

أنظر من حولي: «أين هو؟».

لقد أبلغني أحد معالجي ريتشارد هذه الرسالة: إنه يريد رؤيتي. لم أكن واثقة أول الأمر من أنني سأستجيب لهذا الطلب، ثم أدركت أنني في حاجة إلى هذه الزيارة أيضاً.

«ريتشارد يستريح الآن. أردت أن أتحدّث معك أولاً». تشير مورين إلى زوج من الكراسي الهزازة وتقول: «هل نجلس؟».

تنقضي برهة ريثما تضع مورين ساقاً فوق ساق وتمسّد ثنية في بنطلونها الكتاني. من الواضح أن لديها شيئاً ما. أنتظر إفصاحها عما تريد قوله.

«يؤسفني كثيراً ما جرى بينك وبين ريتشارد». أرى مورين تلقي نظرة سريعة على البقع التي صارت مصفرّة وباهتة على رقبتي. لكنْ هنالك انفصال غريب بين كلماتها وتلك الطاقة التي تنقلها بها. جسدها في وضعية متصلبة، وصوتها خالٍ من أي تعاطف.

إنها ليست مبالية بي. لم تكن مبالية بي في يوم من الأيام حتى خلال تلك الفترة المبكرة التي كنت آمل فيها أن نصير صديقتين.

«أعرف أنك تلومين ريتشارد. لكن الأمر ليس بتلك البساطة يا فانيسا. لقد عانى أخي كثيراً... أكثر مما تعرفين. بل حتى أكثر مما قد تتخيّلين».

لم أستطع منع نفسي من إظهار دهشتي أمام هذه الكلمات. إنها تصوّر ريتشارد ضحية.

«لقد هاجمني. وكاد يقتلني».

لا يبدو على مورين أي تأثر بصياحي لأنها تكتفي بالنحنحة قليلاً ثم تبدأ القول من جديد: «عندما توفي أبونا وأمنا...».

«في حادث سيارة».

تعبس قليلاً كما لو أن ما قلته أزعجها... كما لو أنها قد خططت لأن يكون الكلام من جانب واحد لا حديثاً متبادلاً بيننا.

«صحيح. فقد أبي سيطرته على السيارة فاصطدمت بالحاجز على حافة الطريق، ثم انقلبت. مات والدانا على الفور. ريتشارد لا يتذكّر الكثير. لكن الشرطة قالت إن آثار العجلات على الأرض تبين أن سرعة السيارة كانت كبيرة».

أنتفض وأقول لها: «ريتشارد لا يتذكّر، هل تعنين أنه كان في السيارة؟».

تقول مورين بنفاد صبر: «نعم، نعم. هذا ما أحاول أن أقوله لك».

إنني في غاية الدهشة. لقد حجب عني أجزاء من نفسه أكثر مما كنت أعرفه.

«كان الأمر فظيعاً بالنسبة إليه». تخرج الكلمات من فم مورين مندفعة كما لو أنها تريد المضي سريعاً عبر هذه التفاصيل قبل أن تصل إلى الجزء المهم من هذه القصة... «ظل ريتشارد عالقاً داخل السيارة، على المقعد الخلفي. أصيب في جبهته. تشوه هيكل السيارة إلى حد جعله غير قادر على الخروج منها. ثم مر زمن قبل أن يمر سائق آخر ويتصل بالمسعفين. أصيب ريتشارد بارتجاج دماغي وكان في حاجة إلى غرزات من أجل جرحه؛ لكن الأمر كان من الممكن أن ينتهي على نحو أكثر سوءاً بكثير».

أفكر في الندبة الفضية التي فوق عينه. تلك الندبة التي قال إنها كانت نتيجة سقوطه عن الدراجة.

أتخيّل ريتشارد مراهقاً ـ بل صبي في واقع الأمر ـ أتخيله متألماً شبه

فاقدٍ للوعي بعد الاصطدام. أتخيله ينادي أمه لكنه يفشل في إيقاظ أي من والدَيْه. أتخيله يحاول فتح أبواب السيارة المنقلبة على ظهرها. أتخيله يضرب زجاج النوافذ بقبضتي يديه ويصرخ. والدم... لا بد أن الدم من حوله كان كثيراً.

«كان أبي صعب المزاج. وكان يقود السيارة مسرعاً كلما غضب. أظنه كان في مجادلة مع أمي قبل الحادث...». الآن صار تدفق كلمات مورين أبطأ من ذي قبل. تهز رأسها... «أشكر الرب على أنني كنت أوصي ريتشارد بأن يضع حزام الأمان. كان يصغي إلى ما أقوله له».

أستجيب أخيراً وأقول: «لم تكن لديَّ أيّ فكرة».

تلتفت مورين وتنظر إليّ فأحس كما لو أنني أيقظتها من حلم... «صحيح. لم يكن ريتشارد يتحدّث عن ذلك الحادث مع أي شخص أبداً، إلا أنا. ما أريد منك معرفته هو أن أبي لم يكن يفقد أعصابه خلال قيادة السيارة فقط... بل كان يضرب أمي».

أشهق بحدة.

لم يكن أبي طيباً مع أمي على الدوام... هذا ما قاله لي ريتشارد بعد جنازة أمي عندما جلست مرتجفة في حوض الحمام.

يعود تفكيري إلى صورة والدَيْ ريتشارد التي أخفاها في غرفة التخزين. أتساءل إن كان في حاجة إلى أن يدفن تلك الصورة، بالمعنى الحرفي، حتى يبعد عنه ذكريات طفولته... حتى تصير تلك الذكريات أكثر إذعاناً للقصة التي يفضّل أن يرويها.

يسقط ظل فوقي. أدير رأسي بحركة غريزية. تقول لنا ممرضة ترتدي ثوباً أزرق وهي تبتسم: «آسفة للمقاطعة. طلبتِ مني إخبارك عندما يستيقظ شقيقك».

تومئ مورين برأسها: «هل يمكنك يا آنجي إخباره بأن ينزل إلينا...».

ثم تلتفت مورين إليّ... «أظن من الأفضل أن تتحدثا هنا بدلاً من الذهاب إلى غرفته».

تنظر كلتانا إلى الممرضة المبتعدة عنا. وعندما تصبح خارج مرمى السمع، يصير صوت مورين فولاذياً وتصير كلماتها مقتَضَبة: «اسمعي يا فانيسا. ريتشارد ضعيف في هذه اللحظة. هل يمكننا الاتفاق على أن تتركيه وشأنه؟».

«هو من طلب مني القدوم».

«لا يعرف ريتشارد الآن ما يريده. كان يظن قبل أسبوعين أنه يريد الزواج من إيمّا. وكان مقتنعاً بأنها كاملة...». تصدر مورين صوتاً يشبه ضحكة ساخرة... «هذا رغم أنه لا يعرف عنها شيئاً. هكذا كان يراك في ما مضى، أنت أيضاً. إنه دائم الرغبة في أن تبدو حياته على شكل محدّد... مثل العريس والعروس المثاليين في تمثال كعكة الزفاف الذي اشتراه لوالدينا منذ سنين طويلة».

أتذكّر التاريخ الذي كان مكتوباً أسفل التمثال فأقول لها: «هل اشترى ريتشارد ذلك التمثال لوالدَيْكما؟»

«أرى أنه لم يخبرك عن هذا الأمر أيضاً. اشترى هذا التمثال هدية لهما في ذكرى زواجهما. كانت لديه خطة كاملة تقضي بأن نعد لهما عشاء خاصاً ونصنع لهما كعكة. كان يريد أن يمضيا ليلة رائعة وأن يحب كل منهما الآخر من جديد. لكن، وقع ذلك الحادث؛ ولم يتمكّن من تقديم التمثال إليهما».

«لقد كان تمثال كعكة الزفاف فارغاً من الداخل. هذا ما ظننته عندما رأيته ذلك اليوم محطماً في الممر. أظنه أتى به حتى يراه مصمم كعكة الزفاف. لكن الحقيقة أن ريتشارد لا يناسبه الزواج من أية امرأة. وقد صارت مهمتي الآن أن أحرص على عدم حدوث ذلك».

ابتسمت مورين... كانت ابتسامتها كبيرة حقيقية صادقة فاجأتني تماماً.

لكنها لم تكن تبتسم لي. كانت تلك الابتسامة لأخيها الذي ظهر قادماً إلينا.

نهضت مورين واقفة: «سوف أترككما وحدكما بضع دقائق».

أنا جالسة إلى جانب الرجل الذي كان سرّاً غامضاً بالنسبة إلي... الذي ما عاد سراً غامضاً بالنسبة إلي.

كان في بنطلون جينز وبلوزة قطن بسيطة. وكانت شعرات ذقنه نابتة قليلاً. ورغم حقيقة أنه ينام الآن كثيراً، فقد بدا لي متعَباً وبدا لون جلده شاحباً. ما عاد ريتشارد ذلك الرجل الذي سحرني ثم صار يخيفني!

يبدو لي الآن شخصاً عادياً، شخصاً فقد قوته... من أولئك الرجال الذين لا أنظر إلى الواحد منهم مرتين وهو واقف في انتظار الباص أو وهو يشتري فنجان قهوة من كشك في الشارع.

أبقاني زوجي في حالة قلق واضطراب على امتداد سنوات كثيرة. كان يحاول أن يمحوني.

وكان زوجي أيضاً هو من طوّق خصري بذراعه على تلك الزلاجة الخضراء عندما انزلقنا مسرعين على صفحة التل في سنترال بارك. هو من كان يأتيني بالآيس كريم بنكهة الزبيب والروم في الذكرى السنوية لوفاة أبي ويترك لي رسائل حب على وسادتي من غير أي مناسبة على الإطلاق.

كان يأمل أن أستطيع إنقاذه من نفسه.

من ريتشارد: «فانيسا. أظن أنه يجب أن تذهبي الآن. سوف أرافقكِ إلى الخارج».

أنهض واقفة... لا لأنها قالت لي ذلك، بل لأنني مستعدة للذهاب: «وداعاً يا ريتشارد».

* * *

ترافقني مورين فننزل الدرجات متجهتين إلى ساحة وقوف السيارات. أسير خلفها بخطى بطيئة.

أقول مشيرة إلى كيس القماش: «يمكنك أن تتصرفي كما تشائين بألبوم صور الزفاف. لقد كان هدية مني لريتشارد، وبالتالي فهو من حقّه».

«أتذكّر هذا. لقد أدى تيري عمله جيداً. كان حظنا حسناً لأنه تمكن من الاستجابة لطلبك في ذلك اليوم على الرغم من ارتباطاته».

أتسمّر واقفة في مكاني. لم أخبر أحداً كيف اقتربنا كثيراً من احتمال ألّا يكون لدينا مصور في حفل زفافنا.

ثم إن قرابة عشر سنين مضت منذ ذلك الزفاف. حتى أنا ما كنت قادرة على تذكر اسم تيري بهذه السرعة.

عندما التفتت مورين إليّ ونظرت في عينيها تذكرت أن امرأة كانت قد اتصلت بالمصور وألغت حجزنا. كانت مورين قادرة على الوصول إلى المصور؛ وأتذكر الآن أنها اقترحت عليَّ إدخال صور بالأبيض والأسود عندما أرسلت إليها رابط موقع تيري على الإنترنت وطلبت رأيها بالهدية التي أردت تقديمها إلى ريتشارد.

في هذه اللحظة، تبدو نظرة عينيها الزرقاوين الجليديتين شبيهة بنظرة ريتشارد. من المستحيل تخمين ما تفكر فيه.

أتذكر الآن كيف كانت مورين تأتي إلى بيتنا في كل عطلة، وكيف

كانت تمضي أعياد ميلادها مع شقيقها منهمكَيْن في نشاطات كانت تعرف أنني لا أجد فيها متعة. أتذكّر أيضاً أنها لم تتزوج ولم تنجب أبداً. لا أتذكر أبداً أنها ذكرت، ولو مرة واحدة، اسم صديق أو صديقة من أصدقائها. تتوقّف عند أول ساحة وقوف السيارات وتلمس ذراعي: «سوف أهتم بأمر الألبوم. مع السلامة».

أحسّ كأن معدناً صقيلاً بارداً يلمس جلدي.

عندما أنظر إلى يدها أرى أنها وضعت خاتميَّ الاثنين في الإصبع الرابع في يدها اليمنى. تنتبه إلى نظرتي فتقول: «حتى لا يضيعا».

الفصل الحادي والأربعون

أقول لكيت وأنا أجلس في مكاني المعتاد على أريكتها: «أشكرك على استقبالي اليوم».

صحيح أنني لم آت إلى هذا المكان منذ شهور كثيرة ـ منذ كنت لا أزال متزوجة ـ لكن الغرفة تبدو لي مثلما كانت تماماً... المجلات الموزعة على شكل مروحة فوق الطاولة الصغيرة، والمصابيح الكروية عند إطار النافذة. وفي حوض ضخم قبالتي تماماً، تسبح اثنتان من أسماك الملاك تدوران حول نبتة خضراء كبيرة الأوراق في حين تجتاز سمكة مهرج مخططة بالبرتقالي والأبيض وسمكة زرقاء لامعة من أسماك الأمازون نفقاً حُفرَ في حجر كبير.

كيت لم تتغير أيضاً. عيناها كبيرتان متعاطفتان. وشعرها الطويل الداكن مسرّح إلى الخلف، عند كتفيها.

لقد أمسك بي ريتشارد عندما تسللت سراً إلى المدينة أول مرة حتى ألتقي كيت. لم أعد إليها إلا بعد فترة طويلة. وعندما عدت حرصت على إخباره بأنني أعتزم زيارة خالتي شارلوت، ثم تركت هاتفي في شقتها وذهبت مسرعة إلى موعدي مع كيت.

أبدأ الكلام: «إنني الآن مطلّقة».

تبتسم كيت ابتسامة خفيفة. إنها شديدة الحرص دائماً على تفادي السماح لي بمعرفة مشاعرها. لكني تعلّمت قراءتها رغم أننا لم نلتق إلا بضع مرات.

«تركني من أجل امرأة أخرى».

تختفي الابتسامة عن وجه كيت.

أضيف بسرعة: «لكنها لم تعد معه. لقد أصابه نوع من الانهيار... حاول إيقاع الأذى بي، وكان هناك شهود. إنه يتلقى مساعدة الآن».

أنظر إلى كيت وهي تتلقّى هذه المعلومات كلّها.

تقول لي آخر الأمر: «حسناً، هذا يعني أنه... أنه لم يعد يشكّل خطراً عليك».

«هذا صحيح».

تميل كيت برأسها جانباً وتقول لي: «هل تركك من أجل امرأة أخرى؟».

إنه دوري في الابتسام قليلاً هذه المرة: «كانت بديلة ممتازة. هذا ما فكرت فيه عندما رأيتها أول مرة... وهي أيضاً... هي الآن في أمان».

تستند كيت على ظهر مقعدها وتضع ساقاً فوق ساق: «كان ريتشارد دائماً يحب الكمال في كل شيء». وبذهن شارد، راحت أصابع يدها تدلك كاحلها.

لم تطرح كيت عليّ إلا بضعة أسئلة عندما التقيتها أول مرة. لكن تلك الأسئلة ساعدتني في فكفكة الأفكار المتشابكة في ذهني: هل يمكنك إخباري بالسبب الذي تظنين أنه يجعل ريتشارد يحاول إفقادك توازنك؟ ما الدوافع التي قد تكون لديه حتى يفعل هذا؟

أما في زيارتي الثالثة، عندما تساءلت بصوت مرتفع إن كان عليّ ـ بكل بساطة ـ أن أحاول ترك ريتشارد والذهاب للعيش عند خالتي شارلوت، وقفت كيت فجأة واقترحت عليَّ فنجاناً من الشاي.

أومأت برأسي موافقة، لكني كنت حائرة أيضاً.

مضت كيت في اتجاه المطبخ، أما أنا، فكنت أنظر إليها.

كانت قدمها اليمنى بطيئة الحركة كأنها تتجرجر على الأرض، وكان جسدها يعوّض عن ذلك بالميل إلى الأمام ثم إلى الأعلى حتى يستجمع العزم اللازم لدفعها إلى الأمام. لقد أصاب شيء ساقها... هي الساق التي كانت تدلّك أصابعها في بعض الأوقات خلال حديثنا. إنه شيء حدث لها فأورثها هذا العرج الواضح.

قالت لي بنبرة مرحة عندما عادت حاملة صينية الشاي: «ماذا كنت تقولين؟».

هززت رأسي عندما حاولت إعطائي فنجان الشاي. كنت أعرف أن يديَّ ترتجفان بقوة لا تسمح لي بحمل الفنجان.

نظرت إلى العقد البلاتيني المتقَن في عنقها وإلى سوارها العريض والخاتم بحجر الزمرّد في يدها اليمنى. قطع متميزة ثمينة. كانت قطعاً غير متناسبة مع ملابسها البسيطة.

«كنت أقول... لا يمكنني تركه هكذا...». ابتلعت بقية كلماتي.

اندفعتُ خارجة من شقتها بعد بضع دقائق وقد أصابني ذعر مفاجئ من أن يكون ريتشارد قد حاول الاتصال على هاتفي الذي تركته في بيت خالتي شارلوت. كانت تلك آخر مرة أرى فيها كيت قبل هذا اليوم.

أقول لها الآن: «هنالك محضر شرطة عن الحادثة. وقد تكلفت مورين بمراقبة ريتشارد».

تغمض كيت عينيها لحظة وجيزة، ثم تقول: «هذا جيد».

«إن ساقك...».

عندما تكلمَت كيت كان صوتها بارداً تماماً: «لقد سقطتُ على السلم...». تتردد لحظة ثم تبتعد عيناها فتنظران إلى السمكة اللامعة في حوض الأسماك... «جرت في تلك الليلة مشادة بيني وبين ريتشارد لأنني تأخرت على مناسبة مهمة...». صار صوتها الآن أكثر رقة وانخفاضاً... «ذهب إلى السرير بعد عودتنا إلى البيت... أما أنا فغادرت الشقة. كانت معي حقيبة ملابس...». تبتلع ريقها بصعوبة وتمتد يدها لتدلك ربلة ساقها... «قررت استخدام السلم في النزول بدلاً من المصعد. لم أكن أريد أن يسمع أحد صوت جرس المصعد عند فتح بابه. لكن ريتشارد لم يكن نائماً...».

يتقلّص وجهها لحظة، ثم تستعيد سيطرتها على نفسها: «لم أره بعد ذلك أبداً».

«يؤسفني كثيراً أن أسمع هذا. أنت الآن آمنة أيضاً».

تومئ كيت برأسها.

تقول لي بعد برهة: «كوني بخير يا فانيسا».

تنهض واقفة وتسير معي في اتجاه الباب.

أسمع تكة قفل بابها من خلفي وأنا أسير مبتعدة في الممر. وعندها، ألتفت التفاتة سريعة في اتجاه باب شقتها وقد لمعت في رأسي فكرة مفاجئة وتذكرت مشهداً رأيته منذ زمن بعيد.

المرأة ذات المعطف المطري التي كانت واقفة بالقرب من روضة الأطفال تنظر في اتجاهي وأنا أرتب غرفة الصف. وعندما اقتربتُ من النافذة، استدارت المرأة وسارت مبتعدة بخطوات بدت لي غريبة، غير طبيعية.

لعل خطواتها كانت كذلك نتيجة عرجها!

الفصل الثاني والأربعون

أستيقظ فأحس بضوء الشمس الغريب منسكباً عبر ستائر غرفتي يدفئ جسدي وأنا مستلقية في السرير في الغرفة الإضافية في بيت خالتي شارلوت.

هي غرفتي... أفكر في هذا وأفتح ذراعيَّ وساقيَّ كأنني نجمة بحر فأحتل مساحة السرير كلها. ثم أمد يدي اليسرى وأغلق المنبه قبل أن ينطلق رنينه.

لا يزال النوم يجافيني بعض الليالي عندما يدور كل ما جرى في رأسي وأحاول تجميع الأجزاء التي لا تزال لغزاً في عقلي.

لكن الصباحات ما عادت تخيفني.

أنهض من فراشي وألفّ جسدي بثوبي. أسير إلى الحمام من أجل دوش سريع فأمرّ بطاولة المكتب التي وضعتُ عليها مخطط رحلتنا إلى البندقية وفلورنسا. سأبدأ هذه الرحلة مع خالتي شارلوت بعد عشرة أيام. لا يزال الوقت صيفاً، ولن تحلّ بداية عملي في التعليم في روضة أطفال في جنوب برونكس إلا بعد يوم العمال.

بعد ساعة، أخرج من بنايتنا. أخرج إلى الهواء الدافئ. لست

في عجلة من أمري اليوم. أمشي الهوينا على الرصيف محاذرة تشويه مربعات لعبة «الحجلة» التي رسمها الأطفال بالطباشير. تكون مدينة نيويورك على الدوام أكثر هدوءاً في شهر آب؛ ويبدو إيقاعها أكثر لطفاً. أمرّ بمجموعة سائحين يلتقطون صوراً لمشهد الأفق. وأرى كهلاً جالساً على درجات بيت من الحجر يقرأ جريدة. بائع يملأ عدة دلاء بباقات من أزهار عبّاد الشمس والليلك وأزهار حمر وأرجوانية. أقرر شراء بعض الأزهار في طريق عودتي إلى البيت.

أبلغ المقهى فأفتح الباب، ثم أنظر في الداخل.

تسألني نادلة تمر قريباً مني حاملة عدداً من قوائم الطعام: «طاولة لشخص واحد؟».

أهز رأسي: «شكراً. أبحث عن أحد ما».

أراها في وسط الصالة ترفع إلى شفتيها فنجاناً كبيراً أبيض. يلمع خاتم الزواج في إصبعها عندما ينعكس عليه النور. أتوقف لحظة، وأحدّق فيه.

جزء مني راغب في الجري إليها. وجزء مني راغب في مزيد من الوقت للاستعداد.

ثم ترفع رأسها فتلاقي نظرتها نظرتي.

أسير إليها فتنهض سريعاً. تقترب من غير تردّد وتحضنني.

عندما ينتهي عناقنا ونفترق، تمسح كل منا عينيها. ثم ننفجر ضاحكتين.

أجلس على الكرسي المقابل لها.

«يسرني كثيراً أن أراك من جديد يا سامانثا». أنظر إلى عقد الخرز اللامع الذي تضعه وأبتسم.

«اشتقت إليك يا فانيسا».

أجيبها في ذهني: وأنا اشتقت إليك.

لكني لا أقول هذه الكلمات بل أمد يدي إلى حقيبتي.

أخرج من الحقيبة عقدي الخرز الذي يماثل عقدها.

خاتمة

فانيسا تسير على رصيف في قلب المدينة. شعرها الأشقر منسدل حراً على كتفيها، وذراعاها تتأرجحان إلى جانبيها من غير شيء يقيّدهما. شارعها أكثر هدوءاً مما هو معتاد في آخر أيام الصيف؛ لكن باصاً يمضي وحيداً متثاقلاً في الشارع حيث وقفتُ أترصدها. بضعة مراهقين يلهون عند الزاوية وينظرون إلى واحد منهم يدور على لوح تزلّج ذي عجلات. أراها تمر بهم، ثم تتوقّف لحظة أمام كشك لبيع الأزهار. تتنحّى وتمد يدها إلى باقة غنية من ورود حمر في دلو أبيض. تبتسم للبائع عندما يعيد إليها بقية النقود، ثم تتابع سيرها نحو شقتها.

طيلة الوقت، عيناي لا تحيدان عنها أبداً.

عندما راقبتها في مرات سابقة، كنت أحاول تقدير حالتها النفسية. يقول صن زو في كتابه «فن الحرب: اعرف عدوك». قرأت هذا الكتاب خلال دراستي في الكلية فكان لهذه الجملة صدى عميق في نفسي.

لم تدرك فانيسا في يوم من الأيام أنني خطر عليها. لم تكن ترى غير ما أردتِ أن تراه. لقد صدقَتِ الوهم الذي خلقته لها.

تظنني إيمّا سوتون، المرأة البريئة التي وقعت في فخ نصبَتْه لها حتى تتمكّن من الإفلات من زوجها. وإلى اليوم، لم تفارقني الدهشة من إقرار فانيسا بأنها أشرفت على تطور علاقتي بريتشارد. كنت أظن أنني من ينسج الشباك.

من الواضح أننا كنا شريكتين في المؤامرة، عن غير قصد.

ليست لدى فانيسا أيّ فكرة عمن أكون حقاً. لا يعرف هذا أحد أبداً.

يمكنني أن أذهب الآن، ولن تعرف الحقيقة أبداً. يبدو لي أنها قد تعافت تماماً من كل ما حدث. ولعل من الأفضل لها ألّا تعرف شيئاً.

أنظر إلى الصورة التي في يدي. حوافها مهترئة من القدم ومن كثرة المرات التي أخرجها فيها حتى أنظر إليها.

إنها صورة أسرة تبدو عليها السعادة في الظاهر: أب وأم وطفل صغير له غمازتان، وفتاة لم تبلغ المراهقة تضع طوقاً لتقويم الأسنان. إنها صورة قديمة التقطت عندما كنت في الثانية عشرة... عندما كنت أعيش في فلوريدا. كان ذلك قبل بضعة شهور من تحطم أسرتي وانفراطها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلاً، وكان من المفترض أن أكون نائمة ـ تجاوز الوقت ساعة نومي ـ لكني كنت لا أزال مستيقظة. سمعت صوت جرس الباب، ثم سمعت صوت أمي تصيح، «سأفتح الباب».

كان أبي في غرفته. لعله كان يصحّح أوراق طلّابه. عادة ما كان يقوم بذلك في الليل.

سمعت همهمة أصوات، ثم سمعت صوت خطوات أبي في الممر ماضية صوب السلم.

قال بصوت مرتفع: «فانيسا!».

بدا لي صوته متوتّراً إلى حد جعلني أخرج من غرفتي. كانت جواربي تكتم صوت خطواتي على سجادة الممر عندما مررت بباب غرفة أخي المغلق ووصلت إلى أعلى السلم، ثم تجمعت على نفسي منتظرة هناك. كنت قادرة على رؤية كل ما يجري تحتي مباشرة. كنت شاهداً مختبئاً في الظلال.

رأيت أمي تطوي ذراعيها على صدرها وتنظر إلى أبي غاضبة. رأيت أبي يشير بيديه وهو يتكلم. رأيت قطتنا المرقطة تتمسح بساقَيْ أمي كأنها تحاول تهدئتها.

استدارت أمي في اتجاه أبي بعد أن أغلقت الباب.

لن أنسى أبداً كيف كان وجهها في تلك اللحظة.

قال أبي مؤكداً لها: «هي من تحرّشت بي». كانت عيناه المدورتان الزرقاوان مثل عينيّ تتسعان في تلك اللحظة... «كانت تأتي دائماً إلى مكتبي وتطلب أن أساعدها أكثر. حاولت صرفها عني أكثر من مرة، لكنها ظلت... لم يكن لذلك أي معنى، أقسم لك».

لكن الأمر لم يكن من غير معنى، لأن أبي ترك البيت بعد شهر.

ألقت أمي باللائمة على أبي، لكنها أيضاً كانت تلوم تلك الصبية الجميلة التي أغوته حتى يقيم علاقة معها. كانت تذكر اسم فانيسا خلال مشاجراتهما فيعوَجُّ فمها كأن حروف ذلك الاسم كانت مرة المذاق. صار اسمها عنواناً لكل خلاف ينشأ بينهما.

وأنا كنت ألومها أيضاً.

بعد تخرجي في الكلية، جئت في زيارة إلى نيويورك. وقد بحثت عنها بالطبع... كان اسمها في ذلك الوقت قد صار فانيسا ثومبسون. كان اسمي قد تغير أيضاً. فبعد ذهاب أبي، عادت أمي إلى اسم عائلتها القديم. سوتون. وعندما بلغت سن الرشد، غيرتُ اسم عائلتي أيضاً.

كانت فانيسا مقيمة في بيت كبير في ضاحية من ضواحي الأثرياء. وكانت متزوجة من رجل وسيم. كانت تعيش حياة ذهبية رغيدة... حياة لا تستحقها. أردت أن تنتهي حياتها المترفة تلك، لكني لم أستطع العثور على سبيل للاقتراب منها. ما كانت تخرج من البيت إلا لماماً. وما كانت هنالك طريقة تجعل دروبنا تتقاطع على نحو طبيعي.

كدت أختصر إقامتي في نيويورك وأعود من حيث أتيت. ثم أدركت شيئاً: يمكنني التقرب من زوجها.

كان العثور على مكان عمل ريتشارد أمراً سهلاً. وسرعان ما عرفت أنه يحب تناول فنجان اسبرسو مزدوجاً من المقهى الذي عند الزاوية في حدود الساعة الثالثة من بعد ظهر كل يوم. كان مخلوقاً ذا عادات ثابتة. أتيت بكمبيوتري المحمول وعسكرت على إحدى الطاولات هناك. وعندما جاء لشرب قهوته، تلاقت أعيننا.

كنت معتادة على أن يحاول الرجال التودّد لي، لكني كنت الطرف المبادر في تلك المرة. صرت كذلك لحظة تصوَّرتُها عندما كانت مع أبي.

ابتسمت له أجمل ابتساماتي: «مرحباً. اسمي إيمّا».

توقعت أن يكون راغباً في النوم معي... هذا ما يريده الرجال عادة. وقد كان هذا كافياً لي حتى إن استمر الأمر ليلة واحدة فقط، لأن زوجته ستكتشف ما حدث في آخر المطاف. كنت سأجعلها تكتشف ما حدث!

كان شيئاً مغرياً أن أفعل بها ما فعلَتْه بأمي. أحسست بأن ذلك أمر منصف.

لكن ريتشارد اقترح عليَّ أن أتقدم بطلب للعمل مساعدة في شركته.

بعد شهرين من ذلك، حللت محل سكرتيرته التي كان اسمها دايان. وبعد شهرين آخرين، حللت محل زوجته.

أنظر مرة أخرى إلى الصورة التي في يدي.

كنت مخطئة تماماً... في كل شيء.

كنت مخطئة في ما يتعلق بأبي...

لقد خدعني ذات مرة رجل متزوج عندما كنت في الكلية... هذا ما قالته فانيسا يوم التقينا في محل فساتين الزفاف... ظننته يحبني. لم يخبرني أبداً أنه كان متزوجاً.

كنت مخطئة في ما يتعلق بريتشارد أيضاً.

لقد حذّرتني عندما تواجهنا أمام شقتي: ستندمين إذا تزوجت ريتشارد!... ثم حاولت مرة أخرى عندما كان ريتشارد واقفاً إلى جانبي رغم أن الذعر كان واضحاً عليها كل الوضوح.

قالت لي: سوف يؤذيك!

أتذكّر الآن كيف شدّني ريتشارد إليه وطوقني بذراعيه عندما قالت فانيسا تلك الكلمات. بدا كأنه يريد حمايتي بتلك الحركة. لكن أصابعه انغرست في لحم ذراعي وتركت آثاراً داكنة صغيرة. لا أظنه كان مدركاً أنه كان يفعل ذلك فقد كان في تلك اللحظة ينظر إلى فانيسا غاضباً. وفي اليوم التالي، عندما التقيتها في محل فساتين الزفاف، كنت حريصة على ألا ترى تلك الآثار.

لكنْ هنالك أمر كنت مخطئة فيه أكثر من أي أمر آخر... كنت مخطئة في ما يتعلق بفانيسا.

ومن المنصف الآن أن تعرف أيضاً أنها كانت مخطئة في ما يتعلق بي.

أخرج من مكمني فأصير مرئية وأنا أجتاز الشارع مقتربة منها.

تستدير في اتجاهي حتى قبل أن أناديها باسمها، لا بد أنها أحست بوجودي.

«إيمّا! ماذا تفعلين هنا؟». لقد كانت صادقة معي رغم أن الصدق لم يكن سهلاً عليها في تلك اللحظة. لو لم تقاتل حتى تنقذني لكنت الآن متزوجة من ريتشارد. لكنها لم تتوقف عند ذلك. لقد غامرت بحياتها حتى تكشفه وتمنعه من الإيقاع بأيّ امرأة أخرى بعدنا.

«أردت القول لك إنني آسفة».

يرتفع حاجباها. إنها تنتظر.

«وأردت أيضاً أن تري هذه الصورة...» أناولها الصورة... «هذه كانت أسرتي».

تبقى فانيسا محدقة في الصورة بينما أحكي لها حكايتي بادئة بتلك الليلة من ليالي تشرين الأول منذ زمن بعيد عندما كنت مستيقظة بعد موعد نومي.

وعندها، يرتفع رأسها فجأة وتنظر ملياً في وجهي: «عيناك...» صوتها متوازن، محسوب... «تبدوان لي مألوفتين».

«رأيت أن من حقك معرفة الأمر».

تعيد فانيسا الصورة إليّ وتقول: «كنت أعجب من أمرك. بدوتِ لي كأنك ظهرت من العدم. عندما حاولت البحث عنك في الإنترنت، اكتشفت أنك لست موجودة إلا منذ ما قبل ذلك ببضع سنوات فقط. لم أستطع العثور على ما يتجاوز عنوانك ورقم هاتفك».

«هل تفضلين لو أنك بقيت غير عارفة بحقيقة هويتي؟».

تفكّر في هذا السؤال لحظة.

ثم تهز رأسها: «الحقيقة هي السبيل الوحيد للتحرّك قُدُماً».

بعد ذلك، ولأنه ما كان هنالك المزيد مما يمكن أن تقوله إحدانا للأخرى، أشرت إلى سيارة تاكسي كانت تقترب منا.

جلست في السيارة والتفتُّ لأنظر عبر زجاج النافذة الخلفية ثم رفعت يدي.

تنظر فانيسا إليَّ لحظة ثم ترفع يدها. حركتها كأنها انعكاس لحركتي.

تستدير وتمضي مبتعدة عني لحظة انطلقت السيارة بي. راحت المسافة بيننا تتزايد مع كل نفس من أنفاسي.

مكتبة أهد telegram @ktabpdf

غرييِر هِندريكس

تحمل غرييِر هندريكس شهادة الماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا الأميركية. عملت محررة أكثر من عشرين عاماً، ونشرت كتابات كثيرة في "نيويورك تايمز" و"أليور" و"بيليشرز ويكلي".

روايتها الأولى "الزوجة التي بيننا" بالاشتراك مع سارة بيكانن. ومن المنتظر أن تصدر لهما في سنة 2019 رواية مشتركة أخرى بعنوان "فتاة من غير اسم".

سارة بيكانن

عملت سارة بيكانن سنوات كثيرة في مجال التحقيقات الصحفية في "واشنطن بوست" و"يو إس توداي"، وصحف أخرى.

لها سبع روايات صدرت قبل تجربتها المشتركة مع غرييِر هندريكس "الزوجة التي بيننا".

من أهم رواياتها: أشياء لا يمكن قولها ـ الأفضل بيننا ـ الجيران الرائعون ـ التقاط الهواء

المترجم: الحارث محمد النبهان

من مواليد دمشق ـ سورية، سنة 1961. حائز على إجازة جامعية في الهندسة الميكانيكية من جامعة دمشق. كانت بداية عمله في الترجمة سنة 1991. صدر له أكثر من ثلاثين عملاً مترجماً؛ من أهمها:

- نعوم تشومسكي: "سنة 501، الغزو مستمر"
- هوارد زِن: "ماركس في سوهو" ـ مسرحية
- إريك هوبسباوم وتيرنس رينجر: "اختراع التقاليد"
- تشارلز تايلر: "المتخيلات الاجتماعية الحديثة"
- إيفان كليما: "حب وقمامة" ـ رواية

- جورج أورويل: "1984" ـ رواية
- جون ستيوارت مِل: "سيرة ذاتية"
- سول بيلو: "مغامرات أوجي مارتش" ـ رواية
- سينكلير لويس: "بابيت" ـ رواية
- كارل أوفِه كناوسغارد: "كفاحي" ـ الجزءان الأول (موت في العائلة) والثاني(رجل عاشق) ـ رواية/ سيرة ذاتية.

telegram @ktabpdf

تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

صادمة، لا تُنسى، تتركك مشدوهاً ... Publishers Weekly

وأنت تقرأ هذه الرواية، ستكوِّن افتراضات كثيرة:

ستقول إنها رواية عن امرأة مطلّقة غيور... ستقول إنها عن امرأة مهووسة بمن أخذت مكانها، فهي أجمل وأصغر وعلى وشك الزواج من الرجل الذي كان زوجها ولا تزال تحبه.

ستجد نفسك في دوامة محاولة فهم وتحليل دوافع الحب المعقدة لامرأتين تحبّان الرجل نفسه، والتساؤل عن مدى استحقاقه هذا الحب!!!

ننصحك أن تقرأ ما بين السطور.. وألّا تفترض شيئاً... لأنها ستفاجئك..

رواية ممتعة، مثيرة، استطاعت الكاتبتان فيها أن تكشفا النقاب عن أسرار تعقيدات زواج يبدو مثالياً مثيراً للحسد، والحقائق الخطيرة التي غالباً ما نتجاهلها باسم الحب..

تقدم رواية "الزوجة التي بيننا" حبكة ذكية خادعة وسرداً محفّزاً سريع الإيقاع. رواية جنونية إشكالية تحكي قصة حب بين ثلاثة أطراف لا تعرف فيها من تصدّق... أحببتها بالفعل..

Gilly Macmillan

رواية مربكة عن الزواج والخيانة، تسيطر عليك حبكتها وتأسرك شخصياتها. ستجعلك هذه الرواية تقلب صفحاتها حتى آخرها من دون توقف.

Lauren Weisberger

غرير هندريكس: عملت أكثر من عقدين محررة في دار نشر Simon & Schuster ، كما عملت في مجلة Allure. حصلت على ماجستير في الصحافة من جامعة كولومبيا، ونُشرت مقالاتها في كبريات المجلات العالمية. هذه روايتها الأولى.

ساره بكانن: من الكتّاب الأكثر مبيعاً في قوائم USA Today . عملت في الصحافة الاستقصائية، كانت تنشر في جريدة واشنطن بوست. أم لثلاثة أطفال، تعيش في ضواحي العاصمة واشنطن.

ISBN: 978-614-472-034-9

مكتبة ٣٠٠

منشورات الرمل
دار التنوير